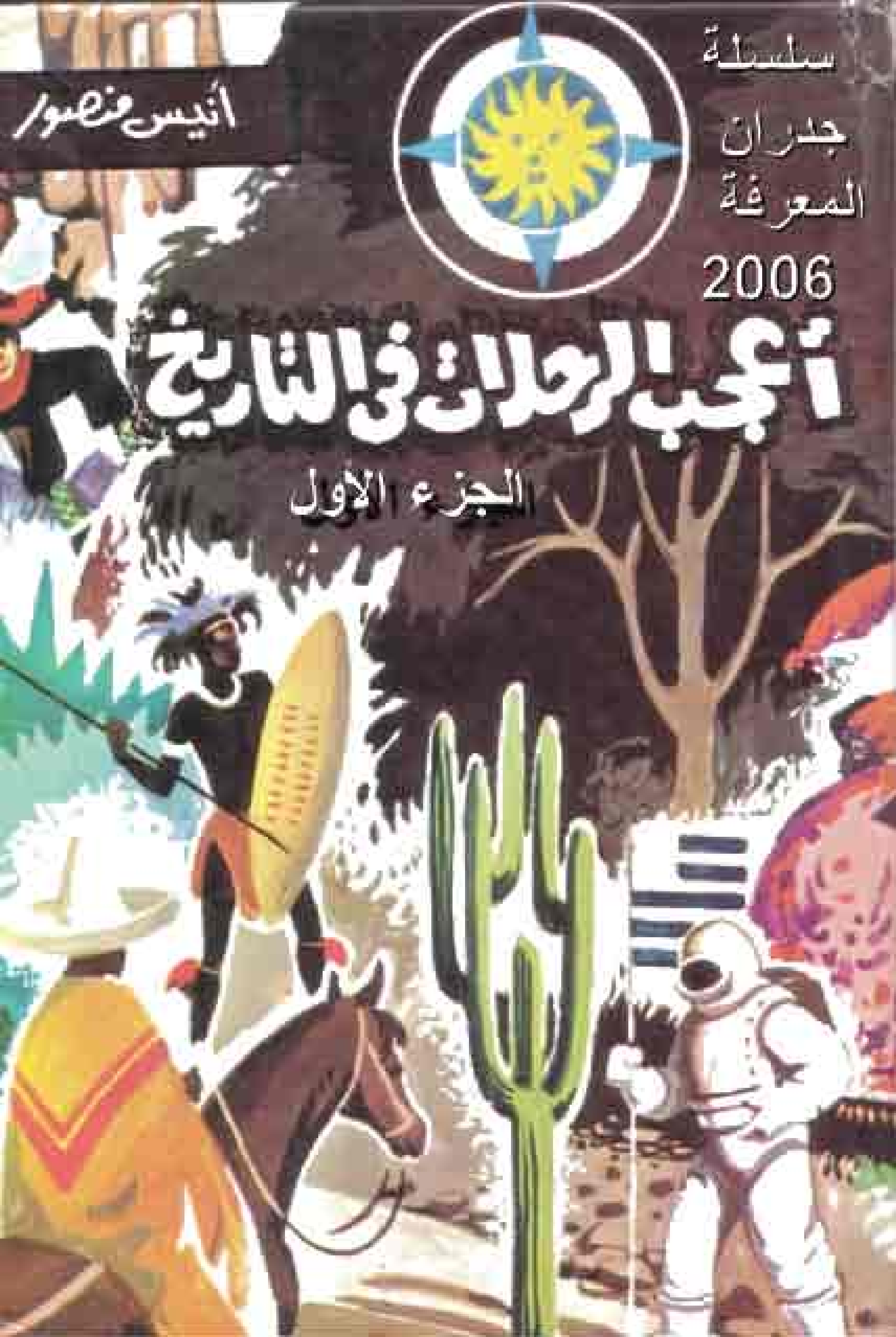


أنيس منصور
سلسلة
جدران
المعرفة
2006
أعجب الرحلات في التاريخ
الجزء الأول

الطبعة الأولى 1972
الطبعة الثانية 1973
الطبعة الثالثة 1976
الطبعة الرابعة 1977
الطبعة الخامسة 1979
الطبعة السادسة 1981
الطبعة السابعة 1982
الطبعة الثامنة 1984
الطبعة التاسعة 1988
الطبعة العاشرة 1989
الطبعة الحادية عشر 1991
الطبعة الثانية عشر 1994
الطبعة الثالثة عشر 1995

مطابع الاهرام التجارية - قليوب - مصر

طيور غريبة ...
على شجرة المسافرين

هناك ثلاثة أنواع من الرحلات :

– أن تسافر . .

– وأن تقرأ الكتب . .

– وأن تقرأ كتب الرحلات[1] !

والذى يسافر إلى الأماكن البعيدة يريد أن يعرف . . يريد أن يفهم . . يريد أن يرى الجانب الآخر من الجبل أو النهر أو من البحر . . والجانب الآخر من الإنسان ومن تجاربه من أجل الحياة والتقدم . .

وهناك فرق بين أن تسافر لترى البلاد ، وبين أن تسافر لتعرف الناس

والذى يسافر كثيراً يعرف الكثيرين ، ولكنه يصادق القليلين . . والمثل الإغريقى يقول : إن الحجر المتحرك لا ينبت عليه العشب – أى عشب الصداقة والمحبة والهدوء . . ولكن هل من الضرورى أن ينبت العشب على الحجر . . ليس ضرورياً . . يكفى أن الحجر يتحرك ويتنقل ويذهب هنا ، ويصطدم هناك . . ولكنه يمضى ويسجل فى أعماقه هذه الفوارق العريضة العميقة بين شعب وشعب . . وبين تجارب شعب وتجارب شعب آخر . . أى ما الذى فعلته الشعوب فى تاريخها . . وبتاريخها أيضاً . .

المهم أن يتحرك . .

---

(١) راجع كتبى : « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » و « بلاد الله خلق الله » و « اليمن ذلك المجهول » و « أطيب تحياتى من موسكو » .

والذى يسافر إلى بلاد أخرى ويعود يحدث أهله عما رأى ، هو فيلسوف والذى يروح ويجئ ولا يقول . . إنه صعلوك فقد استمتع واكتفى !

وفى الصفحات الأولى من ملحمة « الألياذة » نجد الشاعر الأعمى هوميروس يتحدث عن البطل فيقول : إنما راح وصارع وتعذب وانتصر وسجل ما رأى ليعود ويقول للناس شيئاً جديداً مثيراً ممتعاً !

وكثيرون راحوا وجاءوا . . وجاءوا كما راحوا ، لم يتغير منهم شئ . . وسبب ذلك أن نفوسهم صماء . . لم تنفتح على شئ ، ولم يتسلل إليها شئ . . والمثل القديم يقول : حمار سافر ، فلن يعود حصاناً !

وعندما شكا أحد تلامذة سقراط من أن السفر لم يفده ولم يغيره قال له سقراط : من الطبيعى ألا يفيدك السفر شيئاً ، لأنك سافرت مع نفسك !

فالطبيعى جداً أن يسافر الإنسان . . أن يرحل . . أن يذهب بعيداً عن بيته ووطنه . . ليرى ويعرف . . إنه حب المعرفة . . إنها المغامرة . . إنه المجهول الذى يتحدانا ونتحداه . . إنها متعة المعرفة والخوف منها معاً . . ولذلك فالرحلة هى مزيج من الرغبة والرهبة . . من الشجاعة والخوف . . ولكن الإنسان يفضل دائماً أن يعرف المجهول مهما كان الثمن . . وكثيراً ما دفع المسافرون أرواحهم من أجل أن يعرفوا . . وماتوا وهم يعرفون أكثر . . ولابد أن تعاستهم الوحيدة هى أن الموت حرمهم من أن يقولوا ما الذى رأوه . .

وكثيرون رأوا . . وعادوا يقولون . . إن المؤرخ هيرودوت جاء إلى مصر . . وعاد ورأى العجائب . . وكتب . . وكان يتغنى بما رأى فى مهرجان الألعاب الأوليمبية . .

والأسكندر الأكبر جاء إلى واحة سيوة . . وطلبت إليه إحدى الآلهات أن ينفرد بها . . وهمست فى أذنه بسر الكون . .

والقائد هانيبال أقسم أن يعبر البحر وأن يجعل الأمواج بساطاً إلى روما . . حتى يقضى على كل رومانى وحتى يمسك فى يديه مصير مدينةروما إلى الأبد.

— . . والرحالة الإيطالى ماركو بولو . . أهانته فتاة يحبها ، فأقسم ألا يعود إلى بلاده إلا وهو بطل تتعلق بحذائه عشرات الفتيات الجميلات . . ويرفضهن جميعاً !

وعاد ولم يجد الفتيات . . ولم يحزن على ذلك . . فالذى رآه أروع . . وأصدق . .

وابن بطوطه هاجمه الهنود ومزقوا مذكراته كلها . . وعاد ليروى ما حدث له فى عشرين عاماً من الذاكرة . .

والرحالة ابن جبير الكنانى الأندلسى الشاطبى قد تعب كثيراً من رحلاته فى الشرق الأوسط . . ولكنه فى النهاية سعيد بما رأى . . ويشكر الله على ذلك . . وفى نهاية رحلته يقول :

فألقت عصاها واستقر بها النوى

كما قر عيناً بالإياب المسافر

« والحمد لله على الصنع الجميل الذى
أولاه ، والتيسير والتسهيل الذى
والاه ، فكانت مدة مقامنا من موعد
خروجنا من غرناطة إلى وقت إيابنا
هذا ، عامين كاملين وثلاثة أشهر
ونصفاً ، والحمد لله رب العالمين »

وكل هؤلاء المسافرين المغامرين يتحدثون عن عذابهم بلذة . . ولو

خيرناهم أثناء رحلاتهم الطويلة أن يعودوا لرفضوا . . فهم يريدون أن يستمروا . . أن يمضوا حتى نهاية الرحلة . . أو نهاية الحياة . .

وفى كل كتب الرحلات هذه العبارة : لا أعرف ماذا حدث . . وكيف حدث . . ولكنى قررت أن أتوكل على الله حتى النهاية . .

فمثلا فى « رحلة كون تيكى » للرحالة النرويجى تورهايردال يقول : كان ذلك يوم ١٧ مايو . . إنه عيد الاستقلال . . ونحن فى عرض المحيط . . لا أعرف كيف حدث ما حدث . . كيف وجدت نفسى فى المحيط على زورق خشبى . . معى ببغاء وخمسة من البحارة . . ولما سألت واحداً منهم قائلا : كيف حدث ما حدث ؟ كان رده : « لا أعرف ، إنها فكرتك المجنونة . . ولكنها رائعة ! »

ولابد أن البحار هايردال قد اعتاد على هذا الجنون عندما عبر المحيط مرة أخرى بالزورق « رع » المصنوع من أعواد البردى . .

ويقال إن هيرودوت المؤرخ الكبير جاء إلى مصر هرباً من البوليس . . فقد اتهموه بالاشتراك فى مؤامرة . . وقد حاول هيرودوت أن يجعل لرحلته إلى مصر معنى نفسياً أو فلسفياً . . مع أنه ليس إلا مجرماً هارباً ، حاول أن يستفيد من منفاه !

ولابد أن صاحب هذا الرأى لا يقبل أن يسافر أى إنسان لمجرد السفر والمعرفة . . فلابد أن يكون هناك سبب . . فالغرض من السفر هو أن يخفف الإنسان من عذابه . . أن يلقى بهمومه على الشواطئ الجديدة . . ويرميها على الوجوه الجديدة . .

هذا المعنى أيضاً نجده فى الصفحة الأولى من « ألف ليلة وليلة » . . فهذه الليالى هى شكل أدبى لكى يروى لنا المؤلف المجهول حوادث ونوادر . . وعادات غريبة فى بلاد غريبة . . وليس صحيحاً أن هذه الليالى كانت

بسبب خيانة زوجة الملك شهريار أو زوجة أخيه الملك شاه زمان . . فألف ليلة وليلة تبدأ بأن الملك شهريار قد اشتاق لأخيه الأصغر شاه زمان . . وطلب إليه أن يجئ لزيارته . . وأعد الملك الأصغر خيامه وخيوله . . وفى آخر لحظة تذكر شيئاً — وكان لابد أن يتذكر هذا الشئ — وعاد إلى القصر ليجد زوجته بين ذراعى خادم زنجى . . فقتل الاثنين . . وسافر حزيناً إلى أخيه شهريار . . وعندما دعاه أخوه إلى الصيد والتخفيف عن نفسه ، اعتذر الأخ الأصغر وذهب الأخ الأكبر وحده . . وتصادف — ولابد أن يتصادف طبعاً — أن نظر الملك الأصغر من النافذة . . فوجد زوجة أخيه ومعها عشرة من الخدم الزنوج .. وتبادلوا عناقها جميعاً .. وكانت صدمة . وأحس الأخ الأصغر بأن مصيبته هو أهون من مصيبة أخيه . . وروى لأخيه ما حدث ولم يصدق . . وقرر أن يرى بعينه . . وتوارى ورأى — مصيبة أخرى !

ومن هذا الشعور بالهوان والخيبة واليأس تنبع قصص « ألف ليلة وليلة » فقد قرر الأخوان أن يسافرا إلى بلاد أخرى وشعوب أخرى . . ليريا إن كان هذا ما تفعله النساء مع كل الرجال أو أن هذه هى حال الدنيا . . أو حال دنياهما فقط . .

وتحت إحدى الأشجار وجد الأخوان فتاة جميلة ينام على ساقها عفريت فخافا . . ولكن الفتاة طلبت إليهما أن يهبطا وأن يعانقاها الواحد بعد الآخر . . وإلا أيقظت العفريت . . واقتربا منها . . وعانقاها ، الواحد بعد الآخر . . وأطلعت الأخوين على عقد به ٥٧٠ خاتماً . . قد أخذتها جميعاً من أناس عانقوها الواحد بعد الآخر ، بينما كان العفريت نائماً على ساقها . . وخلع كل منهما خاتمه . . وأعطاه للفتاة !

ومن المنطق أن يقول أحد الأخوين : إذا كان هذا هو حال المرأة مع عفريت فما الذى تفعله المرأة مع أى إنسان ؟

وعاد شهريار إلى بيته وقتل الزوجة وخدامها . . وراح كل ليلة يتزوج فتاة ويقتلها .. حتى جاءت شهرزاد تروى أكثر من مائتى قصة فى « ألف ليلة وليلة » وتروى له عجائب الدنيا لكى ينساها . . لقد اشترت حياتها بالرحلات والمغامرات . .

أما المعنى العام لهذه الليالى كلها فقد جاء فى صفحاتها الأولى هكذا :

لا تأمنن إلى النســـاء ولا تثق بعهــودهن
فرضــاؤهن وسخطهــن معلـق بصدورهـــن
يبـــدين وداً كاذبـــاً والغـدر حشو ثيابهـــن
بحـديث يوسف فاعتـبر متحـذراً من كيـدهن
أو مـــا ترى أبليـس أخرج آدماً من أجلهن؟!

والذى حدث للملكين ليس إلا « حيلة » أدبية لاستدراج القارئ . . وبعد ذلك تتحول الليالى إلى مغامرات فى البر والبحر وبين الناس . . وفيها شعر وخيال وفيها حقائق تاريخية جغرافية وموعظة أخلاقية !

وكثير من النوادر العجيبة التى دخلت فى عالم الخيال ، قد أعاد روايتها «ابن بطوطة» فى رحلته .. فهو يحدثنا عن الأحجار التى سقطت من السماء .. وعن النساء اللائى لهن ثدى واحد .. وعن العفاريت التى تحكم جزر المالديف فى المحيط الهندى ..

وكل صاحب رحلة يروى ما شاهد على طريقته وبأسلوبه .. ولكن من الضرورى أن يكون صادقا . وأن يضع الصدق فى براويز فنية .. والذى يقرأ « رحلات جيلفر » للكاتب الساخر الكبير سويفت يجد هذه العبارة فى نهاية الكتاب : (لو كان الأمر بيدى لأصدرت قانونا يحتم على كل رحالة أن يقسم بالله العظيم أن يقول الحق ولا شئ إلا الحق قبل أن ينشر ما رأى وما سمع » !

ومن الغريب أن هذه العبارة قد جاءت فى نهاية رحلات لا أساس لها من الواقع ، وإنما هى خيال الأديب الكبير الساخر – ومن المؤكد أنه يسخر من العلماء الجامدين الذين لا يصدقون ما يقوله الرحـــالة المغامرون .. ولا يحبون شاعرية المسافر الذى بهرته الأشياء والأشخاص والمواقف !

وليس المهم أن يسافر الغريب إلى أرض غريبة ، وإنما أن يعود إلى بلده ليقول .. لعل أحداً ينتفع بما قرأ .

وكثير من الناس لم يروا بلادهم وإنما فتحوا أعينهم وقلوبهم على الخارج وأقفلوها على أنفسهم .. وكان القديس أوغسطين ينصح تلامذته بقوله : بل اجلسوا .. اجلسوا .. وما هذه الأنهار والجبال والوديان والنجوم والفتيات.. بلادكم أولى بكم .. بل نفوسكم أعمق .. فانظروا فيها ..

وهو يدعو تلامذته إلى أن يتأملوا الإنسان نفسه .. فى النفس أعماق وألغاز ، أصعب مما فى هذا الكون كله . ولابد أن يستعين الإنسان بغيره على أن يفهم نفسه .. يستعين بالكتب .. أى بمؤلفى هذه الكتب .. ولذلك فقراءة الكتب : رحلات أخرى فى عقول الآخرين .. ووسيلة إلى الرحلات فى أعماقنا .

أما كتب الرحلات فهى أعماق الآخرين .. وأعماقنا نحن أيضا .. وأعماق هذه الدنيا .. ولذلك كانت أروع الرحلات هى التى نقوم بها فى رحلات الآخرين .. نرى بعيونهم ونسمع بآذانهم ، نرتمى على أحضانهم ونمشى على الدنيا معا .. وفى ذلك متعة للخيال وتشويق للإرادة .. أن نفعل مثلهم .. نسافر مثلهم .. ونكتب مثلهم .. وننفع بلادنا فى النهاية ..

ولاخوف إذا سافرنا .. ولاخوف إذا قصرت رحلاتنا .. ولا ضرر إذا لم ننجح كما نريد .. وإنما المهم أن نروح ونجئ .. أن نرى ونروى .. أن نعيش ونثبر .. أن ننتفع وننفع ..

ولا أزال أذكر ما قاله الحريرى فى كتاب « المقامات » :

نقل ركابك عن ربع ظمئت به إلى الجناب الذى يهوى به المطر

فإن رددت فما فى الرد منقصة عليك ،قد رد موسى قبل والخضر

ونحن فى عصر الرحلات والمغامرات العلمية بين الأرض والكواكب الأخرى .. وإذا كنا لا نعرف الكثير من هذه الكواكب ،، فلأن هذه الرحلات من الأسرار العلمية .. فأمريكا وروسيا ، لا تسمحان إلا بالقليل من المعلومات ..وحتى لو سمحت الدولتان ، فإن رواد الفضاء ليسوا من الأدباء أو الشعراء ولذلك لا يعرفون كيف يصفون .. حتى الجملة الوحيدة التى قالها أول إنسان وضع قدمه على القمر كانت قد كتبت له قبل أن يرتفع عن الأرض.. فلما رددها أخطأ فى النحو . !

ولكن المسافر ، يجب أن يكون قادراً على الاحتمال . وقادراً على الملاحظة . وقادراً على أن يروى بعد ذلك . وأن يكون ممتعا .. وهناك عشرات سافروا وغامروا ورأوا عجائب الدنيا القديمة والجديدة .. وأساءوا فهم ما رأوا .. وبرعوا فى فهم ما رأوا .. ولكنهم دائما يستحقون الإعجاب . ويستحقون أن نلتفت إليهم وأن نتعلم منهم .. وأن نلاحقهم جريا وراءهم بأقدامنا وعقولنا وخيالنا ..

ولما بدأ الإنسان حياته على هذه الأرض كان صياداً يرحل من مكان إلى مكان ولذلك يجب أن يبدأ كل طفل حياته وكذلك كل شاب : أن يسافر فى بلاده ليعرفها .. وأن يسافر إلى بلاد أخرى ليعرف ويقارن ويعود ليصلح نفسه وغيره .. وليضيف إلى تاريخ بلاده .. تجارب الآخرين .. فليس أروع من السفر .. وليس أحب من المسافرين الذين يقولون ويقدرون على ذلك ..

وفى جزيرة مدغشقر يوجد نوع من أشجار الموز .. الشجرة مرتفعة جداً ولها أوراق ملتوية كأنها ذراعان تحتضنان شيئا .. أما هذه الأوراق فتهبط

عليها الأمطار . وتنزل الأمطار إلى حوض فى نهاية الأوراق . ويظل المطر فى هذا الحوض ترتوى منه الشجرة فى وقت الجفاف . وقد سميت هذه الشجرة باسم « شجرة المسافرين » لأنها مثل المسافرين تدخر الماء لوقت الحاجة .. ولأن الكثيرين من المسافرين الذين لا يجدون الماء يبحثون عنه فى هذه الشجرة .. يرتوون ثم يتمددون تحتها وينامون ..

وهناك أسطورة تقول إنه إذا نام تحت الشجرة مسافر واحد ، فإن نوعا من الطيور يقف على هذه الشجرة .. وهذا الطير لا يقف على الشجرة إلا إذا كان النائم من بلاد غريبة ..

فما أكثر الطيور على أشجار المسافرين فى كل مكان !

وكان المصريون
يطلقون طيوراً من حجر

حدث له هو أيضا ما حدث لمحمد على الكبير عندما سقط فى الماء ، امتدت إليه أيدى البحارة .. وأنقذوه ثم أعادوه إلى الشاطئ فقد كان هارباً .

واختلف المؤرخون فى السبب الذى هرب منه المؤرخ الإغريقى هيرودوت الذى ولد سنة ٤٨٠ ق.م .

قالوا : هارب من ديون !

وقالوا : هارب من فضيحة أخلاقية .

وقالوا : بل من مؤامرة سياسية .

وعندما سئل بعض أقاربه أكدوا أنه مجنون ـ وأنه يحدث نفسه كثيراً وأنه يمشى أثناء النوم .. ولذلك فعندما حاول الهرب من « تركيا » إلى أى مكان فى العالم ، كان طبيعيا أن يفعل ذلك . أليس مجنونا !

ولكن هيرودوت لم يكن مجنونا إلا بالسفر .. إلا بأن يعرف من أين يجئ هؤلاء الناس الذين يراهم يعبرون الدردنيل .. إنهم بيض وسمر وصفر وسود .. طوال وقصار وعيونهم سوداء وزرقاء . . وشعرهم أسود وأصفر . ولا توجد بينهم نساء .. ولا أطفال ..

قرر الشاب هيرودوت أن يسافر .. ووجد نفسه ، وهو فى العشرين بين ركاب إحدى السفن . تمارض فى الأيام الأولى حتى لا يسألوه عن أى شئ . إن كانت معه فلوس . أو كان مسافراً أو مهاجراً . أو حتى من هو ولماذا ترك بلاده مع أنه ليس تاجراً ولا جنديا . وكان هيرودوت يخاف على شئ تعلق فى عنقه : إنه كيس من القماش ملأه بألواح من الشمع ليسجل عليها ملاحظاته . وعرف هيرودوت أنه مسافر إلى مصر .. وكان سعيداً . وطلب إلى المسافرين أن يستمعوا إليه وهو يغنى .. ويقال إن صوته جميل .

ولا يحدثنا هيرودوت عن السفينة أو البحر . فقد اتجهت عيناه وخياله إلى مصر والشواطئ المصرية والمعابد والأسرار . ويبدو أنه نزل عند رشيد . وأقام فى أحد الفنادق هناك . الفندق صغير من ست غرف . لكل واحد غرفة . ومن الغريب أن الناس يتحدثون بعضهم إلى بعض دون سابق معرفة .والمصريون كما يقول كرماء . كل واحد يعطيك ما فى يده وهو لا يعرف من أنت .. وإنما يحس أن من الواجب أن يفعل ذلك وإلا اعتبروه بخيلا — وهذه رذيلة كبرى !

ولم يمض وقت طويل على بقاء هيرودوت فى مصر حتى قال : « إنها أجمل بلاد الله . وفيها من العجائب والأسرار ما يعجز القلم عن وصفه » .

ولاحظ هيرودوت أن المصريين عموما فى غاية الرشاقة . رجالا ونساء . وبسرعة أدرك الفوارق بين المصريين وبين كل شعوب العالم . يقول هيرودوت إنه ذهب إلى الأرض التى جرت عليها إحدى المعارك الحربية بين المصريين والفرس . ولاحظ أن جماجم الفرس قد وضعت فى جانب .. وجماجم المصريين فى الجانب الآخر .. وأن جمجمة الجندى الفارسى هشة لدرجة أننا إذا ألقينا عليها حجرا ثقبها .. أما جمجمة الجندى المصرى فيصعب أن نثقبها بحجر . وسأل هيرودوت رجال الدين : ما السبب ؟ فقالوا إن المصريين يحلقون رؤوسهم تماما وتظل معرضة للشمس مدى الحياة وهذا يجعلها أكثر صلابة . أما الفرس فيضعون العمائم على رؤوسهم .

يقول هيرودوت : يبدو أن هذا سبب وجيه !

واندهش هيرودوت وهو يمشى فى شوارع المدن والقرى المصرية ... البيوت منعزلة بعضها عن بعض .. والمعابد كثيرة . والموسيقى تخرج من وراء كل باب ونافذة .. وهناك انحلال شديد . أو كما يقول هيرودوت : لم أكن أتصور أنه من الممكن أن يكون للإنسان حريات شخصية إلى هذه الدرجة !

ويقول أبو التاريخ هيرودوت : « جو مصر مختلف عن كل أجواء

الدنيا والنهر كبير واسع ملئ بالحياة والحركة .. والناس لهم عادات غريبة . إن المصريين يختلفون عن كل الشعوب الأخرى .. الرجال يذهبون إلى السوق ، والنساء يجلسن يغزلن فى البيت . الرجل يحمل الأشياء على رأسه ، أما المرأة فتحملها على كتفيها .. الرجال يذهبون إلى دورة المياه ويجلسون ، أما المرأة فتذهب لتقف .. المصريون يتناولون طعامهم خارج البيت ، ولكن يحرصون على النوم فى الداخل . لأن المصرى يرى أن كل ما هو خاص جدا ، يجب أن يتم فى سرية .. المرأة المصرية لا يمكن أن تكون راهبة أو كاهنة وهذا أفضل .. الرجال فقط . رجال الدين فى العالم كله يطلقون شعورهم والمصريون يحلقون تماما . الرجال يضعون الباروكة فى الجنازات ، بينما فى العالم كله لا يفعلون ذلك .. كل الشعوب الأخرى يضعون حيواناتهم فى الزرايب ، المصريون ينامون مع حيواناتهم .. المصرية عندما تعجن فإنها تعتمد على ركبتيها ولكن لا مانع عندها أن تمد يدها إلى الطين أو إلى روث البهائم ثم تعود إلى العجين مرة أخرى .. الرجال يلبسون الثوب من قطعتين ، والمرأة من قطعة واحدة .. المصريون يكتبون من اليمين إلى اليسار ، والشعوب كلها تكتب من اليسار إلى اليمين . المصريون عندهم نوعان من الكتابة : مقدسة وعادية .. المصريون يرون أن الطهارة ضرورة صحية ومقدسة أيضا » .

وهيرودوت شاب دقيق الملاحظة . وكان يسأل دائما لكى يعرف . وعندما لا يقتنع يقول : سمعت الكهنة يقولون ذلك .. أو قال لى واحد من الكهنة ..

وقد لاحظ هيرودوت فى مصر عددا كبيرا من رجال الدين .. ملابسهم نظيفة وفى صحة جيدة . . ويستحمون مرتين فى اليوم بالماء البارد حتى لا يكون فى ملابسهم قمل أو براغيث — فأمام الآلهة يجب أن يكون الكاهن نظيفا تماما .. والكهنة يعيشون مجانا : طعامهم وملابسهم . والذى يزور الكاهن فى معبده يزور رجلا غنيا أمامه الطعام من كل لون : دواجن وفاكهة

ولحوم ساخنة . وباردة – ولا بد أن هذا منظر لا يمكنْ آن ينساه رجل جاء من الشاطئ الآخر . وليس معه مليم واحد . وإنما يكتسب قوته من تدريس اللغة اليونانية . ومن كرم رجال الدين ... ولذلك كثيرا ما يتحدث هيرودوت عن الولائم والطعام الكثير الذى يتناوله المصريون أو الذى رآه على مآدب الأغنياء .. ومن الغريب أن الأغنياء لا يأكلون كل هذا الطعام . ولذلك يسأل هيرودوت نفسه هذا السؤال الخالد : لماذا يقدمون طعاما كثيرا يفيض عنهم ، وهم يعلمون ذلك ؟!

وقد لاحظ أن المصريين يحبون الحفلات والمهرجانات .. الغناء .. والرقص .. والخمر . ولكن من الملاحظات العبقرية لهيرودوت : أنه نظر إلى وجوه المصريين فوجد عليها مسحة من الحزن . ويقول : إذا نظرت إلى سيدة من بعيد ، وكانت تضحك أو تغنى .. فإنك لا تعرف – حقيقة – إن كانت تبكى أو تندب عزيزا عليها .

ولكن إذا اجتمع الناس فالرجل يمسك المزمار والمرأة تمسك الصاجات وينهض الرجال يرقصون .. والنساء يرقصن .. ولاحظ أن الرجل هو الذى يرفع ثوبه – على سبيل الإغراء – إذا رقص !

أما عيد المصابيح فالمصريون يضعون فى أيديهم آنية قد امتلأت بالزيت وفيها شموع تظل مشتعلة طول الليل .. وحول الشموع ترقص الفتيات والرجال يرقصون ويغنون ويتساقطون من الضحك والانسجام – وكلهم يشربون الخمر .

وقد أطلعه بعض رجال الدين على الطقـــوس السرية للآله أوزوريس بشرط أن يكتم السر .. وكتم السر . ولم يذكر شيئا واحدا مما رأى .

وأطلعه الكهنة المصريون على أسرار كثيرة لهذا الكون ولتحويل المعادن إلى ذهب .. وكان هيرودوت عند وعده . لم يقل شيئا[1] !

---

(١) راجع كتابى « الذين هبطوا من السماء » .

ولكنه ذكر أنه رأى نوعا من الأفاعي تطير .. ورأى الكهنة يطلقون طيورا مصنوعة من الحجارة ، فإذا هي تطير . ولم يستطع هيرودوت أن يعلق على ذلك .. ولكنه عندما عاد إلى أثينا راح يروى ما رأى لشباب أثينا أثناء الألعاب الأوليمبية .

واندهش هيرودوت عندما رأى تماسيح النيل .. وربما كان هيرودوت هو المسئول وحده عن نشر حكاية التماسيح فى نيل مصر .. فقد ظل الناس يعتقدون أن التماسيح تبكى طول الليل فى القاهرة .. مع أننا لا نراها إلا فى حديقة الحيوان .. ومن مئات السنين . وقد وصفها هيرودوت فقال : التمساح له عينا خنزير .. وأسنانه كثيرة .. وليس له لسان (؟!) وهو الحيوان الوحيد فى العالم الذى يحرك فكه العلوى؟! .. والتمساح لايرى فى الماء .. وإنما يرى على الشاطئ فقط .. وفى مدينة أسوان يأكل المصريون التمساح ولا يرونه مقدسا .

ولسبب غير معروف هاجم هيرودوت الملك خوفو .. أو على الأصح تأثر برأى الكهنة فى هذا الملك .. فهم يرون أنه ملك سافل منحط حقير — هذه كلمات هيرودوت أيضا . فهو الذى سخر الشعب فى بناء الهرم الأكبر . وأنفق ميزانية الدولة .. ويقول هيرودوت إن من عادة المصريين أن يطلبوا إلى البنت أن تساعد والدها ، أما الولد فليس مضطرا إلى ذلك .. ولهذا كان من الطبيعى أن يطلب الملك خوفو إلى ابنته الجميلة أن تساعده .. وتحيرت الفتاة ما الذى تصنعه . . فأشار أبوها إلى جمالها وهو يقول : أليس لهذا الجسم الجميل ثمن ؟

ثم تقدم الذين يريدون أن يدفعوا الثمن ..

وساعدت ابنة فرعون والدها ..

ويروى هيرودوت أن الهرم الأكبر معجزة فى البناء . ويرى أن نقل الأحجار هو المعجزة .. لذلك لابد أن يكون الهرم قد بنى أول الأمر على

شكل مصطبة ثم رفعوا إلى جوارها التراب .. ومن التراب المرتفع كانوا يرفعون الأحجار مستخدمين آلات رافعة من الخشب .. وقد بنى الهرم أكثر من مائة ألف عامل .. وكانوا يعملون ثلاثة شهور كل سنة ولمدة عشرين عاما .. أما الطريق الذى رصفه العمال ليدحرجوا عليه الأحجار فقد كان معجزة هندسية .

وعرف هيرودوت من الكهنة أن المهندس الذى بنى الهرم أراد أن يبين للأجيال القادمة كيف صنع العمال المصريون هذه المعجزة وأى نوع من الطعام كانوا يأكلون .. فسجل كميات البصل والفجل والثوم التى استهلكها العمال .. وبعملية حسابية بسيطة يمكن معرفة كم تكلف بناء الهرم الأكبر ..

ثم يعود هيرودوت يهاجم الملك خوفو ويروى عنه قصة لها نظير فى التوراة فيقول إن خوفو أصابه الفقر فى آخر أيامه .. ولم يجد غير ابنته . وأعطت ابنته جسمها لأغنياء مصر .. ودفعوا .. ورضى الأب .. ولكن لسبب غريب أيضا أصرت الابنة أن تبنى هرما صغيرا . وأن تكون أحجار هذا الهرم بعدد عشاقها .. وعدد لعناتها على أبيها ، أو لعنات الأجيال القادمة .. ويقول هيرودوت إنها أقامت هرما صغيرا ..

اندهش هيرودوت جدا عندما سمع هذه القصة . . ولما رأى الكهنة دهشته قالوا له : إذا لم تصدقنا فلنذهب معا إلى الهرم .

وضاق هيرودوت بما سمع . فاعتذر .. ولو ذهب لرأى تمثال أبو الهول.. ولكن هيرودوت لم ير هذا التمثال الجميل ولم يعرف أن له وجودا .

وفى اليوم التالى ذهب هيرودوت إلى حيث يوجد الهرم الثانى .. يقول : من المؤكد أنه أصغر من الهرم الأول..هذا مؤكد فقد قست قاعدة كل منهما .

أما الهرم الثالث فقد سمع هيرودوت من الكهنة أن له قصة أخرى .. فقد أقامته الغانية رادوبيس . كانت غنية .. وكانت تحرص على مالها .. وقد

ساعدت فى إقامة بعض المعابد فى بلاد اليونان . ولما سأل هيرودوت عن مدى ثرائها .. ثم عرف .. استبعد أن تكون هذه الغانية هى التى أقامت الهرم الثالث .. لأنه يتكلف أموالا لا يملكها فرد .. بل تملكها دولة ..

ولابد أن هيرودوت وجد أن قصة بناء الأهرامات من السهرات الحمراء مكررة وسخيفة .. وأن الكهنة يحقدون على ملوكهم لأنهم يعجزون عن إقامة أهرامات أكبر وأجمل .. أو أن الكهنة لم يعد لهم هذا الدور القوى فى الحكم .. ربما ..

وكأن هيرودوت يتحدث عن السفن الشراعية اليوم .. فهو يصف السفن الشراعية .. ويصف معاكسة الريح لها .. ونزول الناس إلى الشاطئ وسحب السفن الشراعية ضد الهواء إلى جنوب مصر وشمالها .

وكل ما رآه هيرودوت فى مصر قد هزه وأثاره وأسعده .. ولكن شيئا واحدا لم يتحمله : البعوض .. إنه كثير جدا فى شمال مصر وجنوبها .. والناس يضعون (الناموسية) على فراشهم .. والناموسية هى نفس الشبكة التى يستخدمونها فى الصيد .

ويقول هيرودوت وكان البعوض يتسلل إلى ما وراء الشبكة ويلسع ..

ولاحظ هيرودوت أن المصريين يسهرون فى الأماكن العالية .. وسبب ذلك أن البعوض لا يستطيع أن يرتفع إليهم . وحتى إذا كاد النوم يغلبهم عادوا إلى بيوتهم .. فلا يشعرون بلسع البعوض ..

ولابد أن المؤرخ هيرودوت قد عانى الكثير فى رحلته إلى مصر وبلاد الشرق الأوسط . ولكنه لم يذكر لنا شيئا عن نفسه . ما الذى كان يلبسه .. أين يأكل ويشرب وينام وماذا تناول : وكيف يكتسب قوته .. وما وسائل المواصلات بين مدن مصر ، وبين مصر والدول الأخرى .. هل ركب الحمار أو الحصان .. هل سار على قدميه ؟

هل مرض ؟ كيف عالجوه .. ثم كيف سجل هذا التاريخ فى النهاية .. وكيف كان يسجل ملاحظاته أولا بأول .. هل صحيح أنه تزوج سبعا من النساء أو أنه وعد واحدة بالزواج ثم هرب منها إلى مصر ؟

إذن فالمؤرخ هيرودوت هو نوع من المؤرخين الذين ينشغلون بالعالم عن أنفسهم . هناك نوع آخر تشغلهم أنفسهم عن العالم .. هذا ينبع من الواقع .. وذلك ينبع منه الواقع .

ولكن لا يزال المؤرخ الإغريقى هيرودوت صاحب أجمل وأمتع رحلة قديمة إلى مصر .. وأخطر رحلة أيضا .. فكثير من ملاحظاته التى نقلها بحسن نية ظلت عالقة بأقلام وأذهان الأوروبيين أكثر من ألفى سنة كما هى — تماسيح النيل على شواطئ القاهرة مثلا ..

خرج ولم يعد ...
أصغر وأعظم رجل !

عندما انتصر الإسكندر الأكبر في أكبر معاركه فى الهند اعتقل عشرة من الفلاسفة . وقال لهم : سوف أقتل صاحب الإجابة السيئة . إذن أمامكم أقسى امتحان ! .

واختار واحدا منهم قاضيا . وبدأ فى الامتحان . والسؤال الأول – للفيلسوف الأول : أيهم أكثر عددا : الأحياء أو الأموات ؟ وكان الجواب : الأحياء لأن الأموات لا وجود لهم .

السؤال الثانى : أيهما أكبر .. حيوانات البر أم حيوانات البحر ؟

ورد الفيلسوف : بل حيوانات البر .. لأن البحر جزء من البر ؟

السؤال الثالث : كيف تستطيع أن تقنع إنسانا بأن يثور ؟

الجواب : بأن أؤكد له أن الإنسان يجب أن يعيش كريما أو يموت كريما .

السؤال الرابع : ماهى أخبث الحيوانات ؟

والجواب : التى لم نكتشفها بعد ..

والسؤال الخامس : أيهما أسبق .. الليل أو النهار ؟

وكان رد الفيلسوف الخامس : النهار أسبق من الليل بيوم واحد !

ولما لاحظ أن الإسكندر لم يقتنع بهذا الجواب عاد يقول : لاتؤاخذنى إذا كان الجواب غريبا . فالسؤال غريب أيضا !

ثم كان السؤال السادس : ما الذى يفعله الإنسان ليكون محبوبا ؟

وكان الرد : بأن يكون قويا لا مخيفا ..

أما السؤال السابع فهو : كيف يكون الإنسان إلها ؟

والجواب : بأن يصنع المستحيل !

والسؤال الثامن : أيهما أقوى الحياة أو الموت ؟

وكان الرد : الحياة أقوى لأنها تحمل كل المصائب ومع ذلك تستمر وتحرص على الاستمرار .

أما السؤال التاسع فكان : إلى متى يحرص الإنسان على حياته ؟

وكان الرد : إلى أن يشعر بأن الموت أفضل من الحياة ..

ثم اتجه الإسكندر الأكبر إلى الفيلسوف العاشر وقال له : ما رأيك ؟ ونهض الفيلسوف مذعورا ليقول له : مولاى .. عفوا ليس قبل أن أعرف رأيك فى كل ما سمعت !

ولكن الإسكندر أطلق سراح الفلاسفة ومنحهم الكثير من الهدايا . ولم يكن ممكنا لفتى إغريقى — ابن الحضارة العظيمة وتلميذ الفيلسوف أرسطو — أن يقتل فيلسوفا لأنه قال شيئا لم يعجبه . أو لم يقنعه . بل إن الإسكندر قبل قيامه بغزواته فى آسيا . قد رأى رجلا متمددا فى الشمس . واقترب منه وسأله من أنت ؟ فقال : إنسان . وسأله : وماذا تريد ؟ فقال : ألا تحجب عنى الشمس .

وأعجبته هذه الإجابة وسأل عنه فقيل له إنه الفيلسوف ديوجين . وقال الإسكندر : لو لم أكن أنا الإسكندر العظيم لتمنيت أن أكون فى قوة هذا الرجل ..

ولم يكن فى ذلك الوقت قد تجاوز العشرين !

ويقال إن الإسكندر الأكبر قد سأل الفيلسوف العاشر : هل رأيت أعظم منى ؟ ويقال إن الفيلسوف العاشر قد فكر لحظة ثم قال : أنت أعظم إنسان فى بلادك .

ولم يسترح الإسكندر إلى هذا الجواب . ولكنه هز رأسه . وقال : يبدو أن الحق معك .. أنا أعظم إنسان هناك .. ولكن هنا .. الشمس أعظم . والجوع أبشع !

ولكن الإسكندر كان يعتقد أنه أعظم قائد فى كل العصور . فهو فى طفولته قد أقنعته أمه أنه ابن كبير الآلهة . وكان الإسكندر يحزن كلما انتصر أبوه فى معركة عسكرية ويقول : إذا انتصر أبى ، فما الذى يتركه لى بعد ذلك؟

إنه أصغر مسافر وأكبر قائد ..

وقد ولد الإسكندر الأكبر فى اليوم الذى احترق فيه معبد ديانا . وكسبت خيول والده فى الألعاب الأوليمبية .. وقال الكهنة : إن مولده حدث جليل .

ويقال إن أنفاسه كانت عطرية . وملابسه أيضا . ويقال إن رأسه ثقيل لدرجة أن عنقه لا يقوى على حمله ولذلك كان يميل به إلى ناحية اليسار . وكان إذا مشى أسرع . ولما سألوه : ولماذا لا تشترك فى الألعاب الأوليمبية وكان جوابه السريع : هاتوا لى عددا من الملوك !

وكان أبوه يقول : إن ولدى هذا تضيق عنه مملكتى ؟

وفى السادسة عشرة من عمره تركه أبوه ملكا على البلاد . وكان يتصرف كأنه ملك . وكانت قراراته غريبة عجيبة . وكان يجلس إلى جواره أعظم فلاسفة الإغريق : أرسطو ..

ولا أحد يدرى بالضبط ما الذى خطر على رأس هذا الشاب سنة ٣٣٤ ق.م . وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، على رأس جيش كبير . أعظم الجيوش الأوروبية فى ذلك الوقت .. ما الذى يريده من السفر بقواته إلى آسيا ..

هل يريد أن « يعرف » نهاية العالم .. مجرد معرفة .. هل ذهب لينتقم من الفرس الذين أحرقوا أثينا منذ قرن ونصف قرن .. هل ذهب ينشر الحضارة الإغريقية فى الإمبراطورية الفارسية فى آسيا وشمال أفريقيا .. هل هى مغامرات الشباب : خمر وذهب وعطور ونصر فى النهاية .

إنه رفض أن يحدثه إنسان فى شئ وقواته تعبر الدردنيل . . فى سفن .. وعلى ظهور الخيول .. ثلاثون ألف جندى وأربعة آلاف حصان .. وألوف يحملون الرماح التى طولها ١٨ قدما ومئات من المهندسين وعشرات من الفلاسفة وعشرات من السكرتارية وأربعة آلاف جندى من الحرس الخاص . ونساء وأطفال يمشون وراء هذه القوات أو وراء الشاب العظيم المغامر . ولم يخطر على بال هذا الشاب أنه ذهاب بلا عودة .. فلن يرى الإسكندر أرضه حيا بعد اليوم .

وعلى عادة الإغريق انطلقت سفينته به بعيدا عن الشاطئ .. ثم عادت لتقترب منه قليلا قليلا .. وليمد رمحه الطويل ويلمس الشاطئ .. رمزا على أنه سوف ينال بسهولة كل ما يريد .. وقد نال ما يريد ، ولكن بصعوبة وعندما نظر الإسكندر إلى الشاطئ وجد بعض الشبان يستحمون فقال وهو حزين : ما أتعسنى لقد نسيت أن أتعلم السباحة !

أما الإمبراطورية الفارسية فى ذلك الوقت . فقد كانت واسعة منهارة تضم أرض العراق وسوريا وليبيا وما بين النهرين وغربى الهند . وقد هاجمها الإسكندر فى وقت كانت تتداعى . وكان الإسكندر حريصا على أن يكون إغريقيا مائة فى المائة .. فى الطعام والشراب واللهو والصلوات . وكانت ترافقه معشوقته الجميلة تاييس وكان هو أيضا ليس ملكا طول الوقت .. إنه ملك على الرجال . ولكن مع محبوبته هو مواطن آخر .. وعندما لاحظت محبوبته تاييس أن فى خيمتها ثقبا تتسلل منه الشمس أشارت برجلها إليه .. وضحك الإسكندر ليقول : هذا الثقب أستطيع أن أسده .. أما قرص الشمس

فليس فى قدرتى بعد أن أحطمه . ويقال إن تاييس بكت . فوعدها بأن يطفئ الشمس .

وسافر الإسكندر إلى مصر وأقام فيها أكثر من سنة .. واستطاع بذكائه الخارق أن يختار المكان المناسب لإنشاء مدينة الأسكندرية ، وهى واحدة من تسع مدن تحمل اسمه . وجمع المهندسين والجغرافيين ، ولاحظوا أن الأرض سوداء . وأنهم لا يستطيعون أن يخططوا للمدينة فأتوا بكمية من الدقيق ينثرونها على الأرض .. وفجأة جاءت الغربان وأكلت الدقيق . وانزعج الإسكندر . ولكن علماء الفلك قالوا له : سوف تكون هذه المدينة جنة يعيش عليها الإنسان والحيوان والطيور .

وفى إحدى الليالى سمع الإسكندر صوتا يناديه فى أعماقه . ونهض وسأل حبيبته تاييس إن كانت هى التى نادته . ولكنه وجدها نائمة .. تتقلب ثم طلب المزيد من النبيذ والقبلات . وخرج الإسكندر من خيمته ليسأل إن كان أحد قد ناداه .. ثم عاد يسمع الصوت يطلب إليه أن يذهب إلى واحة سيوه .. وأن يزور معبد الإله آمون .. وسار الإسكندر مع بعض أتباعه على شاطئ البحر . ثم نزل إلى الجنوب على حدود ليبيا . وكان يخاف من الرياح الرملية ومن العطش . ولكن الإسكندر آمن بأنه ابن الآلهة . وأن هذا الصوت الذى ناداه لا يمكن أن يكون شيطانا . وترك الخيول وركب الجمال . وسار فى نفس الطريق الذى هلك فيه جيش قمبيز قبل ذلك .. ثلاثون ألفا من قوات الفرس دفنت فى الصحراء . ولكن الغربان كانت تقوده .. فإذا أخطأ فى الاتجاه راحت الغربان تنعق . فإذا ضل أحد من رجاله تصايحت الغربان حتى يعود إلى الطريق السليم .

وفى معبد آمون سمع الإسكندر من الكهنة أن الإله يريد أن يراه على حدة . ودخل الإسكندر واقترب وسأل الإله : إن كان الذين قتلوا قد لقوا ما يستحقون من عقاب ؟ ورد الإله : نعم . كلهم !

ولا أحد يعرف كيف كان شعور الإسكندر عندما نصبه كهنة آمون إلها ! إن صناعة الإله والتأليه هى إحدى حيل المصريين القدماء .. إنها السم المقدس الذى يعطونه للإنسان لـكى يتعالى على البشر . ويموت لا هو إنسان ولا هو إله ..

وشرب الإسكندر هذه الجرعة .

وكان من عادة الإسكندر أن يكتب الكثير من الرسائل فكتب إلى أمه يؤكد لها أن الفراعنة يقولون أيضا إنه إله ابن كبير الآلهة . ثم قال لها : وهناك أسرار أخرى سوف أحكيها لك عندما أعود .

ولم يعد ومات وسره معه ..

وعندما اتجه الإسكندر بعد ذلك إلى أطراف الإمبراطورية الفارسية بلغه أن أستاذه العظيم أرسطو قد نشر بعض محاضراته . فكتب إليه الإسكندر عاتبا يقول : « عتاب من الإسكندر إلى أرسطو . لم تحسن صنعا أن نشرت بعض محاضراتك فقد كان من الواجب عليك أن تجعلها سرا نباهى به الأمم . ولا أزال أفضل أن تكون لى قوة العلم لا قوة السلاح » .

وعندما علم الإسكندر أن أحد أصدقائه فى أثينا فشل فى إقناع فتاة بالزواج منه . بعث إليه بهذه الرسالة ..

« هناك طريقتان لإقناع الفتاة بأن تكون لك : أن تعطيها الكثير من الهدايا وأن تحبها .. ولا توجد طريقة ثالثة . لأن الناس قد ولدوا أحرارا .. »

وفى إحدى المعارك الكبرى مع الملك دارا تذكر أنه يجب أن يبعث رسالة إلى أحد أصدقائه فى موضوع مضحك . كتب يقول بعد نهاية المعركة : « أعرف أن حصانك ضاع . سيكون لك واحد أفضل منه . وهذا إقرار منى بذلك .. » .

وبعد أن فرغ من هذا الخطاب قال لأحد حراسه : أريد أن أذوق طعم الملك . فقال الحارس : أنت ملك دائما يامولاى .. ولكن الإسكندر قال :

« فقط عندما أستحم بالماء الدافئ .. وأضع العطر وأنظر فى عينى الفتاة التى أحبها وأنام فى أمان .. هذا هو الملك ! » .

وقبل أن يذهب الإسكندر إلى حمامه قال له أحد الضباط : مولاى ... الوقت مناسب للهجوم على الملك دارا .. ليلا ، وكان رد الإسكندر : أيها القائد العظيم إن الإسكندر لا يسرق النصر .. إننى سوف أهزمه نهارا . سوف أجعله يرى نفسه منهارا . ويرانى منتصرا .

وفى بلاد « العراق » أحس الجنود أن هذه هى نهاية العالم . وأنهم تعبوا . وأنهم يحملون الكثير من الهدايا . وأن خيولهم قد تعبت .. وأن بعض الخيول قد ماتت وأنهم يحملون هداياهم ويتساقطون تحتها . وطلبوا إليه أن يعودوا ولكن ليس الإسكندر هو الذى يعود .. وليس هو الرجل الذى يقترح عليه أحد فكرة أو خطة . فإن الإسكندر يحرق كل ما معه من هدايا .. ويفعل الضباط والجنود ذلك .

وكان من عادته أن يعطى الهدايا لكل من حوله .. بشرط أن يطلبوا منه ذلك . لأنه يحب أن تمتد إليه الأيدى . وأن يرى الامتنان فى عيون الجميع .. ولكن واحدا من أصدقائه لم يحصل على هدية . لأنه لم يطلب . وفى مرة كان يلعب مع الإسكندر الكرة .. فصرخ فيه الإسكندر : لماذا لا تعطينى الكرة ؟ وكان رده : ولكنك لم تطلبها منى !

وفهم الإسكندر المعنى الذى يريد . ثم قال له : إننى أريد أن أرى امتنانك أنت أيضا !

نحن الآن فى سنة ٣٢٠ ق.م .. وقد انتصر الإسكندر على الفرس فى معركة أسوس . وجاء المرزبان – أى حاكم المدينة – يعرض عليه عددا من الأميرات .. ولكن الإسكندر قال : الإنسان لا يستطيع أن يكون ملكا على هذا العدد من النساء .. فالنساء يردن الرجل لا الملك !

وأمضى الإسكندر ثلاث سنوات فى هذه الأرض يروح ويجئ .. ولا أحد يعرف بالضبط كيف كان يتحرك .. فلم تكن هناك خريطة معه . وإنما كان يمشى بالسماع . ويتجه تبعا لمعلومات العلماء المرافقين له . وقد أمر الإسكندر ضباطه بأن يرتدوا ملابس الفرس . وأن يعاملوا الناس بالرفق .. ولا ينسوا أنهم أبناء الحضارة الإغريقية .

ومرض الإسكندر .. وطلب الطبيب .. وشكا له .. وقال للطبيب لا أريد أحدا يعرف دائى أو دوائى . فإن كان العلاج ناجحا فانشره على كل الجنود .

وبعد يومين شفى الإسكندر . وجاء الطبيب يستأذن فى إذاعة الدواء ولكن الإسكندر قال : بل أنا الذى سوف أعلن ذلك .. وجمع الضباط وقال لهم : علاجى هو .. الفاكهة .. والنوم العميق .. والنصر !

وكان من عادة الإسكندر أن يملى على المؤرخين المرافقين له بعض ملاحظاته على الحياة والناس . فقال مثلا إنهم هنا فى حاجة إلى نسائنا .. وإلى أفكارنا وإلى حضارتنا ..

ولم يضيع الإسكندر وقته فقد أمر ببناء مدن تحمل اسمه .. بل إن حصانه عندما مات .. وكان الحصان فى الثلاثين من عمره . قد أقام مدينة تحمل اسمه .. وكذلك كلبه أقام له مدينة تحمل اسمه .

ولم يكن جنوده يعرفون أن هذا الشاب قد قرر أن يذهب إلى الهند نهاية الدنيا فى ذلك الوقت . وأن يرى المحيط الذى هو آخر العالم . هكذا قال له العلماء والفلاسفة – إنه يريد أن يلمس بعينيه نهاية العالم ..

وكل ما نعرفه عن رحلات الإسكندر الأكبر أنه اتجه إلى الشمال .. إلى ممر خيبر .. وأنه حاول طويلا أن يمر .. ولكن القبائل هاجمته .. وقتلت الكثير من جنوده .. ولكنه فوجئ بواد صغير .. وفى هذا الواد أناس شعرهم أصفر وعيونهم زرقاء ويعبدون إله الإغريق .. وأنهم تساقطوا راكعين ساجدين

عندما رأوه .. وهناك عشرات الزهرات الإغريقية على أشجار اللبلاب .. وصنعوا منها تيجانا لهم ولقائدهم .. ثم شربوا ورقصوا حتى تعبوا .. أياما طويلة.. وفجأة انهارت الحجارة من قمم الجبال على الإسكندروجنوده .. وأصر الإسكندر على أن يكون فى مقدمة الذين يتسلقون الجبل .

ثم اشتبك فى معركة دامية مع الملك بوروس . وكان بوروس يعتمد على جيش كبير . وكانت الفيلة تتقدم الجنود . وانتصر الإسكندر – ووقع الملك أسيرا .. واستدعاه الإسكندر قائلا : كيف تتوقع منى أن أعاملك ؟ فأجاب الرجل : كملك طبعا ..

وجعله نائبا له على المملكة الهندية . وتعب الجنود . ونفقت الخيول .. وأصروا على العودة . وصرخوا .. وتظاهروا . ودخل الإسكندر خيمته . وراح يبكى ويتمرغ على الأرض ويقول : ماذا ستقوله الأجيال القادمة عنا إننا انتصرنا معا . وكسبنا لأمتنا ما لم يكسبه أحد منا .

وفى يوليو ٣٢٦ ق.م ..قرر الإسكندر أن يعود من نفس الطريق الذى طوله ١٢ ألف ميل والذى قطعه فى ثمانى سنوات ..

وتوقف الإسكندر عند قبائل تعيش على الأسماك فقط .. أظافرها طويلة وشعورها أيضا .. وبيوتها مصنوعة من المحار وفى عيونهم بريق غريب .. ولكن وجوههم شاحبة وأصواتهم صارخة . ونساءهم جميلات وفى برودة السمك – هذا تعبيره ..

وأنشأ الإسكندر مدينة خامسة تحمل اسمه ..

وانزعج الإسكندر عندما عرف أن بعض فقراء الهنود يعرضون بناتهم للبيع .. أما الطريقة فهى التى أزعجته .. فالفتاة تخلع ملابسها تماما .. وتقف وقد أدارت ظهرها للزبون .. ويقلب الزبون فى جسمها .. ثم يطلب إليها أن تجلس ويقلب فى صدرها .. فإذا أعجبته اشتراها .. ولم تنس له معشوقته تاييس

ماقاله تعليقا على هذا الموقف الشائن .. قال الإسكندر : لو كان من يتزوج يفعل ذلك . لسقطت فى الامتحان أكثر النساء .. والرجال أيضا ..

أما طريق العودة فقد كان أقسى مما يتصور الإسكندر . فالطريق طويل . والجنود مرهقون . والخيول تكسرت . والهدايا ثقيلة . والشعوب تضربهم بالطوب والحجارة والسهام والنبال .. والشمس تكوى الجميع . والعطش يحرقهم ليلا ونهارا . والإسكندر يصر على أن تعسكر قواته بعيدا عن المجارى المائية حتى لا تتلوث المياه بأقدام الرجال والخيول .. والرسائل تروح وتجئ بينه وبين أثينا .. وما يزال الإسكندر يلعن أباه بين قواده لأنه طلق أمه وتزوج امرأة أخرى اسمها كليوبطرة .

وفى إحدى المعارك فى طريق العودة جرح الإسكندر . وانهال أحد الهنود عليه ضربا بالعصا . والتوت ذراع الإسكندر ورقبته . وخرج الجنود يبكون على قائدهم وبعد أيام ظهر لهم سليما .. ولكن جروحه كانت أعمق !

ولم ينس الإسكندر أنه سمع من فيلسوف هندى أنه أعظم الناس فى بلده .. وأنه قد تراجع أمام قواته .. وأنه فى طريق العودة .. وأنه لم ينتصر على آسيا وإنما أفزعها فقط . ولم ينس أحد أصدقائه عندما غضب منه ، أن صارحه بقوله : إن الإنسان عندما يكون فى عظمتك وفى قوتك ، يكون وبالا على نفسه وعلى غيره .. والجنود هم الذين يدفعون الثمن عادة !

وفى إحدى الليالى من أبريل ٣٢٣ ق.م . جاء أحد الفلاسفة المرافقين له .. وأتى بجلد حيوان سلخوه وألقى به أمام الإسكندر . ثم وقف بقدميه على جانب منه فارتفع الجانب الآخر . ثم عاد فوقف على الناحية الثانية . فارتفع الطرف الآخر .. ونظر الإسكندر وكان مريضا محموما لا يفيق من الخمر ولا من الحمى . وقال له الإسكندر :

– ماذا تريد أن تقول ؟

وهنا قفز الفيلسوف بقدميه فى منتصف الجلد . وبقى بعض الوقت فاعتدل الجلد وظلت أطرافه كلها مرتفعة عن الأرض بدرجة واحدة . وقال للإسكندر :

– إذا أنت بقيت فى أطراف مملكتك ثارت عليك .. ولذلك يجب أن تبقى فى منتصف مملكتك .. هنا .. فى بابل !

وكأنما كانت نبوءة .. فقد مات الإسكندر فى بابل يوم ٢٢ أبريل .. فى الثانية والثلاثين من عمره !

نزيل فندق

أبي الثناء

زقاق القناديل

التفوا حوله ، واستحلفوه أن يكتب قصته ، ويحكى حكايته . وانحنى الرجل وقال : أفعل ذلك إن شاء الله . وسجل رحلته الطويلة فى كتاب عنوانه « رسالة اعتبار الناسك ، فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك » .

فقد كان الغرض من رحلته أن يؤدى فريضة الحج فى الأراضى المقدسة واستغرقت رحلته الأولى ثلاث سنوات .

بدأها فى فبراير سنة ١١٨٢ وهو فى السابعة والثلاثين من عمره .

أما هذا الرجل المغربى فاسمه بالكامل : أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانى الأندلسى الشاطبى البلنسى ، طويل القامة أجش الصوت أزرق العينين ذهبى الشعر ، قال عنه أحد أصدقائه : لو كانت لى عيناه ما أطبقتهما قط .. فهما من آيات الله ! ..

ولكن ابن جبير كان يطبق عينيه كثيرا حتى لا يرى ما يؤذى إيمانه . حتى إنه عندما رأى زفافا فى الشام ضبط نفسه معجبا بمشية العروس فاستعاذ بالله من الفتنة ، وأغمض عينيه ولم يكمل وصف الزفاف ! .

وعندما كان فى مكة سمع عن أميرة من الأميرات أنها تخرج ليلا ، وقال الناس لابد أنها قد غضبت مع زوجها وراحت تبحث عن غيره ، وقال آخرون بل ذهبت تتصدق على الفقراء واستعاذ ابن جبير من سوء الظن ، ولم يكمل سماع قصة الأميرة من أحد !

أما الذى ملأ عينيه فى الدنيا كلها فالمساجد والمقابر والأضرحة .. وجمال الطبيعة وهولها أيضا !

ولو سئل ابن جبير عن العذاب فى الدنيا ما معناه لقال : إنه البحر وركوب البحر وموج البحر .. والسفن الشراعية !

ففى رحلته الكثير عن وصف الموج والعواصف وسقوط أشرعة المراكب والخوف من الضياع فى الليل والنهار وقد استغرقت الرحلة من الشاطئ الأسبانى إلى الاسكندرية ثلاثين يوما وقد توقفت السفينة الشراعية عند جزيرة صقلية وكان ابن جبير فى رحلته يدعو للمدن التى يراها أو يدعو «عليها» .. فيقول : أعادها الله أو أبادها الله .. أو أبادها الله وأعادها ، وهو كثير الدعاء لكل الناس بأن يغفر لهم الله أو يعفو عنهم أو يهديهم سواء السبيل .

وكانت الرحلة مؤلمة مفزعة حتى مياه الاسكندرية ..

ولو سئل ابن جبير بعد خروجه من ميناء الاسكندرية إن كان العذاب معناه ركوب البحر ، لقال بل العذاب هو الجمارك !

ففى ميناء الاسكندرية — فى ذلك الوقت أيضا — جاء رجال الميناء وفتشوا الركاب ، ومدوا أيديهم إلى ملابسهم ، وإلى ما معهم من متاع .. ثم أتوا بالمصحف ، واستحلفوهم إن كان لديهم شئ آخر ويقول ابن جبير « وضاعت أشياء كثيرة ، ثم أطلق سراحهم بعد موقف من الذل والخزى العظيم » ..

ويرى ابن جبير أن صلاح الدين الأيوبى ذلك الحاكم العادل لا يعرف ماذا يجرى فى ميناء الاسكندرية . ولو عرف لقضى على هذا الهوان !

وكانت الاسكندرية رائعة فى عينه .. بيوتها فوق الأرض وتحت الأرض والمياه تصل إلى كل الآبار ، ومن أهم معالم الاسكندرية المدارس والمحارس — أى بيوت المغتربين ، وفيها الكثير من المستشفيات ، وفيها ألوف المساجد ويقول «من الغريب أيضا فى أحوال هذا البلد تصرف الناس فيه بالليل كتصرفهم

بالنهار فى جميع أحوالهم ، .. أى ينامون نهارا كما ينامون ليلا ويعملون ليلا ونهارا .. »

وفى الطريق إلى القاهرة توقف لصلاة الجمعة فى مسجد بمدينة طندته — طنطا — وكان الخطيب فصيحا ، وأروع ما أعجبه فى الطريق مدينة قليوب فأسواقها جميلة وبها مسجد كبير ..

أما القاهرة فقد أذهلته لكثرة مبانيها ومساجدها وشوارعها ونيلها الواسع ، وهداه المغاربة إلى فندق جميل أقام فى غرفة فوق الباب والفندق اسمه « أبى الثناء » فى زقاق القناديل ..

ولم يفته طبعا أن يزور مسجد الحسين حيث وضع رأس الحسين بن على بن أبى طالب فى تابوت من الفضة مدفون تحت الأرض .

أما عجائب الدنيا كلها فقد وضعها المصريون فى « القرافة » أو الجبانة « ففيها قبور الأنبياء وأهل السنة والصحابة والتابعين والعلماء والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة .. فيها قبور النبى صالح وروبيل بن يعقوب وآسيا امرأة فرعون » .

وقد أعجب ابن جبير بمستشفى المجانين ، ففيه غرف نظيفة وأسرة وفيرة ، وفيه خدام يسهرون على هؤلاء المرضى ..

ورأى أهرامات الجيزة ، ويقول « للناس فى أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبورا لعاد وبنيه ومنهم من يزعم غير ذلك .. وبالجملة فلا يعلم شأنها إلا الله عز وجل » .

وعلى مسافة « غلوة » — أى قصيرة — من الأهرام يوجد « أبو الأهوال — أى أبو الهول ..

ولا نهاية لما قاله ابن جبير عن مساجد القاهرة وقلاعها .. ولكن من

الأشياء العجيبة التى رآها ابن جبير سور « العجوزة » . أو الغجوزة ... وقد سمع فى مصر أن العجوزة هذه قد حكمت مصر وأنها جعلت حولها سورا يمتد من القاهرة إلى أسوان .. ولم يبق من هذا السور إلا جزء ضئيل ، والباقى تحول إلى رمال الصحراء ! !

وحكاية « العجوزة » هذه أنه عندما غرق فرعون فى البحر الأحمر هو وجيوشه .. لم يبق فى مصر فى ذلك الوقت غير الخدم والعبيد والنساء والأطفال ، وخاف الجميع على مصر ، ورفضوا أن يولوا عليهم خادما أو عبدا أو طفلا يحميهم ، وإنما اختاروا سيدة اسمها « دلوكة » .. هذه السيدة كانت عجوزا قد جاوزت المائة عام ، حكمت مصر ، وأقامت حولها هذا السور الذى أحاط بها من كل جهاتها .. أما مصر فقد حماها الله !

وركب زورقا فى النيل فى طريقه إلى قنا ومنها إلى ساحل البحر الأحمر إلى الحجاز ، ولكن أشنع ما رأى فى النيل : هجوم بعض رجال الأمن على المسافرين ، فتشوهم ، أدخلوا السكاكين فى أمتعتهم ، فتساقط الأرز والقمح وقد انزعج ابن جبير لما حدث .. ورأى فى ذلك شيئا شنيعا وقال : كيف يفعلون ذلك والله قد نهى عن التجسس . !

ويؤكد ابن جبير أن الملك صلاح الدين يستحيل أن يعرف هذا الذى يجرى فى بلاده .. لأنه رجل عادل .

أما مدينة قنا فقد أعجبت ابن جبير وهذا الإعجاب هو مقياس للقيم الأخلاقية والدينية عنده . يقول : « مدينة قنا من مدن الصعيد .. بيضاء أنيقة المنظر ذات مبان جميلة ، ومن مآثرها المأثورة صون نساء أهلها والتزامهن البيوت ، فلا يظهرن فى زقاق من أزقتها وكذلك نساء مدينة دشنة » .

وبعد ابن جبير بمئات السنين جاء الكاتب الفرنسى جوستاف فلوبير وأقام فى مدينة قنا وأعجب بها وبلياليها الساحرة حيث الغناء والطرب والحظ ..

وعبر البحر إلى الأراضى المقدسة . ولو سئل ابن جبير إن كان العذاب معناه رجال الجمارك لقال : بل الحج هو العذاب نفسه ! ..

فقد رأى من الهوان والأهوال ما لا يستطيع أن يصفه ، فالجو حار .. والصحراء مؤلمة وموجعة .. وهى الضياع لكل أجنبى .. وفى الطريق إلى مكة يتعرض الحجاج للصوص يخطفون ويسرقون ويقتلون . . وسمع من الناس أن خير الطرق إلى الأراضى المقدسة أن يدخلها الناس من ناحية بغداد فى حمى أمرائها .

يقول عن الأراضى المقدسة : حسبك من بلد كل شئ فيه مجلوب حتى الماء والعطش أشهى إلى النفس من الماء . فأقمنا بين هواء يذيب الأجسام وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام ، والشاعر يقول : ماء زعاف وجو كله لهب ..

ولم يعجبه الناس ، لا حياتهم ولا أسلوبهم ، ولا معاملتهم للذين جاءوا من أقصى الأرض .. وقال ابن جبير ليريح نفسه : « لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة صحيحة ، وما سوى ذلك مما بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع ، وفرق ضالة وشيع .. إلا من عصم الله ! » .

ولكن هذا العذاب يهون أمام مكة والمدينة .. فمن أجل مكة والمدينة ركب البحر والنيل والصحراء وجف ريقه وإشتعل صدره ونام على الأرض وأكل ما لا يحب .. وفى طريقه إلى مكة يقول : « دخلت مكة .. والبدر قد ألقى على البسيطة شعاعه ، والليل قد كشف عنا قناعه ، والأصوات تصك الآذان بالتلبية فى كل مكان » .

وفى مكة ذاب ابن جبير فى الأماكن المقدســـة ، صلى وبكى ، وصلى وحمد الله ودعا للمسلمين بالنصر ، ودعا لصلاح الدين وكل الأمراء بتقوى الله ورأى كل شعوب الأرض حول الكعبة وحول زمزم ..

ولم يسعد بطعام أكله مثل سعادته بالبطيخ ، فلم يكن قد ذاقه من قبل فهو مبهور بطعمه ورائحته ، بل إن الإنسان ليأكل البطيخ ورائحته الجميلة تسبقه .. أما البلح الرطب فهو « فى غاية الطيب واللذاذة » ..

ورغم انشغال ابن جبير بالأماكن المقدسة وبالنظر إلى الناس والاستماع إلى كل ما يقال حوله ، فإنه انفجر ضاحكا مرة واحدة فى كل هذه الرحلة .. وذلك عندما جاء الوفد اليمنى لأداء العمرة .. فهم يأتون إلى هذه البلاد يبيعون ما معهم من طعام ويشترون به الملابس ، لأنهم يجيئون عراة ، وصفهم ابن جبير فيقول : « عرب صرحاء فصحاء حفاة أصحاء ، لم تسدهم الرقة الحضرية ، ولا هذبتهم السير المدنية ، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية ، فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية » ..

وهم يشدون أنفسهم بسلسلة واحدة حول الكعبة ، فإذا تعثر واحد منهم سقط الباقون فوقه ، وإذا التفوا حول الكعبة واستلموا الحجر الأسود فلن يستطيع إنسان أن يقترب لا من الكعبة ولا من الحجر ، وهم لا يحسنون الصلاة .. بل إنهم يسجدون دون ركوع .. وإذا سجدوا فهم ينقرون الأرض . ثم يرفعون رؤوسهم . ويتكلمون أثناء الصلاة ، ثم يعاودون السلام .. ولكنهم يبكون فتتمزق القلوب لما يقولون ، ويقال إن النبى عليه الصلاة والسلام قال : علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء .. وقال أيضا : الإيمان يمان — أى الإيمان فى اليمن !

وقد سقطوا حول الكعبة ، فضحك ابن جبير لأول مرة ! .

ولم يسترح ابن جبير لإقامته فى بغداد . فقد رأى المدينة خرابا . لم يبق فيها غير هذا الاسم ، أما الناس فكرههم جميعا ، وحكم عليهم بعنف . فيقول : « أما أهل بغداد فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع بالتواضع رياء ، وتذهب بنفسه عجبا وكبرياء ، يحتقرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء .. ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء ، وقد تصور

كل منهم فى معتقده وخلده ، أن الوجود كله يصغر بالإضافة لبلده ، فهم لا يحبون فى الدنيا أرضا غير أرضهم ، كأنهم لا يعتقدون أن لله بلادا أو عبادا سواهم .. » .

وعندما سافر إلى الشام ، أعجبته مدينة حمص ، وسأل واحدا من أهلها هل عندكم مارستان — أى مستشفى ؟ وكان رد الرجل : إن حمص كلها مارستان ! .

ولم يفهم النكتة ولذلك لم يضحك !

أما حفلة الزفاف التى رآها فقد أعجبته لأنها مختلفة عن زفاف المسلمين فأهل العروسين يقفون صفين ، وتجئ العروس وقد لبست فستان الزفاف الشفاف ، ومن ورائها فتيات جميلات وعلى رأس العروس تاج من الذهب ..— والعروس تمشى تتبختر — والعياذ بالله — ولم يكمل ابن جبير الفرجة على حفلة الزفاف ، فالذى رآه هزه وحركه .. إنه الشيطان فى ثوب الزفاف ، ولم تعجبه « الآلات اللهوية » — أى الموسيقى ! .

ويعود ابن جبير إلى البحر الهائج المائج .. وإلى السفينة الشراعية التى انكسرت أكثر من مرة ، وصرخ الناس واستعاذوا بالله ، ومضت السفينة لا أحد يدرى أين ترسو..قالوا فى مصر ..وقالوا فى إيطاليا.. وقالوا بل قد ضاعت تماما .. ولكن السفينة بعد أيام طويلة أليمة رست فى ميناء على ساحل صقلية .. وهناك رأى جبل النار — أى البركان المعروف الآن باسم استرومبولى ، وهو يقذف الحمم فى البحر .. وفى هذه الجزيرة يعيش عدد كبير من المسلمين وهناك ملك اسمه غليام — أو غليوم الطيب ، وهو يعتمد على المسلمين فى كل شئ .. فى حراسته وفى مطبخه ..

واتجهت السفينة إلى الأندلس .. وعاد ابن جبير إلى الرحلات مرتين بعد ذلك .. وفى المرة الثالثة توفى سنة ١٢١٧ فى مدينة الاسكندرية .

ولو سئل ابن جبير الآن ألا يزال العذاب عندك معناه الحج ، لقال : أن يموت الإنسان فى الاسكندرية !

فلم يمش فى جنازته إلا رجل واحد جاء يستعجله أن يدفع ما عليه .. لقد كان أحد رجال الجمارك ! ..

خيط الحرير ...
الذى
طوله عشرون سنة !

لم تكن الفتاة الصغيرة تعنى أى شئ عندما أشارت إلى البحر وهى تتحدث إليه . . فلا هى طلبت إليه أن ينتحر ولا أن يركب السفينة إلى أى مكان فى العالم . . ولا قصدت الفتاة أن يبحث له عن مكان آخر بعيد عن قلبها كأن يذهب إلى الصين مثلا . . ثم إنه إذا لم يعجبها فهناك عشرات الفتيات يعجبن به . . لا هى فكرت فى هذا كله ، ولا هو ولكن غضب الفتاة عند الرجل الإيطالى معناه غضب الدنيا . . فالشاعر دانتى كره الحياة والآخرة لأن محبوبته بياتريتشه قد هجرته . . والشاعر الإيطالى بترارك قد أبكى الدنيا لأن حبيبته لورا لم تأت فى موعدها . . وكذلك الفنان العظيم بوكاتشيو . . ولو كانت ليلى تزوجت المجنون لاستراح الاثنان . . وما كان هذا الشعر الجميل . . ولا كانت ملحمة دانتى ولا روائع بترارك . . ولا سافر هذا الفتى الإيطالى « ماركو بولو » من مدينة البندقية إلى آخر الدنيا . . وكان آخر الدنيا فى ذلك الوقت هو بلاد الصين . .

فلم يكد ماركو بولو يسمع القصص التى رواها أبوه وعمه اللذان جاءا من الهند والصين وكان فى الخامسة عشرة من عمره حتى قرر أن يسافر معهما . وربما كان ماركو بولو هو أول شاب فى التاريخ قرر أن يتزوج من أية فتاة أخرى ، ويأخذها معه إلى أقاصى الأرض . . ولكن الأب ضحك وهو يقول له : صحيح أن الطريق اسمه خيط الحرير . . ولكن هذا الخيط من نار . . محرق . . قاتل . . كأنه أفعى ناعم ولكنه مهلك . . تعال وحدك . . فلا مكان للنساء إذا أردت الشهرة والمال !

وبدأت الرحلة الطويلة فى سنة ١٢٧١ من مدينة البندقية إلى عكا وكان الأب يؤكد لابنه : سوف تنسى . . سوف تنساها . . ففى الدنيا ما هو أجمل وأفضل . . وسوف ترى العجائب . . سوف تنسى !

ومن مدينة عكا اتجهوا مرة أخرى إلى تركيا . . إلى أرمينيا . . إلى بلاد الفرس . . إلى بخارى وسمرقند . . ثم إلى الهند وبلاد المغول والصين — هذه الكلمات استغرقت سطرين . . ولكن آل بولو قطعوها فى عشرين عاماً ذهاباً وإياباً . .

وفى الليل ، كل ليلة كان ماركو بولو يطلب إلى والده وعمه أن يرويا له شيئاً مما رأى الاثنان ومما سيرى هو . . وقد سمع منهما عن القوافل التى تذهب بالعطور والذهب والحرير وتجارة الرقيق . . واللصوص يقطعون الطريق والرقاب أيضاً . . والثلاثة معاً هم أول أبناء أوروبا الذين سافروا إلى هذه الأماكن النائية من العالم القديم . . ولكن ماركو بولولا ينسى أبداً هذه الفتاة كارلينا التى رفضته وهى تعلم أنه وحيد . . فأبوه فى الصين وأمه ماتت قبل عودته بأيام . . ولكن الفتاة الإيطالية رفضت أن تتزوج شاباً هجم عليها فى الطريق وعانقها بالقوة . . إهانة لم تغفرها له ! (وهذا ما فعله مواطن آخر بعد ذلك بستة قرون : موسولينى !) .

وكان الفتى ماركو بولو شديد الملاحظة . ولكنه لم يكن مثقفاً . فلا تقرأ له كلاما عن الأدب أو الفن أو الفلسفة فى هذه البلاد . . ولكنه يسجل فقط ما رأى . . ويقول إن هذا رآه بنفسه ، أو سمع عنه . . فمثلا عندما ذهب إلى أرمينيا مر بالقرب من جبل أرارات الذى استقرت عليه سفينة نوح . . قال إن أناساً رأوا السفينة عند قمة هذا الجبل . . وأنها ما تزال هناك — (والذى رواه ماركو بولو قد قاله قبل ذلك المؤرخ اليهودى يوسيفوس . . وظل الناس يعتقدون فى ذلك حتى هذا القرن . . ولكن حدث فى سنة ١٨٢٩ أن ذهب البروفيسور باروت وتسلق أرارت وارتفاعه ١٦ ألف قدم ولم يجد هذه

السفينة . . ولكن عاد العلماء يشككون فى أنه وصل إلى القمة . . وحاول آخرون . . واستخدمت طائرة هليكوبتر فى رؤية القمة عن قرب . . ولكن السحب الكثيفة والجليد والعواصف منعت الطائرة من رؤية شيء بوضوح . . والكثيرون يؤمنون بأن سفينة نوح أو جزءاً منها ما يزال هناك !)

وماركو بولو هو أول أوروبى مر بمدينة باكو ورأى آبار البترول . . ووصفها وصفاً مضحكاً لأنه ساذج ، فهو يقول : الزيت لونه أسود بنى ويشتعل دائماً . . وهو لا يستخدم فى الطعام . . وإنما يستخدمه الناس فى دهان الجمال والحمير . . ويقولون إنه مفيد للبشرة . .

ومن القصص التى سمعها ماركو بولو ، وهو فى طريقه إلى الصين ، أن القائد المغولى هولاكو قد جاء إلى مدينة بغداد وأهلكها وأهلها . . وأن الخليفة المستنصر قد حاول – يائساً – أن يقف فى وجه هولاكو . . ولكنه لم يكن يعرف معنى أن يكون الإنسان قائداً مغولياً . . ويقال إن حوارا دار بين هولاكو والخليفة . . قال هولاكو : هذا الذهب الذى جمعته لماذا لم تعلم به شعبك كيف يقاوم الغزاة ؟ . . ولم يرد الخليفة . . ويقال إن هولاكو أدخله فى خزائنه الذهبية وتركه حتى يموت . . ويقال إن هولاكو أذاب الذهب وأمره أن يشربه فمات . . ويقال إنه وضعه فى سجادة ولفها حوله . . ثم ربطها . . ودحرجه حتى الموت !

***

وكانت وجهة الثلاثة هى الصين . . حيث الخاقان – ملك الملوك فقد أكرم الأب والعم . . وطلب إليهما أن يعودا . . وكان هذا الخاقان – أوكو بلاى خان – محباً للأوروبيين . . وكان مثقفاً . . وكان من أمنياته أن يستعين برجال الدين المسيحيين ليقاوم رجال الدين البوذيين . . كان يريد أن يستخدم سحرا آخر . . ولذلك طلب من آل بولو أن يأتوا له بالمبشرين من المسيحيين . . وحملهم أمانة الاتصال بالبابا . . ولكن البابا مات . . ومعهم رسائل تؤكد أنه مات وأن البابا الجديد لم يتم اختياره بعد .

وفى طريقهم قاطعهم اللصوص . . وقتلوا بعضهم . . وسرقوا ما معهم وأسروا بعض الخدم . . وباعوهم . . ولم يبق من قافلة آل بولو سوى سبعة أشخاص .

ومن الغريب أن ماركو بولو كان يعتقد أن هؤلاء اللصوص يستخدمون السجن فى إثارة الغبار والضباب . . فقد لاحظ أن هؤلاء اللصوص خلقوا ضباباً لا وجود له . . هذا الضباب أخفاهم . . وهربوا . . وكانت لدى اللصوص القدرة على تبديد الضباب أيضاً . . بالأمر يروح وبالأمر يجىء . . وشئ من هذا قاله المؤرخون بعد ذلك فى سنة ١٧٦٢ عندما قامت حرب أهلية بالقرب من مدينة بخارى (أزبكستان السوفيتية الآن) . . فقد استخدمت القوات التى هاجمت المدينة السحر الأسود فى خلق ضباب جاف ؟!

وفى الطريق كان ماركو بولو يسمع قصصا عن هولاكو وجنكيز خان وتيمور لنك والإسكندر الأكبر .. إن هؤلاء الأربعة قد ملأوا الطريق دما ودمارا — فخيط الحرير ، ليس خيطا ولا حريرا .. إنه خيط الموت والأشباح !

وسمع ماركو بولو عن قصة الشجرة المقدسة التى وقف تحتها الإسكندر الأكبر ويقال إن هذه الشجرة لها قدرة عجيبة على قراءة ما يدور فى رأس من يقف تحتها ويقال إن الإسكندر سأل الشجرة بصوت مرتفع : قولى لى يا شجرة هل سأكون ملك الملوك وأعود سالما إلى وطنى ؟ وأجابت الشجرة : نعم .. و .. لا .. ستكون ملك الملوك .. ولن تعود إلى وطنك !

ومات الإسكندر قبل أن يصل إلى وطنه !

وسألها ماركو بولو : هل سأكسب المال وأتزوج كارلينا . وقالت الشجرة نعم .. و.. لا .. ستكسب المال ولكن لن تتزوج هذه الفتاة !

ورأى ماركو بولو الجنة التى صنعتها جماعة من الإسماعيلية فى جنوب بحر قزوين .. جنة ،، أشجار وأنهار .. وطيور مغردة .. والناس يرتدون الملابس البيضاء .. ويتعاطون الحشيش . وسمع ماركو بولو أن لهذه الجماعة رجلا اسمه

« شيخ الجبل » . هذا الرجل يطعمهم ويسقيهم ويمتعهم ثم يأمرهم بأن يقتلوا أى إنسان .. فيقتلونه .. اسمهم الحشاشون .. (وقد قتلوا بعد ذلك شاه إيران والوزير الأكبر فى مصر واثنين من الخلفاء فى بغداد وقتلوا كونراد ملك القدس . وعندما ذهب كونت شامبانيا أيام الحروب الصليبية قابل شيخ الجبل . وأطلعه الشيخ على الجنة . ثم أشار إلى شابين يرتديان الملابس البيضاء قد جلسا على حافة إحدى القلاع . فارتمى الشابان على الأرض . وماتا فورا — إنها الطاعة العمياء ! ومن عادة شيخ الجبل أن يأتى بأتباعه ويعطيهم الحشيش وينقلهم إلى هذه الجنة يأكلون ويشربون ويغنون مع النساء ويرقصون : وفجأة يلقى بهم خارج الأسوار . فإذا أفاقوا وجدوا أنفسهم على أرض الحقيقة المؤلمة . وهنا يقول لهم شيخ الجبل : إذا أردتم دخول الجنة فاقتلوا فلانا . ويقتلون فلانا ويعود بهم إلى الجنة !

أما الطريق الذى سار فيه آل بولو فطوله ثلاثه آلاف كيلو متر . وهم يقطعون منه عشرة كيلو مترات فى اليوم الواحد ولذلك استغرقوا سنة فى الذهاب واستخدموا الثيران فى نقل متاعهم والخيول فى نقلهم ، والبغال فى نقل أتباعهم وخدمهم !

وكان عليهم أن يمروا بصحراء جوبى . صحراء جافة عارية تماما ملتهبة . وكان ماركو بولو يعتقد أن هذه الصحراء مليئة بالعفاريت . يكفى أن واحدا من أية قافلة يتخلف عنهم ليضيع إلى الأبد . وهو يضيع لأن أشباحا تظهر له . وهذه الأشباح تحدثه وتستدرجه إلى طريق آخر . ومن الغريب أنه رأى جيوشا وطبولا ومعارك لا وجود لها .. ثم أنه استمع إلى موسيقى غريبة قادمة من أماكن متفرقة فى هذا الطريق . ولكنه خاف أن يروى ما يفزعه لوالده وعمه . وقبل ماركو بولو وصف لنا الرحالة الصينى « فاد ين » صحراء جوبى هذه بأنها مليئة بالعفاريت .

ولابد أن الخوف هو الذى صور له هذه الأيام الثقيلة . فالجو حار جدا .

والطيور الجارحة فى كل مكان . وفى الطاريق بقايا أجساد إنسانية . ولابد أنه السراب أيضا . الذى ساعد على هذه المخاوف الصوتية والضوئية معا ! — ثم لا ننسى أنه أوروبى وحيد وأنهم فى العصور الوسطى .. وأنهم بقعة بيضاء تتحرك فى محيط من الناس الصفر !

وأخيرا وصلوا جميعا إلى بكين ..

وقدم الأب بولو ابنه ماركو بولو إلى الخاقان . وعلم الابن أن يسجد وأن يقبل الأرض بين يدى الخاقان . وفعل . ولكن الإنجليز بعد ذلك بمئات السنين ضاقوا بهذه العادة فاخترعوا المخدة التى يضعها كل إنسان تحت جبهته عندما يسجد لملك الملوك .. ثم اخترعوا أن يركع الإنسان ويحنى رأسه على صدره .. ثم الرجوع فقط .. ثم الانحناء وهم واقفون !

وفرح الخاقان بالابن . وأعجب به واندهش كيف أنه استطاع أن يتكلم اللغة المغولية بهذه السرعة . وقرر الخاقان أن يلتحق الابن بالعمل فى البلاط الملكى . وتردد الابن لحظة . لكنه أبدى سعادته . وأما سبب تردده فقد قاله لوالده عند العودة إلى البندقية . فقد سمع الابن من أحد العرافين فى الهند أنه سوف يدخل السجن . ولذلك كان شديد الخوف من أية مسئولية !

ولم ينس ماركو بولو أن يتحدث عن المغول . انه معجب بشجاعتهم وخفتهم . ولكنه لا يحب إسرافهم فى الزينة . وتعليق ما لديهم من الذهب على ملابسهم . وهم فى نفس الوقت لا يستحمون مدى الحياة . فهم يعتقدون أن الإنسان عندما ينزل النهر ، فإنه يغضب أرواح النهر . ولذلك لا يستحمون أما إذا طالت رحلاتهم على ظهور الخيل ، فإن الواحد منهم يأتى بسيفه ويضرب شريانا فى جسم الحصان ثم يشرب دمه .. وهذا يرويه !

الأوربيون بعد ذلك معذورون عندما لم يصدقوا كل ما رواه ماركو بولو . فهو يحدثهم عن أشياء عجيبة . ولذلك أطلقوا عليه اسم : ماركو المليونير — أى ماركو صاحب المليون حكاية !

فقد حدثهم عن استخدام العفاريت فى تحريك أدوات الطعام . لأنه رأى بعينه كيف أن الأطباق والأكواب تطير دون أن يمسها أحد . ورأى قطع الشطرنج تتحرك ويطرد بعضها البعض دون أن يقترب أحد منها .. ورأى الأطباق الفارغة تمتلىء ثم تقترب من يدى الخاقان .. (حدث فى أيام شارل التاسع فى فرنسا أن جاء الساحر سيزار ماليتسو وحرك الأطباق الموجودة على المائدة دون أن يمسها وبعد ماركو بولو بسبعين عاما روى لنا ابن بطوطة فى رحلته كيف أنه رأى رجلا مرفوعا فى الهواء .. وكيف أنه رأى حبلا مرفوعا فى الهواء . . وكيف أن طفلا تسلق هذا الحبل هاربا من أبيه . وكيف أن الأب طارده ومعه السكين . واختفى الاثنان . وتساقطت ذراعا الطفل وساقاه .. وأخيرا رأسه وهو ينزف دما . ثم نزل الأب وجمع هذه الأطراف وغطاها ونهض الطفل !)

وصفحات كثيرة يروى فيها ماركو بولو إعجابه الشديد بالخاقان . أو على الأصح يبادله الإعجاب . وهو لم يرفى كل ما فعله الخاقان عيبا . فمثلا عندما ينتقل الخاقان من قصره الصيفى إلى قصره الشتوى ، يرشون الطريق كله بلبن الحمير إرضاء لأرواح الأرض . وينتقل الخاقان فى غرفة من الخشب تجرها أربعة فيلة والغرفة مطعمة بالذهب . وكانت للخاقان أربع زوجات ، ومئات من الخدم .

ويروى لنا فى الفصل الخامس عشر من كتابه الذى أصدره فى جزءين : كيف أنه أصبح موظفا فى القصر الإمبراطورى . وكيف أنه أصبح قادرا على التحدث باللغات الفارسية والمغولية والعربية . ثم كيف عينه ملك الملوك قنصلا سنة ١٢٧٧ .

ومن الحكايات التى أفزعت ماركو بولو قصة الوزير الذى اسمه أحمد هذا الوزير قد رشحته إحدى زوجات الخاقان . فقد كان جميلا مهذبا رقيقا . وقد أحبه الخاقان . وترك له كل السلطات يفعل بها وبه ما يشاء . وتضايقت حاشية الخاقان . ولكن أحمد لا يعبأ بشئ . وتكاثرت الشكايات ولكن الخاقان لا يسمع . ولا يصدق ما يسمع . وأخيرا سافر الإمبراطور . وعلم

ماركو بولو بمؤامرة على حياة أحمد ولكنه لم يتدخل . إنه يخاف من السجن . وفى إحدى الليالى جاء اثنان عند منتصف الليل إلى الوزير أحمد يقولان له إن ولى العهد قد عاد فجأة . وأنه يريد أن يراه . وخرج أحمد للقاء الأمير. ولكن الحراس رفضوا إدخاله لأن الأمير لم يصل . ولكنه أصر على دخول قصر ولى العهد . ودخل إلى إحدى الغرف وكان الضوء شاحبا ولم ير بوضوح إن كان الجالس أمامه أمير أو أى إنسان آخر .. وسجد أحمد وقبل الأرض وأحنى رأسه ينتظر أوامر الأمير . وتقدم أحد المتآمرين وأطاح برأسه !

وانكشفت المؤامرة . وقتل الخاقان مئات من رجال القصر !

ومن عجائب الدنيا التى اندهش لها ماركو بولو ولم يفهمها : العملات الورقية كيف يبيع الإنسان الذهب مقابل هذه الأوراق . أو كيف يشترى بها أى شئ .. وعلى الرغم من أن ماركو بولو من أسرة من التجار الناجحين ، فإن عقله لم يستطع أن يفهم معنى هذه الأوراق المالية وأنها « تعهدات » بالدفع . وهو معذور لأن هذه العملات لم تكن مستخدمة فى أوروبا فى ذلك الوقت . وإن كان الإمبراطور فريدريش الثانى قد استخدم عملات من الجلد .

وأعجب جدا بنظام البريد فى الصين . وكيف أنهم يستخدمون الخيول لمسافة معينة . ثم يغيرون الخيول وهكذا — وكيف أنهم استخدموا الحمام الزاجل أيضا . (وإن التاريخ يؤكد لنا أن العرب هم أول من استخدم الحمام الزاجل بدلا من الطائرات فى كل شئ . ومن أشهر حوادث التاريخ أن الخليفة العزيز قد طلب إلى الوزير الأكبر فى بعلبك بلبنان أن يبعث له بعض حبات الكرز . فأتى الوزير بحبات الكرز ووضع كل حبة فى كيس من الحرير وعلقه فى ساق حمامة من الحمام الزاجل .. وأرسل للخليفة سربا يضم ٦٠٠ حمامة ! وفوجئ الخليفة قبل أن يتناول طعام العشاء بأن الفاكهة قد وصلت من لبنان !)

وقابل ماركو بولو رجلا تاجرا اسمه محمد ذو الفقار وكان هذا الرجل

مشرفا على مناجم الفحم . ومسئولا عن صناعة الحرير . وكان مأخوذا بدقة الخيوط التى لا تقبل الاحتراق !

ومن أهم الأعمال التى كلفه بها الخاقان أن يقود عشرين سفينة إلى جزيرة سيلان . ووصلت السفن إلى شواطئ الجزيرة . وسأل ملك الجزيرة عن سبب وجود هذه السفن ورد ماركو بولو بأنه سيعرف بعد أيام . فقد كان من عادة الخاقان أن يبعث رجاله فى مهمة لا يعرفونها ومعهم الأوامر . ولكن هذه الأوامر لا يطلعون عليها إلا بعد أن يصلوا إلى المكان الذى عينه لهم . ويفتح ماركو بولو صندوقا به الأوامر الإمبراطورية . وكان الأمر : أحضر لى أسنان بوذا وخصلة من شعره ووعاء الطعام الذى كان يتناوله !

وكانت هذه المخلفات جميعا قد احتفظ بها ملك سيلان . ويقال إنه زيف بعضها وباعها للملك سيام . ثم باعها مرة أخرى لماركو بولو . واندهش ماركو كيف أن بوذا له أسنان فيل !! وكان رد ملك سيلان أن بوذا قد حل فى أجسام كثيرة : جسم فيل .. ثم جسم إنسان .. وأنه عندما مات كان فى جسم فيل ولذلك فأسنانه أسنان فيل ..

ويبدو أن ماركو بولو قد سافر من مدينة كالومبو — العاصمة الآن — إلى مدينة كاندى — التى كان يسكنها أحمد عرابى باشا ولايزال بيته فيها حتى الآن — هناك فوجد مخلفات بوذا فى إحدى القلاع . ولكن ماركو بولو حدثنا فقط عن « قمة آدم » أو جبل آدم — وقد رأيته أنا عندما سافرت إلى جزيرة سيلان سنة ١٩٥٩ . أما الجبل ففى أعلاه بحيرة . ويقال إن هذه البحيرة هى الأثر الباقى لقدم آدم عندما وطئها لأول مرة !

أما سعادة الخاقان فلا توصف — كما يقول ماركو بولو . فقد عرض هذه المخلفات على الشعب . ووقف الناس طوابير طويلة يرونها . والطبول تدق . والموسيقى تملأ الشوارع . ويزداد حب الناس للإمبراطور . ويزداد ضيق الناس

برجال الدين الذين أكدوا لهم أنهم هم الذين استخدموا السحر فى الحصول على المخلفات الأصلية وليست الزائفة !

ومات هذا الخاقان بعد ذلك !

وكانت صدمة لآل بولو . وبعد شهور من وفاة الخاقان جاء خاقان جديد وتقدم الثلاثة يطلبون الإذن فى العودة إلى بلادهم . وقال الأب بولو إن له زوجة وأولادا لم يرهم . وهو كاذب طبعا فقد ماتت زوجته . وليس له غير هذا الابن . ولكن الخاقان الجديد رفض . وقال لهم : إن كان الذهب أعطيتكم أكثر وإن كانت الزوجة فهنا كثيرات . وبالاختصار : لا .. ولكن كلمة « لا » فى الشرق لا تعنى هذا المعنى . ولذلك عاد الثلاثة يطلبون العودة . ووافق الملك . — وودعهم وأعطاهم الهدايا من الذهب والأحجار الكريمة وبكت نساء القصر ورجاله على فراقهم . وطلب إليهم أن يأخذوا عروسا معهم لأحد أقاربه من الحكام فى فارس . بعد أن ماتت زوجته . وكانت العروس فى السابعةعشرة من عمرها .

وكانت العودة بطريق البحر فى يناير سنة ١٢٩٢ . ومنحهم الخاقان الجديد لوحات من الذهب الخالص مكتوبا عليها الإذن بالسفر وضرورة تأمينهم طول الطريق . وبعث معهم هدايا ورسائل إلى البابا وملوك فرنسا وأسبانيا وانجلترا .. ثم أعطاهم ١٤ سفينة بها ٦٠٠ رجل . وعندما وصلت بعض هذه السفن إلى منطقة الخليج كان عددهم جميعا ١٨ نسمة !

وعندما وصلوا إلى أرض فارس كان الحاكم الذى حملوا له العروس قد مات عن ٧١ عاما ، بسبب إسرافه فى تعاطى السوائل المقوية جنسيا . وأعطوا العروس ووصيفتها لابنه .. وبكت العروس عند وداع ماركو بولو فقد أنقذ حياتها أكثر من مرة .

وفى سنة ١٢٩٥ وصلوا جميعا إلى مدينة البندقية ، أى بعد أكثر من عشرين عاما . ويقال إنهم دقوا باب البيت. ولكن أحدا لم يعرفهم . ويقال إنهم اضطروا

أن يخلعوا ملابسهم المغولية . وعرفهم أهل البيت . وتحدثت المدينة عن ثرائهم وتلفت الأب والعم عبثا عن ماركو بولو . لقد اختفى يبحث عن فتاته . وبعد لحظات عاد حزينا . لقد ماتت الفتاة بعد سفره .. لقد ألقت بنفسها فى الماء حزنا وندما على أنها رفضته زوجا لها . من يدرى فربما لو تزوجها ما كانت هذه الرحلة !

.. وتحققت نبوءة الشجرة ..

وبعد سنة من الإقامة فى البندقية دارت معركة بحرية بين سفن جنوده المعادية لمملكة البندقية . وتولى ماركو بولو قيادة سفن البندقية . ووقع أسيرا ... ودخل السجن . — وتحققت نبوءة العراف الهندى .

وفى السجن لقى أديبا اسمه روستيكللو أملى عليه مذكراته هذه . وكتبها هذا الأديب بلغة إيطالية بها كثير من العبارات الفرنسية . واستغرقت عملية الإملاء هذه ثلاث سنوات . خرج بعدها ماركو بولو ومعه هذا الكتاب وأعطاه للناس يقرؤونه ويتداولونه حتى كادت سطوره أن تتلاشى .. وعاش ماركو بولو بعد ذلك ربع قرن لا نعرف عن حياته شيئاً !

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب قد امتلأ بكثير من الخوارق ، وأن بعض العلماء قد شكك فى قيمتها ، فقد ظل المرجع الجغرافى الوحيد لكثير من المدن مئات السنين !

ولهذا الكتاب مقدمة وجهها ماركو بولو إلى الحكام ورؤساء الدول يقول لهم فيها : إن السفر هو أعظم متعة فى الدنيا .. وإنه من الخير للحكام والرؤساء وللإنسانية أن يسافروا وأن يفتحوا الأبواب لغيرهم لكى يسافروا أيضا !

تحفة النظار

فى غرائب الابصار

وعجائب الأسفار !

كان هذا الشاب أكثر اهتماما بالناس . ومعه حق . فالدنيا من صنع الناس . ملابسهم تدل عليهم . وطعامهم وشرابهم ، ومعاملتهم لضيوفهم ولنسائهم ، وحيواناتهم .. إنه يختلف عن الرحالة الأندلسى ابن جبير الذى كان أكثر اهتماما بالمدن والمساجد . إن هذا الشاب أبو عبد الله بن إبراهيم اللواتى – نسبة إلى قبيلة لواته إحدى قبائل البربر – المعروف بابن بطوطة والملقب بشمس الدين (١٣٠٤ – ١٣٧٧) .

فقد كان فى الثانية والعشرين من عمره عندما بدأ أطول رحلة قام بها الإنسان فى العصور القديمة . طولها ٧٥ ألف ميل و٢٩ عاما تزوج فيها ٢٣ مرة وأنجب سبعين ولدا وبنتا .

ولقد ولد ابن بطوطة فى مدينة طنجة متدينا متفقها شديد الرغبة فى المعرفة وفى السفر . أى فى المعرفة عن طريق السفر . قرأ رحلات ابن جبير وتأثر بها ونقل عنها أيضا .. بدأ رحلته بالسفر إلى الأراضى المقدسة . ومن الغريب أن رجلا تنبأ له بأنه يعبر البحر الأحمر من الشاطئ المصرى .. وأنه سوف يحج عن طريق الشام . وقد حدث له ذلك ..

ورحلات ابن بطوطة متعة حقيقية . فكلها حكايات ونوادر وخرافات سمعها وصدقها . أو لم يتسع وقته لكى يتحقق منها . ولكنه ينقلها دائما كما هى .

فمثلا فى مصر سمع عن رجل اسمه الشيخ جمال الدين بن الساوى من دمياط جميل جدا . هامت به النساء . بعثت سيدة من دمياط بخادمتها تقول له إنها تلقت خطابا من ابنها وتريده أن يقرأه لها وحاول الشيخ ثم طلبت

إليه أن يفعل ذلك بالقرب من باب البيت حتى تسمع الأم صوته ، وذهب الشيخ وتقدمت الخادمات وهجمن عليه . وكتفته السيدة . ولكن الرجل لم يستطع وأخيرا طلب إليهن أن يدخل دورة المياه . وحلق لحيته وشاربه وشعره وحاجبه وخرج كأنه قرد .. وهربت النساء منه !

ويقول ابن بطوطة إن هذا الشيخ جمال الدين كان يستطيع أن يأتى بلحية سوداء أو بيضاء كما يحلو له !

ويقول ابن بطوطة إنه كان فى الطريق إلى جزيرة سيلان عندما شاهد البحارة جزيرة صغيرة انزعجوا منها . فلم يكن ذلك فى حسابهم . وكانت الريح ترميهم على الجزيرة .. وفجأة اكتشفوا أن هذه الجزيرة ليست إلا طائرا ضخما اسمه : الرخ .. ومن الغريب أن البحارة راحوا يصلون ويبكون وكل واحد منهم ينذر لله أن يتصدق بكذا وكذا . والناس فى حالة من الفزع الرهيب . ولكن ابن بطوطة كان مشغولا بتسجيل المبالغ التى نذرها البحارة !

وعندما جاء ابن بطوطة إلى الإسكندرية سمع عن أحد المصريين أنه استطاع أن يتسلق عمود السوارى عاريا . والتف الناس حوله فى دهشة كيف استطاع . ويقول ابن بطوطة لابد أنه لف حوله حبلا وعقده ثم تسلل إلى أعلاه . وسحب الحبل وأخفاه ليضاعف دهشة الناس . أو أن هذا الرجل فقير يريد حسنة من الناس أو يريد أن يلفت إليه العيون (فعلت ذلك فى لندن الراقصة المصرية دولت سليمان عندما صعدت عارية تمثال نلسون سنة ١٩٥٧ !)

ويروى ابن بطوطة أنه سمع فى مدينة بخارى أن رجلا طيبا مؤمنا اسمه أدهم الزاهد قد وجد تفاحة فى مجرى النهر . فأكلها . ثم ذهب يسأل عن صاحب البستان القريب الذى جاءت منه . وعرف أن صاحب البستان سيدة فقالت له : هذا البستان أملكه أنا والسلطان وأنا نزلت لك عن حقى فى التفاحة. فاذهب إلى السلطان وبحث عن السلطان . وعرف أنه على مسافة بعيدة . فذهب إليه . وحكى له ما حدث . وأعجب به السلطان . وزوجه ابنته .

وظل هذا الرجل الطيب بعيدا عن الزوجة تسعة أيام يصلى . وعندما طلب الإذن بالسفر قرر السلطان ألا يتركه حتى يبيت مع ابنته فى فراش واحد . وفعل ومات ..

وقصص أخرى ونوادر كثيرة الواحدة بعد الأخرى فى مئات الصفحات فرحلة ابن بطوطة رحلة فى عادات الناس وتقاليدهم .. وهو يصف لك الطعام وكيف يصنعونه والشراب وكيف يعصرونه . ثم يحدثك عن شجرة « القات » ويسميها شجرة التنبول ويقول إنها تقوى الذهن وتملأ النفس بالحيوية الجنسية .

وكان لابن بطوطة طريقة معروفة فى كل البلاد التى يذهب إليها إنه يسأل عن القاضى : السلام عليكم — وعليكم السلام .. أنا فلان قادم من الغرب فى طريقى إلى مكة والمدينة .. أو كنت فى مكة والمدينة . ويكون الجواب : أهلا وسهلا .. ضيفا علينا ثلاثة أيام . ويقول ابن بطوطة : إن معى عددا كبيرا من الأتباع والخدم والدواب ويقول القاضى أو السلطان : كلهم ضيوفى !

ولا يجد ابن بطوطة حرجا فى أن يقول له : ولكن هناك مشكلة بسيطة .

ويقول المضيف : بسيطة إن شاء الله .

— إننى مدين لفلان بعشرين ألف دينار .

— ويقول المضيف ندفعها عنك بإذن الله !

وهكذا فى كل رحلة ابن بطوطة التى استغرقت أكثر من تسعة آلاف يوم لم يدفع فيها مليما واحدا من جيبه .. وإنما هو بلطفه وظرفه وبراعته ينقل الفلوس من جيوب السلاطين والقضاة إلى أكراش التجار . فى إحدى المرات فى الهند ، كان مدينا بمبلغ خمسين ألف دينار . فنظم فى السلطان قصيدة سخيفة . السلطان لا يعرف العربية . إنه يعرف اللغة الأردية فقط . وأمسك السلطان بطرف القصيدة وأمسك ابن بطوطة بالطرف الآخر . ثم طلب إلى المترجم

أن ينقلها له بأمانة . ولم يهتز السلطان . وحزن ابن بطوطة . وأخيرا قرر السلطان. أن يصرف له هذا المبلغ . ولكن الطريق بين قرارات السلطان والخزانة طويل جدا ولابد أن يعطى هو أيضا مما أعطاه السلطان !

وفى أكثر من مرة كان يدعى المرض وعندما يسأل عنه السلطان يقول : قلبي يوجعنى يامولاى !

ويشير ابن بطوطه إلى جيبه !

وكان ابن بطوطه يعمل قاضيا للمسلمين فى كل البلاد التى ذهب إليها وكان إذا سمع عن شئ غريب . طلب أن يراه أو يكون قريبا منه . كانت حياته كلها من أجل السفر ومن أجل أن يرى أكثر ليروى للناس بعد ذلك . وإذا وجد الطريق صعبا أو مليئا باللصوص طلب من الله أن ينقذ البشرية من هؤلاء السفاكين ليتقارب الناس أكثر ..

وكان ابن بطوطه يتزوج فى كل مكان يحل به . ثم يطلق زوجته . أو يقول لها إذا لم أعد بعد سنة فأنت حرة وتزوج كثيرا جدا . ولابد أن الحياء هو الذى منعه من أن يقول رأيه فى أشكال وألوان النساء اللائى عاشرهن وإن كان قد صرح بذلك فى أكثر من مكان . فقد وصف بنات الفرس بأنهن جميلات وأنهن أقدر نساء العالم على « التفنن فى حركات العشق » . أما الزوجات فى جذر المالديف ـ ذيبة المهل كما يسميها ـ فقد حاول أن يقنعهن بتناول الطعام معه فرفضن . لابد أن يأكلن بمفردهن !

وحاول ابن بطوطه أن يصلح فهم الشريعة الإسلامية فى كل البلاد التى ذهب إليها . فقد انزعج مرة عندما سمع صوت أجراس الكنيسة أعلى من صوت المؤذن .. وطلب من المصلين أن يصعدوا إلى الجامع وأن يرفعوا أصواتهم بالدعاء !

وعندما علم أن نساء جزر المالديف يمشين عاريات الصدر منعهن .

ولم يفعلن . ولكنه منع أية واحدة تقف أمامه إلا إذا غطت صدرها !

وكان من عادة المسلمين فى الهند إذا طلق الرجل زوجته أن تبقى فى بيته حتى تجد لها زوجا آخر . وحرم ذلك . وأطلق سراح المطلقات . وضرب الرجال وفضحهم فى الشوارع . وكان يحكم بقطع يد السارق !

وفى الهند رأى عجائب الدنيا .. ولاتزال هذه العجائب تنتقل من القرن الرابع عشر حتى يومنا هذا .. دون أن يناقشها أحد .. أو يدعى كثير من الناس أنهم رأوها . فهو أول من وصف لنا الرجل الذى يرتفع تلقائيا فوق الأرض .. ثم يرتفع حذاء إلى أعلى رأسه ويضربه .. وينزل الرجل إلى الأرض ![1]

وهو الذى يصف قصة الفيلة التى قتلت أصحابها .. فقد حدث أن جماعة ذبحوا فيلا وأكلوه . وناموا . وجاءت الفيلة تشمشم فيهم ليلا . وتقتل كل من فى فمه رائحة لحم الفيل .. إلا رجلا واحدا .. حملته الفيلة على ظهورها . وكان رجلا صالحا !

ويقول ابن بطوطة إنه رأى فى جزر المالديف نساء لهن ثدى واحد !

وسمع عن شجرة تسقط منها ورقة واحدة كل سنة . فى الخريف . هذه الورقة مكتوب عليها : لا إله إلا الله .. وينتظرها الناس كل سنة . ويقتسمونها مع السلطان ونصفها يكفى لعلاج الناس جميعا !

وهو أول من حدثنا عن حجر أسود وقع من السماء . أتوا له بهذا الحجر حاولوا تكسيره . . فلم يستطيعوا . فوضعوه فى مكانه !

وضحكت – ولم يضحك ابن بطوطة – عندما زار مدينة البصرة . فوجد أمام المسجد رجلا يخطئ فى النحو والصرف . واندهش كيف يحدث ذلك

(١) راجع كتابى « الذين هبطوا من السماء » .

فى المدينة التى ولد فيها أبو النحو : سيبويه ! (حدث لى ذلك أيضا عندما ذهبت مع وفود الأدباء والشعراء . ولاحظت أن الكوبرى الذى يصل بين المدينة والمدينة الجامعية مكتوب عليه . الكوبرى حمولة ١٢ طن — وليس ١٢ طنا . وكتبت مقالا أفضح فيه هذه الغلطة الفظيعة فى مدينة النحو . وأصلحوا هذا الخطأ !) .

وابن بطوطة قوى الملاحظة ، وشديد الذكاء . ولذلك يخطئ كثيرا . فمثلا عندما رأى قواقع اللؤلؤ . قال إن هذه القواقع إذا أخرجوها من الماء . ثم مزقوها . فإن قطع اللحم هذه ، إذا تعرضت للهواء ، تجمدت وتحولت إلى هذا اللؤلؤ الجميل — إنه لم يعرف أن اللؤلؤ إنما يتكون فى أحشاء هذه الحيوانات الصغيرة سنوات طويلة تحت الماء !

وقد تأثر ابن بطوطه بالحياة فى جزر المالديف . وقد تزوج هناك أربع سيدات معا . وكانت له خادمات أيضا ومن عادة أهل الجزر هناك وعددها ألف جزيرة ، أن العروس تفرش الطريق إلى بيت العريس بالقماش . ثم تنتظره عند الباب فإذا جاء ألقت بثوبها على قدميه . وكذلك يفعلون مع الذين يحترمونهم من الناس . أما كيف دخل الإسلام إلى هذه الجزر النائية المتناثرة فى المحيط الهندى . فابن بطوطه يقول إن أهل الجزر كانوا يتوقعون مجئ أحد العفاريت مرة كل شهر والعفريت يجئ فى سفينة مضاءة أما أهل الجزر فيعدون له فتاة عذراء وجميلة — مثل عروس النيل — ويضعونها فى إحدى القلاع وتبيت معه حتى الصباح .. وفى الصباح لا تكون عذراء .. ويقال إن رجلا اسمه أبو البركات البربرى من المغرب جاء إلى هذه الجزر . وسمع بهذه القصة وانزعج . وفى يوم وجد سيدة عجوزا تبكى . وسألها . فقالت :

ابنتى الوحيدة عليها الدور !! فقال لها أبو البركات : لا تحزنى — سأذهب بدلا منها .

وذهب الشيخ أبو البركات إلى القلعة . وظل يصلى طول الليل .. حتى طلع النهار . وجاء أهـــل الجزر يتسلمون الفتاة تمهيدا لقتلها وحرقها بعد ذلك فوجدوا الشيخ أبو البركات وفى الشهر التالى تكرر ذلك .. وآمن أهل الجزر بدين الإسلام . ولا يزال للشيخ أبو البركات قبر يزار فى جـــزر المـالديف .

وعندما عاد ابن بطوطة من هذه الرحلات الطويلة كان يجلس إلى الناس ويحكى لهم ما رأى . وخاف السلطان أبو عنان من أمراء بنى مدين أن تضيع هذه النوادر . فطلب إلى ابن بطوطة أن يمليها . وأتى له بكاتب اسمه ابن جزى الكلبى . وأملاها عليه ونشرت بعنوان « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » . وفى كثير من الأحيان يضيف ابن جزى فقرات من عنده . وكان ابن بطوطة ينتقد أيضا .

وأجمل صفحات هذه الرحلة ما كتبه ابن بطوطه عن نفسه . عن عذابه هو . فعندما وقع فى الأسر . هنا فقط يتحول ابن بطوطه إلى إنسان رقيق بليغ إنه يصف عذابه وهوانه على الناس . وكيف سجنوه ليقتلوه . ثم ربطوه بالحبال . وكيف أن الرجل المكلف بقتله كانت عينه على ملابس ابن بطوطه فأعطاها له . وارتدى ملابسه الممزقة . ثم هرب إلى الحقول والغابات ونام فى البيوت المهجورة مع الثعابين والفئران . وكيف أنه عندماأوى إلى أحد البيوت لاحظ أن طائرا يرفرف فقال : لعله خائف . وهكذا تجمعنا خائفين فى مكان واحد .. ثم كيف أن أحدا حمله على عنقه .. فقد كان مرهقا . وكيف أنه تصور أن هذا الذى حمله اختفى . لا يعرف إلى أين .. صفحات من أرق وأعمق ما كتب ابن بطوطه !

ومرة أخرى عندما ثار لكرامته فى جزر المـالديف . هنا تحس أنه رقيق

ولكنه فى الوقت المناسب قاطع كالسيف ! ولا يرجع عن قراره حتى إذا انحنى السلاطين عند قدميه – وقد فعلوا . ولكنه لم يرجع !

ويظهر التعب والملل واضحا على ابن بطوطه عندما نقلته السفينة من جزر المالديف إلى جزيرة سيلان ومعه إحدى زوجاته وأمها . فقد رأى جزيرة صغيرة . وفى الجزيرة شجرة واحدة . وغربان وزورق . ورجل وزوجته وأولاده . لا أحد غير ذلك . والبحر هادئ . والشمس حانية . والنسيم صحى . والهدوء تام . هنا .. تمنى ابن بطوطة أن تكون له هذه الجزيرة وحده ويعيش فيها حتى الموت !

ذهب يبحث عن الهند
فوجد أمريكا ...
أكبر غلطة

فى إحدى حانات مدينة جنوه الإيطالية يجلس عدد من الرجال ومعهم سيدة جميلة . يشربون ويغنون . وفى آخر الليل يغمزون لها أن تستدعى ذلك الشاب الحزين المأخوذ الذى ينظر فى السقف . ويجئ الشاب ويقتربون منه ..

وبعد أن يرفض أن يشرب أو يضحك يقولون له : وتريد أن تكون ملكا؟ ويكون جوابه : سأكون ملكا !

ويقولون له : قل لنا يا ملك والكنوز التى سوف تعثر عليها ماذا ستفعل بها ؟

ويكون جوابه بنفس الجدية وعيناه هذه المرة إلى وجوههم وعيونهم الحمراء: سأقتسمها مع الدولة .

ويقتربون منه أكثر ويسألون : وتدعونا جميعا إلى أن نشرب فى صحبتك؟ ويرد بسرعة كأنه يصدق ما يقولون : بل أدعوكم إلى أن نسافر معا إلى أرض جديدة .. ومن المؤكد أننى سأجدها !

ويخرج الشاب إلى الشارع .. إلى الشاطئ .. وعند الشاطئ يجلس فى زورق صغير ويظل ينظر فى السماء حتى يغلبه النوم . فإذا طلع النهار عاد إلى بيته لينام ..

وكان أبوه يعرف ذلك .. فلا يسأله عن شئ . وكل ما يفعله الأب هو أن يلقى إليه ببعض النسيج . فقد كان أبوه نساجا .

ثم ينبه إلى ضرورة أن يفرغ من عمله فى أسرع وقت ، وأن يحلم فيما بعد

ولكن لم يعرف التاريخ رجلا عاش حالما طول الوقت مثل هذا الشاب خريستوف كولمبوس الذى تسلطت عليه فكرة غريبة عجيبة . أنه وحده هو الذى سوف يكتشف بلاد الهند والصين . لقد قرأ الكثير : وسمع القصص والنوادر والخرافات التى امتلأت بها المدائن الإيطالية والأسبانية والبرتغالية . وقرأ رحلة ماركو بولو الإيطالى الذى سجن فى مدينة جنوه . وسمع عن المجرمين الذين هربوا من سجون البرتغال واختفوا فى إحدى جزر المحيط الأطلسى .. بعيدا عن كل العيون .. وسمع قصة الراهب الذى ركب زورقا واختفى فى الشاطئ حيث لا يدرى به أحد . وسمع قصة بلقيس ملكة سبأ التى قيل عنها إنها عبرت المحيط ووصلت إلى اليابان وقرأ عن العرب الذين سافروا إلى الشاطئ الآخر من المحيط ، وعن كثيرين جدا .. ذهبوا ولم يعودوا ..

وقد عرض كولمبوس فكرته الجنونية هذه على حكومة جنوه فسخروا منه . وسافر إلى اليونان وإلى شمال أوروبا .. وكره بلاده .. وأقسم ألا يتكلم الإيطالية وألا يكتب بها ، بل أنه غير اسمه تماما . وجعله : كريستوبال كولون . وكذلك فعل إخوته .. ووقف فى زورق خارج مدينة جنوه وبصق عليها . (بعد ذلك بمئات السنين فعل ماركونى نفس الشئ . عندما عرض اختراعه اللاسلكى على حكومته فهزت له كتفيها فسافر إلى انجلترا) .

وسافر كولومبس إلى البرتغال . إلى لشبونة . حيث كان الناس بحارة وكلهم أبطال . وعندهم مغامرات . وروى فكرته فى أن يذهب إلى الهند والصين عن طريق المحيط — أى يذهب إلى الشرق عن طريق الغرب . وفى مدينة لشبونة عرف إحدى الفتيات. أعجب بها . عرض عليها الزواج . وافقت. اشترط أن تهديه إلى قصر الملك . الصدفة وحدها هى التى هدته إلى هذه الفتاة . فإحدى قريباتها تعمل فى البلاط الملكى . استطاع أن يقترب من الملك يوحنا الثانى . لعرض فكرته . نظر الملك إلى هذا الشاب الإيطالى المؤمن تماما بمشروعه . نظر إلى الخرائط التى رسمها فى يده. سأله : من الذى رسمها ؟ فأجاب كولومبوس : أنا .

ثم طلب إليه الملك أن ينتظر بعض الوقت ..

وكان البحار دياز يلف حول أفريقيا يريد أن يكتشف طريقا آخر إلى الهند . ولذلك لم يكن ملك البرتغال متحمسا لمشروع كولمبوس .

ولم يطق كولمبوس صبرا . فهو يريد أن ينفذ مشروعه . فقد قرأ فى الكتاب المقدس أن العالم سوف ينتهى سنة ١٦٦٥ (؟!) وقرأ أيضا فى سفر أشعياء (الإصحاح الحادى عشر الآيتان العاشرة والحادية عشرة) أنه هو وحده الذى سوف ينقذ العالم . وأنه هو الذى سينقل البشرية إلى الشاطئ الآخر . أو هكذا فهم !

والآيتان تقولان: «ويكون فى ذلك أن أصل (يسى) القائم رأيه للشعوب . إياه تطلب الأمم ويكون محله مجدا . ويكون فى ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ثانية ليقتنى بقية شعبه التى بقيت من آشور ومن مصر .. ومن جزائر البحر » .

وآمن كولمبوس أنه هو المقصود . ولذلك كان يمشى ويأكل ويشرب وينام وهذه الكلمات ترن فى أذنيه .. كان يعيش كأنه منوم تنويما مغناطيسيا . لا يعرف الضحك . ولا يعرف المشاركة فى أى نوع من أنواع الحياة الاجتماعية . وليست لديه إلا قصة واحدة : اكتشاف الهند . وعندما تزوج لأول مرة : قال لعروسه : وفى استطاعتك أن تحتملى جنونى . قالت نعم ..

وحاولت أن تجعله يعدل عن الجنون . ولكنها لم تستطع . وبعد أن ماتت هذه الزوجة الغنية اختار عشيقة له . كانت مهمة هذه العشيقة أن توقظه طول الليل لتقول له : أريد أن أنام .. اسكت .. لقد سمعت هذه القصة ألف مرة !

ولكنه لا يتعب من تكرارها .. ذهب إلى الملك فردناند والملكة إيزابيلا ملكى أسبانيا . قدم مشروعه . نشر خريطته أمامهما كأنها طائر أبيض ذبيح تحمس الاثنان . استدعيا رجال البلاط والخبراء . ناقشوه . اقتنعوا بأنه مجنون

اعتذروا . ولكن الملكة تأثرت لمنظره : طويل عريض . ذهبي الشعر أزرق العينين شديد البياض . له أنف صقر . لا يضحك . ولا يحب الضحك . وقررت الملكة أن تحتفظ به بعض الوقت . واعطته معاشا لمدة سنتين . وبعد ذلك تخلت عنه فعرف الجوع والمرض والتضور . وكان لا يخرج من البيت حتى لا تتسلل الأمطار إلى ملابسه وحذائه . وأصابه النقرس . وشاب شعره فى سن مبكرة . وأرسل أخاه إلى شارل السابع ملك فرنسا . ثم أرسله إلى هنرى الرابع ملك انجلترا . واعتذر الواحد بعد الآخر ..

ذهب كولمبوس على ظهر بغل ليأتى بابنه الذى تركه فى أحد الأديرة فى جنوب فرنسا . دق الباب . خرج له أحد الرهبان . فقال له كولمبوس : أريد ثلاثة أشياء . هل هذا ممكن ، وقال الراهب : ممكن ياولدى ! قال كولمبوس : لقمة عيش .. وولدى الذى تركته هنا منذ سنتين .. ونصف ساعة من وقتك بعد ذلك !

وفى نصف الساعة روى له كولمبوس مشروعه الخيالى . واقتنع الراهب وأرسل خطابا إلى الملكة إيزابيلا ورجاها أن تستمع إليه .. وبعد أسبوعين جاء الرد من الملكة بأنها سوف تستمع إلى كولمبوس .

وذهب كولمبوس يعرض مشروعه مرة أخرى على مسمع من الملكة ورجال البلاط ورجال الدين والعلماء والمنجمين . وكان كولمبوس كأنه « وسيط » روحانى يتحدث بصوت إنسان آخر .. ووافقت الملكة على المشروع . ونظرت إلى وجه كولمبوس . ولكن الوجه جامد . لا سعادة . لا فرح . لا امتنان . وسألته ماذا تريد بعد ذلك ؟ فقال كولمبوس : ننتقل إلى الشروط .

ودهش الحاضرون . ولكن الملكة قالت له برفق : وما هى شروطك ! ؟

قال : أن أعين أميرا للمحيط ونائبا للملك وحاكما على الأرض التى سأكتشفها وأن آخذ عشر إيرادها وثروتها وكنوزها .

ورفضت الملكة المشروع والشروط معا .

وقال كولمبوس : شكرا لأنك استمعت إلى .. وخرج كولمبوس وركب بغلته واتجه إلى الشمال . لا أحد يعرف بالضبط إلى أين . ولكن وزير الخزانة قال للملكة يامولاتى . إننا لن نخسر شيئا . هذا الرجل إما أن يكون مجنونا أو عبقريا . فإذا كان مجنونا فهذه مغامرة . وإذا كان عبقريا وأنا أؤمن بذلك فسوف يضيف إلينا أرضا جديدة .. وعددا هائلا من الهنود يدخلون الديانة المسيحية .. إنه مجد لأسبانيا ! وإذا لم توافقى على تمويل هذا المشروع فأنا على استعداد أن أموله على حسابى !

واستدعت الملكة كولمبوس لتنهى رحلة العذاب والهوان التى استغرقت من عمره عشرين عاما !

ومنحته مبلغ خمسة آلاف جنيه :

وقالوا لها : هذا كثير !

(خمسة آلاف جنيه أدت إلى اكتشاف أمريكا كلها . ! ولذلك فالأموال التى تنفقها أمريكا وروسيا على سفن الفضاء ليست كثيرة إذا ما قورنت بالفوائد الفلكية والعلمية التى سيهتدى إليها الإنسان بعد ذلك !)

واقترض كولمبوس بضع مئات من الجنيهات .

وأعدت له الملكة أسطولا من ثلاث سفن هى : سانتا ماريا (حمولة مائة طن) ورجالها خمسون . ونينيا (٥٠ طنا) ورجالها ثلاثون . وبنتا وحمولتها (٤٠ طنا) ورجالها ٢٤ .

وفى يوم ٣ أغسطس ١٤٩٢ بدأت الرحلة من الشاطئ الأسبانى إلى المجهول مارة بجزر كنارى — فى هذا اليوم بالضبط قررت حكومة أسبانيا طرد اليهود جميعا من البلاد ! !

وكان على ظهر سفينة القيادة عدد من الموظفين الرسميين . وكان كولمبوس

حريصا على كل مظاهر الرياسة . وشديد التمسك بحقوقه . وكان يطلب إلى كل الرجال أن يعاملوه كأميرال ونائب للملك . وتوقفت السفينة عند جزر كنارى بعد أن انكسرت إحدى السفن .

وبعد جزر كنارى اتجه كولمبوس إلى المجهول . انه يمشى فى طريق لا يعرفه أحد . لم يعبره أحد . فكل ما عنده قصص وخرافات . وفى أعماقه إيمان بأنه هو الذى سوف يهتدى إلى الأرض الجديدة . إن الأقدار قد اختارته والدليل على ذلك أنه غرق فى المحيط وأنقذته إحدى الصخور الصغيرة .. وأنه وحده هو الذى يسمع صوتا واضحا يهتف فى أعماقه . وأنه هو وحده الذى يتجه إلى الهند عن طريق الجنوب لا عن طريق الشمال .

وبدأ البحارة يشعرون بالخوف . فقد كانت الطيور تطمئنهم . إن هذه الطيور دليل على أن الأرض قريبة . ولكن الأيام طالت وطالت . والليل يجئ ويروح .. والرياح يتغير اتجاهها وأشرعة السفن الصغيرة تتمزق . وفجأة لم تعد البوصلة تتجه إلى الشمال .. إنها تتوقف .. وفجأة تعالى صوت أحد البحارة : الأرض .. الأرض .. ولم تكن أرضا . وإنما هى سحابة كثيفة جاثمة على صدر المحيط .. وفجأة ظهرت أعشاب بحرية كثيفة تعوق سير السفن .

وفى يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٤٩٢ صرخ أحد البحارة : الأرض ! .. الأرض

ولم تكن أرضا . وإنما هى هم . أو تعب . أو سحب .. أو أسماك تلمع فى الماء فيظن البحارة أنها مشاعل فى أيدى الهنود .. ورغم ذلك فإن البحارة أقاموا الصلاة . وراحوا يبتّهلون لله .. وينشدون معا : حفظ الله الملكة ..

وطلع النهار . ولم يجدوا الأرض ..

وفى يوم ١٠ أكتوبر قرر البحارة التمرد على هذا الرجل المجنون كولمبوس وأعلنوا أنه لابد من العودة .. واستدعاهم كولمبوس وقال إنه سوف يعطى معاشا سنويا ضخما لأول من يرى الأرض .. ثم قال لهم : إذا لم تظهر الأرض بعد ثلاثة أيام بالضبط فسوف نعود إلى أسبانيا !

وهدأ المتمردون ومن العجيب أن الأرض ظهرت بعد يومين . أما كيف أعلن كولمبوس ذلك وفى يقين . فلابد أن يكون السبب هو أنه رأى بعض الطيور البحرية تتجه إلى الجنوب . ولابد أن أغصان الأشجار العائمة والتى التقط منها واحدا هى التى شجعته على ذلك .. ولابد أن قطعة الخشب المحترقة هى التى أكدت له أنه قريب من الشاطئ .. وفى الساعة الثانية من صباح يوم ١٢ أكتوبر صرخ أحد البحارة : الأرض .. الأرض ..

وكانت الأرض الجديدة بعد ٣٢ يوما من السفر من جزر كنارى . وطلب إليهم كولمبوس أن يصلوا وأن «يعترفوا وأن يتناولوا» ونزلوا إلى الأرض . وغرسوا علم أسبانيا وارتدى كولمبوس ملابس الأميرال ونائب الملك وأعلن أن هذه الأرض ملك لأسبانيا وأنه هو حاكمها .. وانتهت بذلك الخرافات والقصص والنوادر التى أعلنتها الشعوب مئات السنين عن الشاطئ الآخر للمحيط الأطلسى. انتهى ما جاء فى كتاب « صور الدنيا » للكاتب بيير وايلى .. انتهت كل الألغاز والرموز التى جاءت فى الكتب المقدسة عن الظلمات وبحر الظلمات .. وما يكتبه يوحنا الدمشقى ..

وكان الفيلسوف أرسطو يعتقد : أن المسافة بين أسبانيا وبين الهند — أى الجانب الآخر من المحيط الأطلسى — قريبة جدا ..

وكان الفيلسوف سنيكا يقول : إذا كانت الريح ملائمة أمكن عبور المحيط فى أيام !

ولم يحدث فى التاريخ أن استطاع إنسان بمعلومات خاطئة فى الجغرافيا والفلك أن يكتشف عالما جديدا . فكولمبوس إنسان غير مثقف . وإنما عنده تجارب وعنده بعض القراءات وإيمان لا حد له .. فهو حتى الموت كان يحلم بلقاء الخاقان الذى تحدث عنه ؟ ماركو بولو .. وتلك الكنوز من الذهب والماس . فى بلاد الصين !

وبعد اكتشاف كولمبوس للأرض الجديدة ، أصبحت الأرض الجديدة فى متناول كل بحاو مغامر .. وتوالت اكتشافات الجزر الكثيرة . بل إن بعض بحارة كولمبوس اكتشفوا البرازيل .

أما أول أرض نزل بها كولمبوس فهى إحدى جزر بها ماس وقد أطلق عليها اسم : سان سلفادور ..

وكان سعيدا عندما رأى « الهنود » ووصفهم فى مذكراته : أنهم أناس فى غاية الرقة . عراة . وبلا سلاح .

وأول ما لفت نظر كولمبوس هو الذهب الذى فى صدور وآذان النساء . وحاول أن يعرف منهم أين يوجد هذا الذهب . فأشاروا إلى أنه فى الجنوب فى جزيرة كوليا أى كوبا .

ورأى الأوروبيون لأول مرة أن الهنود يلفون أوراقا صغيرة ويشعلونها من حافتها ثم يضعونها فى أنوفهم ويدخنونها — إنها السجائر !

وبعد ذلك كل شئ مكرر . فكولمبوس أثبت أن هناك طريقا . وأن الطريق قد بلغ نهايته .. وبعد ذلك تسابقت كل الدول !

وعاد كولمبوس إلى أسبانيا ..

واستقبلوه استقبال الفاتحين . ارتدى ملابس الأميرال ونائب الملك .. كان يسوق أمامه عددا من الهنود الحمر .. والناس يتفرجون على الرجل الذى أنكره كل الناس وسخروا منه .. إنها إذن لحظة النصر العظيم على الشقاء والتعاسة والجوع والسخرية ..

وأجلسته الملكة إلى جوارها ..

ولكن الذين لا يتحمسون فى بلاد الملوك وما أكثرهم . نظروا بنصف عين إلى هذه الثروات التى حملها معه . لم تكن شيئا هاما . أما الهنود الحمر فقد آمن كولمبوس أنها فرصة لتجارة الرقيق وفى استطاعة أسبانيا أن تكسب من ورائها الملايين .. ثم إنه أتى ببعض الببغاوات . وأتى ببعض الثمار والفلفل الأحمر واللبان وجوز الهند – إن الرحلة ليست كسبا كبيرا !

ولذلك قام كولمبوس بثلاث رحلات أخرى . الثانية استغرقت ما بين ١٤٩٣ و ١٤٩٦ والرحلة الثالثة فيما بين ١٤٩٨ و ١٥٠٠ والرحلة الرابعة والأخيرة فيما بين ١٥٠٢ و ١٥٠٤ . وعين أخوه حاكما على إحدى الجزر .

ولم يكن كولمبوس خبيرا بفن الإدارة أو الحكم . وقد انشغل عنه الملك والملكة تماما . وهان أمر اكتشافه على أوروبا كلها . فقد تسابقت الدول إلى اكتشاف أراض جديدة .

وطالب كولمبوس الملكة بأن تفى بما وعدت به . ولكنها اعتذرت لأنه ليس من المعقول أن يتقاضى كولمبوس عشر ثروات أسبانيا !

ثم ان كولمبوس نفسه شخص لا يطاق . فهو عصبى عنيف . وفى غاية القسوة والمرارة . فعندما قرر العودة إلى أسبانيا ترك وراءه أربعين من رجاله قتلهم الهنود .. وحدث وهو فى الطريق أن قامت عاصفة. فجمع البحارة وقال لهم : من الذى اكتشف الهند ؟ قالوا له : أنت ..

– من هو أميرال المحيط وملك أسبانيا ؟

– أنت ..

– من هو الذى اختارته السماء ؟

– أنت !

وهنا أمسك كولمبوس قطعة من الجلد وكتب عليها أنه هو وحده لا شريك

له قد اكتشف الهند والصين وأنه سيد البحار . ثم وضع قطعة فى زجاجة وألقى بها فى المحيط !

وعندما وصل البحارة مع كولمبوس رووا للملكة ما حدث .. وتهامس الناس فى قصر الملكة عن الرحلة التى لم تسفر عن شئ ..

أما أخوه فقد كان هو أيضا عنيفا . أعدم عددا من الأسبان . وأقره كولمبوس على ذلك . بل أن كولمبوس قد صفع القاضى الذى بعث به الملكة لإقرار النظام فى الأرض الجديدة . فأصدر القاضى قرارا بإلقاء القبض على كولمبوس . ووضعت السلاسل فى يديه .. وعاد بنفس الطريق الذى اكتشفه إلى أسبانيا لمحاكمته .. وعندما علمت الملكة بما أصاب كولمبوس انزعجت وطلبت فك السلاسل من يديه ولكنه أصر على أن يمشى فى الشوارع ويراه الناس .. ويشهد الناس ما لقيه هذا المكتشف العظيم !

ولم يكد الناس يرون كولمبوس حتى بكوا من أجله .. وفكوا قيوده . وعاد كولمبوس يطالب الملك بنصيبه من الثروات . ووعده الملك بأن يعطيه معاشا سنويا . وأن يحتفظ أبناؤه الشرعيون وغير الشرعيين بألقابه !

وماتت الملكة ولم يعد لكولمبوس أحد يعطف عليه ..

وفى هذه الأثناء اكتشف رجل إيطالى آخر أسمه أمريكو فسبوتشى أمريكا الجنوبية وأعلن أنها ليست الهند كما قال كولمبوس .. وإنما هى قارة جديدة تماما .. إنها ليست آسيا .. ولذلك سميت أمريكا باسم هذا البحار الإيطالى لأنه هو المكتشف الحقيقى .

أما السنوات التى جاءت بعد ذلك فهى مرض وعجز عن الحركة ، حتى مذكراته التى كان يسجلها يوما بيوم لم يكملها . وإنما استولى عليه القرف .. ووهم عجيب بأنه يجب أن يذهب ليحرر القدس . وآخر خطاب كتبه لإبنه

يطلب منه أن يرفع أمره للقضاء ضد الملك حتى يحصل على حقه كاملا من الأرض التى اكتشفها !

وظل الإبن يقاضى الدولة حتى سقط حقه بوفاته ..

ووفاة كولمبوس نفسه عن ٥٥ عاما يوم ١٩ مايو سنة ١٥٠٦ — دون أن يدرى به أحد !

وفى ١٥٤٢ نقل رفات كولمبوس إلى جزر سان سلفادور . ووضع فى كاتدرائية سان دومنجو . وتحطمت هذه الكاتدرائية بعد ذلك بفعل الزلازل . ثم أقيم فنار ضخم عند مصب نهر أوزمان فى جمهورية الدومينكان يحمل اسم خريستوف كولمبوس ..

وقد اختار كولمبوس أن يموت فى أحد أديرة الفرنسيسكان لأنه حاول أن يقنعهم بضرورة تحرير القدس . وفى إحدى المرات نهض من الفراش ولكن النقرس شل حركته تماما . فسقط على الأرض وهو يقول باللاتينية : بين يديك يا إلهى . سلمت روحى !

إنها أكبر وأشهر وأعجب غلطة فى التاريخ كله : لقد ذهب ليبحث عن الهند والصين فاصطدم بأمريكا ، ومات دون أن يعرف ذلك !

نبورة تقول
تكتشف أرضا جديدة
لا يلمسها أولادك!

عندما اقتربت السفينة من الشاطئ ، ركع سكان جزيرة هاواى ثم سجدوا وبعد ذلك تمرغوا على الرمل الناعم . وانتهز شيخ الجزيرة فذبح ثلاثة من الشبان والشابات .. وألقى بأجسادهم فى المـاء .. واشتعلت النيران . وتعالى الدخان والطبول .. واقترب شيخ الجزيرة من السفينة وقد أخفى جسمه كله فى المـاء ..

أما يداه فقد رفعهما إلى أعلى .. أما رأسه المصبوغ بالأبيض فقد غمره فى المـاء .. ويرفعه بين لحظة وأخرى ليقول : آو .. هو .. هو .. ى — ومعناها الإله الأعظم !

فأهل جزيرة هاواى قد رأوا سفينة ، فظنوا أنها الجزيرة العائمة التى تحدثت عنها الأساطير .. ورأوا أشرعتها البيضاء والأسطورة تقول أن الجزيرة سوف تكون أشجارها بيضاء .. ولمـا رأوا قبطانها الأوروبى الأشقر أيقنوا أن هذا هو الإله !

ونزل الأوروبيون من السفينة ..

ولم تمض لحظات حتى كان القبطان قد أتى بواحد من الأوروبيين ونزع ملابسه . وراح يضربه على ظهره أمام هؤلاء الملونين . فأصابهم الرعب ..

ومضت بعد ذلك أيام هانئة سعيدة .. فالجزيرة هادئة جميلة .. أرضها حمراء اللون وأشجارها خضراء زرقاء وأمواج المحيط الهـادى ميتة .. كل شئ قد خلق ليكون متعة للعين .. ولكن هذا القبطان لا يريد أن يهدأ إنه يمسك قلما وورقة ويرسم .. فهو أبرع من رسم الخرائط البحرية ..

وعندما علم أن ثلاثة من رجاله اعتدوا على بنات هاواى راح يضربهم حتى سالت دماؤهم . وقد فعل ذلك من قبل — وكانت غلطة فقد أدرك الملونون أن هؤلاء البيض لهم دماء .. وأن الضرب يوجعهم . فهم يتوجعون ويبكون ككل الناس ..

وعندما حاول واحد من أهل هاواى أن يطلق سهمه على واحد من البيض قتله القبطان .. ولم يعرف القبطان أنه قتل ابن شيخ القبيلة الوحيد .. وهنا تقدم شيخ القبيلة وقتل القبطان .. وكان ذلك يوم ١١ فبراير سنة ١٧٧٩ . ولم يعرف أهل هاواى من هذا الرجل الذى قتلوه إنه أعظم مكتشف فى كل العصور إنه استطاع فى سنوات قليلة أن يصحح أخطاء جغرافية قديمة .. إنه أول مستكشف اعتمد على العلم والملاحظة فى أعظم وأطول رحلات قام بها إنسان فى التاريخ .. إنه البحار والمكتشف الإنجليزى جيمس كوك . (١٧٢٨ — ١٧٧٩) .. ولم يعرفوا أن هذه الأوراق لم تكن سوى مذكرات وأن هذه الأنبوبة التى خطفوها لم تكن سوى تلسكوب رأى به جزيرتهم لأول مرة ، ورأى به جزرا أخرى لم يعرفها رجل أبيض من قبل .. وارتاد به أيضا هذه القارة الخامسة فى جنوب الدنيا !

(تجربة شخصية : عندما كنت فى جزر هاواى اشتركت فى لعبة معروفة يسمونها لعبة القبطان . يقف فيها القبطان — أنا أو غيرى — ويلتف حوله عدد من الفتيات يرقصن ويقلن كلاما غير معروف .. ثم يدرن حول القبطان بعد أن يقدمن له الموز وجوز الهند والأناناس وشرابا غريبا .. ثم ينتظرن بضع لحظات .. حتى يترنح ، ويلقين به فى الماء — حدث لى هذا كله فيما عدا الإلقاء فى الماء فأنا لا أعرف السباحة — وهذه اللعبة هى تطوير لما حدث لجيمس كوك قبل ذلك بمائتى سنة !)

ولم يعرف البحر رجلا نصفه إنسان ونصفه الآخر حوت مثل هذا الرجل كوك ، فهو فلاح ابن فلاح — انتقل من العمل فى الحقول إلى العمل

فى دكان بقال . وبعد ذلك انتقل إلى السفن . ومنذ عرف السفن لم يخرج منها . بل إنه كان يهرب من السرير لينام فى الزوارق . وانتشرت شائعة تقول إن أحد الزوارق به عفريت . وقرر أصحاب الزوارق أن يحرقوه فى الليل . وفى إحدى الليالى بدأوا يلقون عليه بالمشاعل . وفوجئ الناس بأن طفلا يهرب منه . وانطلقوا وراءه وكان جيمس كوك . فقد حاول أن يقنع الناس بأن الزورق « مسكون » لعلهم يتركونه ويسافر به إلى الجنوب .. ولما سألوه : وأين هذا الجنوب ؟ كان يقول : إلى الأراضى الجنوبية – ومعناها استراليا !

حاول أبوه أن يجعل منه شيئا ولكن الإبن مصر على شئ فى رأسه . انه يؤكد لوالده : إننى مختلف عن أخوتى التسعة فلا تحاول معى شيئا . اتركنى !

ذهب كوك إلى أحد رجال الدين يسأله : ما الذى ينقصنى .. إننى قرأت كل كتب الجغرافيا التى وجدتها .. قرأت كل الرحلات القديمة .. درست الرياضة .. أعرف اين موقع أى مكان فى العالم .. وأستطيع أن أقول ما هو خط العرض وخط الطول .. ما الذى ينقصنى ؟

سأله رجل الدين : كم عمرك يا ولدى .

فأجاب : أكثر من عشرين سنة الآن – وكان فى السابعة عشرة من عمره !

وقال له رجل الدين – وكانت نبوءة – : لا شئ ينقصك : عشرون سنة أخرى !

وبعد عشرين سنة تماما وفى يوم ٢٦ أغسطس سنة ١٧٦٨ كلفت الجمعية الملكية هذا الرجل كوك بأن يذهب إلى نصف الكرة الجنوبى فى مهمة فلكية . فقد تأكدت الجمعية الملكية أن هذا الرجل هو الرجل المناسب .. فهو بحار ممتاز سافر إلى جزر بعيدة. واشترك فى معارك بحرية. وفى غاية الدقة. وشخصية. وعلى دراية عميقة بالفلك ورسم الخرائط البحرية . وله خرائط دقيقة قد رسمها لشواطئ أمريكا الشمالية ..

ويقول كوك فى مذكراته : « وكان اليوم الموعود .. أما السفينة فاخترت لها اسم « الأمل » وحمولتها ٣٧٠ طنا . وعلى ظهرها ٩٤ شخصا من العلماء والبحارة والأفندية — أو السادة الأكابر — ومعهم الخدم .. وعلى السفينة طعام يكفينا لمدة سنة ونصف سنة ومعنا مدافع ثابتة ومدافع متحركة . أما العلماء فهم أناس مشغولون بالفلك . وآخرون مشغولون بالنبات . وفى ذلك اليوم تفاءلت فقد قفزت على رأسى قطة سوداء .. تمنيت أن آخذها معى .. لولا أننى خشيت أن تموت منى فأتشاءم .. ,..

وكان من مهام كوك أن يرصد كوكب الزهرة يوم ٣ يونيو سنة ١٧٦٩ من جزر تهايتى . فى ذلك اليوم سيدخل هذا الكوكب فى مدار قريب من الشمس والمطلوب رصد هذه الظاهرة لمعرفة المسافة بين الأرض والشمس بالضبط .. وبعد ذلك عليه مهمة أخرى . إنها ذلك الحلم العجيب الذى كان يهزه بالليل فيصرخ كأنه مجنون .. وكان يريد أن يتحقق بعينيه إن كانت هناك أرض جنوبية متصلة بالقطب الجنوبى .. أو هل صحيح أن قارة استراليا — ومعناها الأرض الجنوبية متصلة بالقطب الجنوبى كما قال كثير من البحارة والمكتشفين والأساطير القديمة .

ومن المعروف فى ذلك الوقت أن يصاب البحارة بمرض الاسقربوط دون أن يعرفوا السبب الذى نعرفه الآن وهو نقص فيتامين ج ولكن كوك استطاع — بذكائه وتجربته أن يتجنب الإصابة بهذا المرض عن طريق وجبات الطعام المتكاملة والتعرض لأشعة الشمس .

لم يحدث شئ غير عـادى فى الرحلة من انجلترا إلى البرازيل .. ولا حول أمريكا الجنوبية .. ولا فى المحيط الهـادى إلى أن رست السفينة عند شواطئ جزر تهايتى .. فقد اعتاد سكانها الأصليون أن يروا الرجل الأبيض .. واعتادوا على مقايضة الخرز والطعام .. وعلى أن يقدموا الطيور والخنازير مقابل المسامير التى يحتاجون إليها فى صناعة الزوارق .. وفى هذه الجزيرة سرق

أهل تهايتى بعض الأوروبيين .. واضطر كوك أن يقبض على عدد من أهل الجزيرة حتى يعيدوا المسروقات . وأعادوها . وعندما هرب اثنان من بحارته . ألقى القبض على بعض الملونين . وعلى الرغم من أنهم اعترفوا بأنهم أبرياء ، فقد وعدوا بالمحاولة .. وأعادوا الهـــاربين .. وكان لابد من أن يضربهما كوك أمام الجميع .. وعندما شكا أحد سكان الجزيرة من أن طباخ السفينة قد هدد زوجته بأن يقطع رقبتها ذهب يشكو إلى كوك . ودعاه هو وزوجته لرؤية الطباخ عاريا صارخا تحت ضربات كوك القاسية – كان قاسيا على غيره وعلى نفسه وكان حازما أيضا !

وأقام كوك مرصدا فلكيا وذهب إليه العلماء . وفى يوم ٣ و ٤ يونيو ارتفعت العدسات إلى السماء تسجل مسار الزهرة . ولكن النتائج كانت هزيلة . ويمكن أن يقال أن الغرض الأساسى من هذه الرحلة فشل . فلم يكن من السهل رصد هذا الكوكب .. لأن طبيعته مختلفة عن الكواكب الأخرى . ولم تكن صورته واضحة تماما ..

واتجه العلماء الآخرون إلى البحر يجمعون العينات الغريبة من الأحياء المائية . ويضعونها فى زجاجات . وكوك يقول فى مذكراته : إننى لا أعرف الفشل ولا يمكن أن تكون هذه الأحلام الواضحة جدا التى أراها فى نومى ، وهما أو هلوسة .. إننى أرى بوضوح أرضا جديدة لم يرها أحد من قبل .. وإننى أرى الرجل الذى سوف يعثر عليها .. أنا وحدى !

ولذلك اتجه كوك إلى المهمة الأخرى من رحلته ..

اتجه بالسفينة إلى الجنوب .. ثم إلى الغرب .. أقصى الجنوب .. وأقصى الغرب .. وسارعت الزوارق الصغيرة التى امتلأت بأهل الجزيرة تطارده . وتريد أن تتابعه . وأن تلحق به . وأن تسافر معه . بعضهم كان يبكى . ولكن كوك تأثر لمنظر رجل وابنه .. فقد حمل الأب ابنه على كتفه ووقف فى أحد الزوارق يشير إليه .. الأب فى الأربعين والإبن فى العشرين . وتوقف كوك

وامتدت الأيدى لمساعدة هذا الأب . واسمه : طوبيا . وركب معه . وكان دليله فى التفاهم مع سكان الجزر الكثيرة الصغيرة التى رآها بعد ذلك ..

وفى أحد الليالى أحس كوك بضوضاء فى مكان مامن السفينة . واتجه إلى مصدر الصوت فوجد أن أحد العلماء قد أصيب بنوبة صرع . وراح يلقى بالأدوات العلمية فى الماء فمنعه بالقوة .. قائلا : هذه الأجهزة لم تعد ملكا لك .. إنها الآن لنا جميعا !

وقال العالم : أنا حر ..

وقال كوك : أنت حر فى أن تلقى بنفسك فى الماء فقط !

وألقى الرجل بنفسه فى الماء .. وتركه حتى غرق . ومضت السفينة فى طريقها !

وفى أكتوبر سنة ١٧٦٩ رأى أرضا . إنه يعرفها . هذه الأرض قد عرفها الهولنديون قبل ذلك بمائة سنة .. إنها التى تسمى الآن نيوزيلندا .. ولابد أن يتجه كوك إلى جهة أخرى .. إنه يريد أن يعرف أين هذه الأرض الجنوبية .. أين استراليا .. وكان الجو عاصفا . والموج عاليا . ولكن كوك على ظهر السفينة لا يهتز .. وإنما هو مثل سارية السفينة. مشدود. مصلوب عنيد. وبعد أربعة أيام ظهرت أرض . إنها هذه الأرض . اقتربت السفينة . نزل منها . وصرخ : إذن كل ما قيل لنا وهم !

ويقول فى مذكراته : صعدت الصخور . كل ما أتوقعه هو أن أجد أرضا ممتدة بغير نهاية . ولكن وجدت البحر من الناحيتين .. إذن هى جزيرة كبيرة . ولكن لابد من دليل آخر !

أما الدليل الآخر فهو أن يدور حول هذه الأرض .. ليعرف إن كانت جزيرة كبرى أو قطعة أرض متصلة بالقطب الجنوبى . ولكنه قبل أن يدور حولها لم ينس أن يضع علم بلاده عليها معلنا ملكيتها للتاج البريطانى .

وقطع أكثر من ألفى ميل حولها . وأخيرا تبددت الأسطورة القديمة أن هذه الأرض الجنوبية لا نهاية لها إلا فى الجليد .. إنها إذن قارة خامسة هذه حقيقة مؤكدة !

ولم ينس كوك أن يرسم شواطئ القارة الجديدة بدقة وبراعة فائقة .. أما علماء النبات والحيوان فقد أصيبوا بالجنون . فهم أمام فردوس النباتات وجنة الحيوانات .. كل شئ جديد تماما : ومختلف عن نباتات وحيوانات أمريكا وأوروبا . وأعجب ما رأوا حيران الكانجرو — كما يسميه سكان استراليا الأصليون — إنه فى طول الإنسان . له رأس غزالة .. وله ذيل ويجلس على رجليه الخلفيتين — كالطيور — يقفز كالضفدعة . ويقول كوك إنه اضطر أن يقتل واحدا ليدرسه .. وعلى الرغم من أن كوك قوى الملاحظة فإنه لم يدرك أن هذا الحيوان يخفى صغاره فى كيس فى بطنه . وأن هذا الحيوان الضخم عندما يضع صغاره يكون الواحد منها فى طول هذا السطر فقط ! ولم يعرف كوك طبعا أن هناك ٣٨ نوعا من الكانجرو و ١٢٨ فصيلة !

والسكان الأصليون سود فى غاية الهدوء . وأقل شراسة من سكان نيوزيلندا .. ومن الغريب أن الخرز والألوان الزاهية لا تبهرهم.وإنما فقط يريدون الطعام وبلغ من ذكاء كوك أن أدرك شيئا عجيبا . فقد لاحظ أنهم يمشون فى خطوط مستقيمة . وهى ملاحظة عبقرية . فقد سمعت أنا أيضا فى مدينة داروِن بشمال استراليا . أن سر تأخر هؤلاء السكان الأصليون أنهم لم يصنعوا حضارة واحدة .. انهم بالفعل يمشون فى خطوط مستقيمة حتى يموتوا من الشمس ومن الجوع ولذلك تحرص الدولة على إطعامهم وإيوائهم .. ولم تفلح فى تطويرهم . وأكثرهم تطورا يعملون فى كنس مطار مدينة داروِن ! وهذه الظاهرة لم يهتد أحد من العلماء إلى تفسيرها !

وأمام إصرار البحارة والسادة الذين معه قرر العودة إلى انجلترا . واستقبله

الشعب الإنجليزى كما لم يستقبل بطلا من قبل . وقرر العودة مرة ثانية ليتأكد بنفسه من القارة الجنوبية ..

وقطع أكثر من ٧٥ ألف ميل ليتأكد أنه لا توجد أيه قارة جنوبية . وأعاد كوك رسم الخرائط البحرية . وانهالت عليه النياشين والميداليات الذهبية .. وأصبح أعظم بحار عرفته البحار !

ويقال أن كوك ليس أول من اكتشف استراليا . فقد أعلن ماركو بولو من قبل أن الصينيين تحدثوا كثيرا عن أرض فى الجنوب .. ولكن هناك جزرا كثيرة فى الجنوب . ويقال إن الهولنديين وصلوا إلى هذه الأرض .. ويقال الفرنسيون .. ولكن من المؤكد أن كوك هو أول من اكتشفها ودار حولها . وقطع نهائيا بأنها قارة جديدة .. أو جزيرة كبرى ! وأنه لاتوجد أرض متصلة مباشرة بالقطب الجنوبى !

أما الرحلة الثالثة فقد اكتشف فيها جزر هاواى . وقد أطلق عليها جزر ساندويتش . وساندويتش هو رجل قد تكفل بالإنفاق على رحلته هذه .

ولم يهدأ كوك فقد أراد أن يعرف ما إذا كان هناك طريق فى شمال أمريكا يمر بالمناطق الجليدية يربط بين المحيط الهادى والمحيط الأطلسى . ومنعه الجليد من التحقق من ذلك .. فعاد إلى جزر هاواى . وهناك قتل . وعاد رجاله إلى أوروبا ..

وعندما كلفته الجمعية الملكية بالدوران حول الأرض لأول مرة قال له أحد الأعضاء : « أنت تعرف أكثر من غيرك .. أن الذين يسألون هم الذين يعرفون .. وأن الذين يتطلعون هم الذين يكتشفون .. وأن الشجعان هم الذين اهتدوا إلى الشواطئ الأخرى .. ولو لم ينتقل آدم من الجنة إلى الأرض ما كانت هذه الحضارة . وأنت يجب أن تعطى المثل الأعلى على فائدة العلم فى البحث عن المجهول . والله يباركك ويبارك لك ! » ..

وكان يعلم أن هذا بالضبط هو ما يدور فى خياله .. وقد شغله ذلك عن الدنيا كلها . لقد روى كوك فى إحدى رحلاته لجماعة من البحارة وهو فى وسط المحيط الهادى : لقد كنت أفكر فى أن أتزوج عند عودتى إلى انجلترا .. ولكن المضحك إننى متزوج بالفعل . وكنت نسيت ذلك !

لقد تزوج كوك سنة ١٧٦٢ وعاشت زوجته بعد وفاته خمسين عاما . وأنجبت له ستة من الأولاد . ثلاثة ماتوا وهم أطفال .. والثلاثة الآخرون ماتوا فى يوم واحد فى سنة ١٧٩١ . ولأسباب غير معروفة !

وكانت وفاة أبنائه تصديقا لنبوءة قيلت له .

يقول فى مذكراته : قال لى أحد العرافين : « ستضع رجلك على أرض لم يلمسها أحد من قبلك .. ولن يلمسها أحد من أولادك أو أحفادك ! »

وبعدها أُقسم
ألا ينام على سريره!

يسمونه : السيد المحترم — بناء على طلبه ! .

ولكن من الناحية القانونية يجب أن يقولوا له : يا سيادة اللورد .

واختلف الناس فى أمره : هل هو مجنون ؟ . هل هو مجنون أحيانا ، أكو هو عبقرى ! ..

مثلا : إذا انفتح الشباك فجأة وكانت رياح الشتاء تدفع الثلج إلى داخل البيت . فما الذى يفعله أى إنسان عاقل ؟ الجواب : أن يقفل النافذة بسرعة ، وقبل أن يقفل النافذة يغطى صدره ، وأن يضع على وجهه وكتفيه مزيدا من الملابس الثقيلة .. أو يهرب إلى غرفة أخرى .. أو ينادى لبعض الخدم ليقفلوا له النافذة .. كل هذا ممكن ، ويبدو معقولا ..

ولكن « السيد المحترم » يفعل شيئا آخر . أنه يخرج إلى الشارع ، وينظر إلى أعلى إحدى الكنائس ويقول : مضبوط .. فعلا .. إتجاه الريح من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى .. وسرعتها حوالى ثلاثين ميلا .. ودرجة الحرارة تحت الصفر بأربع درجات ! . .

هذا السيد المحترم اسمه تشارلز واترتون .. من أسرة إنجليزية عريقة أجداده قد جاءت أسماؤهم فى مسرحية « ريتشارد الثانى » للشاعر الكبير شكسبير وهذا شرف عظيم ، وإن كان السيد المحترم لا يرى ذلك ، فقد جاءت فى مسرحيات شيكسبير أسماء لصوص ومجانين أيضا !

ولكن كل من يعرف هذا الرجل الذى ولد سنة ١٧٨٢ يقول أنه على درجة غير عادية من الذكاء ، ودرجة جنونية من الشجاعة ، ولـكن من

المستحيل أن يكون مجرما ، إنه فقط يريد أن يعرف ، ولا خوف عليه . إنه ينزل الماء فى الظلام ليرى إن كانت هناك عفاريت حقا ، ويدخل البيوت المهجورة ويتمدد فى أحد الأركان .. ثم يخرج ليقول لأهله : ولكن لم أجد أرواحا شريرة ! ويسألونه : أين ؟ ويكون جوابه : فى البيت المهجور ..

ويغمى على الأب والأم معا !

ولأسباب غير واضحة رفضت الأسرة أن تتحول من الديانة الكاثوليكية إلى الديانة البروتستانتية ، وهذه مخاطرة لأن الذى يرفض هذا التحول الكبير يدفع ضرائب مضاعفة ، ويدفع تعويضا عن عدم ذهابه إلى الكنيسة .. ثم أنه ممنوع من دخول الجامعة ، وممنوع من دخول البرلمان .. ولا يكون قاضيا ولذلك قرر الأب أن يبعث بابنه إلى أمريكا .. هناك بعيدا فى مستعمرة غيانا البريطانية ، فقد كانت للأب مزارع للبن وقصب السكر والقطن وبها ألف من العبيد ..

ويقول السيد المحترم فى كتابه الذى عنوانه « جولات فى كل مكان » إننى أفضل أن أدخل النار مع قديس كاثوليكى على أن أدخل الجنة مع جلالة الملك البروتستانتى !

وقبل أن يسافر السيد المحترم إلى أمريكا قالت له أمه : طبعا أنت لست فى حاجة إلى نصيحة . فقال : بل فى حاجة إلى رضاك أكثر . قالت الأم : حاول أن تكون نافعا ولا تنس أن كل الناس خلقهم الله .. اللون لا يهم !

وقد كان السيد المحترم عند حسن ظن الأم . فقد كان محبا لهؤلاء الهنود الحمر .. ولهؤلاء السود . وفى كتابه يقول « إنى أستطيع أن أنام عاريا تماما ، وأنا آمن على نفسى .. لن يقترب منى أحد .. فكل الناس هنا يعرفون أننى صديق الجميع » وأننى فى صلواتى تمنيت كثيرا أن أكون أسود .. فهذا اللون الأبيض يجعلنى أخجل من نفسى كثيرا ، مع أننى لست مسئولا عنه ..

إنه يجعلنى أحس بأننى كاذب .. فإذا قلت لفتاة سوداء إننى أحبك . فإنها تبالغ فى قيمة هذه العبارة وفى نفس الوقت لا تصدقنى .. وهذا يعذبنى كثيرا .. والله وحده يعلم أننى حزنت على فتاة سمراء تمنيت أن أتزوجها ، ولكن الثعابين سبقتنى إليها .. إننى أطلب من الله أن يعطينى العمر لكى أعلم كل هذه الثعابين أن تندم على أنها قتلت الإنسانة الوحيدة التى أحببتها ! » .

ولم يحاول السيد المحترم أن يكون أوروبيا وسط السود أو الملونين ، وإنما قرر أن يكون مثلهم .. سار عارى الصدر حافى القدمين ، واقتحم الغابات على حدود غيانا ، أى على حدود البرازيل . وهى مناطق موبوءة بالملاريا ، وكان من عادته أن يتسلل إلى الغابات أثناء هطول الأمطار .. وكان الرجال وراءه يحملون الزوارق الصغيرة والحبال . وكان من الصعب عليه أن يغرق بين الأنهار والمستنقعات .

وكانت له عادة غريبة .. فإذا علم أن الحاكم البريطانى قد سجن بعض الهنود فإنه يتسلل فى الليل إلى السجن ويطلق سراحهم .. بل إن أحد المجرمين قد شجعه على الهرب .. وعندما أعلن الحاكم البريطانى عن مكافأة مالية لمن يعثر على أحد المجرمين حيا أو ميتا ، ذهب السيد المحترم يطالب بنصيبه من المكافأة ..

ولما قال له الحاكم البريطانى : أين هو ؟ ..

قال : فى بيتى ..

وسأله : لماذا لم تأت به ؟

أجاب : بل أريدك أن تذهب لتراه .. وتتأكد بنفسك ، قبل أن أشجعه على الهرب ! ..

وكان الحاكم البريطانى هو الآخر مجنونا ، فما كان منه إلا أن قال :

أيها السيد المحترم إننى معجب بك .. فلنشرب فى صحة إحتقارنا للقانون الإنجليزى ! ..

وذهب الإثنان ، وركب الحاكم البريطانى على حصان .. والمجرم على حصان آخر . وساعد المجرم على أن يركب أحد الزوارق . هربا من الحكم البريطانى – أى شجعه على أن يهرب منه !!! ..

أما السيد المحترم فيريد أن يخترق غابات البرازيل ليجمع عينات نادرة من الطيور ، ولذلك حمل معه عددا كبيرا من الشباك والأقفاص ، وكان يتسلق الأشجار عند الفجر أو عند الغروب ، وقد اختاره الهنود الحمر إلها لأنه كان أبرع منهم فى تسلق الأشجار .

وليست الطيور فقط هى التى دفعته إلى القيام برحلاته المجنونة عريا حافيا وإنما كان يبحث عن سم نباتى اسمه : كورارا ، هذا السم كان يستخدمه الهنود الحمر فى السهام والنبال ، فهم يصنعون هذا السم فى مقدمة السهام والنبال ، فإذا أطلقوا هذه الأسلحة على أعدائهم قتلتهم .. ولم يعرف السيد المحترم أن هذه المادة التى كان يبحث عنها قد أصبحت بعد ذلك من أهم عناصر التخدير فى الطب ، فلا غنى عنها فى كل العمليات الجراحية ، ولا فى العلاج الكيميائى للمصابين بالهبوط النفسى وانفصام الشخصية وأهم أعراض الإصابة بهذا السم : الشلل الحركى .. والتراخى فى العضلات .. والحيوان الذى يصاب بهذا السم النباتى ، لا يكون ساما !

وكان مما يشغل السيد المحترم أيضا أن يبحث عن « ترياق » أو عن شفاء لهذا السم ، وكان يعتقد أن هؤلاء البدائيين هم وحدهم الذين يملكون سر هذا السحر ! .

وما يزال عاريا حافيا ، وفى الليل ينام على سرير معلق بين الأشجار .. ويجعل فوقه ملاءة حمراء .. لوقايته من ماء المطر ، وفى الصباح يقفز كالقرد ويصرخ فينهض الزنوج ويبدأ يومه الجديد حافيا عاريا ..

وأسوأ ما فى هذا السيد المحترم أنه كان يتولى علاج نفسه بنفسه ، إذا أصابه الصداع ابتلع بعض الأعشاب المائية . أو وضع أصبعه فى فمه وأفرغ ما فى جوفه ، وإذا أصابته الحمى ، أتى بسكين وأسال دمه من يده ... منتهى القسوة على نفسه !

وبعد أن جمع عينات كثيرة من الطيور ، وأطلق عليها ما يشاء من الأسماء ، ووصفها بأسلوبه الأدبيا لجميل ، قرر أن يبدأ الرحلة المجنونة وفى نفس اللحظة التى اتخذ فيها هذا القرار التاريخى كان نابليون فى أوروبا قد قرر غزو روسيا فى أبريل سنة ١٨١٢ .. أما السيد المحترم فقد خرج من مدينة « جورج تاون » واتجه إلى أعماق الغابات العذراء التى لم تعرف رجلا أبيض بعد ، والسيد المحترم يصف هذه الغابات بألوانها وعطورها وأصواتها وصمتها فى لوحات شاعرية فاتنة فهو يسجل على الورق صيحات وبكاء وعويلا وهمسات وزغاريد وفحيحا ، وقطرات الماء وانهيارات المطر ، وأنين الطيور ، ونقيق الضفادع .. وصوت حيوانات تلد ، وحيوانات تتنفس لآخر مرة .. انه الموت والحياة ، الرعب والغموض وملايين علامات الإستفهام بعدد الأشجار ، وإصرار إنسانى على أن يعرف مهما كان الثمن .

وفى الغابة اشترى من الهنود الحمر هذا السم .. وكان يضعه فى كرات من الشمع ، ولكى يتأكد من مفعول هذا السم ، اشترى كلبا ، وأصابه بسهم مسموم .. فسقط الكلب بعد لحظات على الأرض .. يعوى .. ثم ينام على جانب واحد .. ويضع رأسه بين رجليه .. ثم يستسلم بلا حركة ! . .

ولم يكن الحصول على هذا السم سهلا ..

فالهنود ينظرون إلى السم على أنه أحد الطلاسم ، ولابد من إقامة الصلوات والدعوات والرقص والطبل أثناء تحضير هذا السم ، والساحر الذى يتولى تحضير السم يجب ألا يقرب إمرأة . ولا يأكل فى نفس اليوم ولا يكلمه أحد ، والإناء الذى يصنع فيه السم لا يستخدم بعد ذلك ..

وهذا السم يستحضرونه من نبات اسمه « ستريكتوس توكسفيرا » ويضيفون إليه الفلفل الهندى وأنياب الثعابين ويسحقونها معا ، ثم يضعونها فى ماء يغلى ولا يزال الماء يغلى ويتبخر حتى تتبقى فى الإناء مادة كالعجينة .. والسيد المحترم لا يعرف كم أدى من خدمات جليلة إلى صناعة العقاقير عندما وصف استحضار هذه المادة السامة .. فقد استخدمتها أوروبا بعد ذلك وبنفس الطريقة ! .

ومن ملاحظات السيد المحترم أن بعض الذين يشتغلون بتحضير السموم يمرضون .. ويصابون بالنحافة حتى الموت ! ولذلك فالذى يقوم بتحضير السم رجل كبير فى السن ، حتى إذا مات لم يكن خسارة كبيرة على القبيلة ! فإذا لم يكن فى القبيلة رجل كبير فى السن جاءوا برجل مريض ، وإذا لم يكن هناك رجل مريض هاجموا القبائل المعادية وأسروا واحدا وحكموا عليه أن يتولى إعداد السموم حتى الموت !

وعندما وصل السيد المحترم إلى حدود البرازيل ، قرر أن يدخلها نهارا وهنا استوقفه رجال الحدود وكانت التعليمات تمنع دخول الغرباء ولكن التعليمات لا تقول إن كانوا يمنعون الغرباء إذا كانوا مرضى ، وإذا كانوا من الإنجليز .. وكان السيد المحترم مريضا . ومرضه هو الملاريا لثالث مرة . وفى هذه المرة عالجه رجال الحدود وهم من البرتغاليين وكان العلاج مختلفا حديثا ، وشفى السيد المحترم وقرر العودة إلى المستعمرة البريطانية .

وفى طريق العودة رأى شيئا غريبا .. عصفورا صغيرا يعلو فوق الأشجار الصغيرة ، ثم يختفى تحت أوراقها .. ثم يبرز مرة أخرى .. وألقى عليه شبكة .. وفوجئ بأن هذا الشئ الصغير ليس إلا رأس ثعبان اسمه البرجرس ..

وكانت للسيد المحترم طريقة عجيبة فى صيد الثعابين .. انه يقترب منها .. وبسرعة ينقض على عنقها .. أى تحت رأسها بقليل ثم يمسكها .. ويرفعها إلى أعلى ويضعها فى صندوق .. وقد جمع عددا كبيرا منها ونقلها إلى بريطانيا . أما الثعابين الكبيرة فإنه يلقى بيده ورجله عليها فى وقت واحد .. (وفى هذه

اللحظة أحسست شيئا ناعما عند قدمى.. فقفزت.. ولم تكن سوى القطه الصغيرة) وفى إحدى المرات رأى ثعبانا من فصيلة البواء طوله ستة أمتار .. وأمسكه من عنقه والتف حوله الثعبان يحاول أن يعتصره .. ولكنه لم يستطع .. وسارع الرجال من حوله وأطاحوا برأس الثعبان !

ويقال أن أنثى الثعبان المسمى أناكوندا إذا قتل زوجها ، فإنها تظل تبحث عن القاتل حتى تنتقم منه .. ولم يصدق السيد المحترم ذلك . وفى إحدى الليالى بعد أن قتل ذكر أناكوندا ، أصيب رجاله بفزع ، فهم يعرفون ما سوف يحدث .. ومضت ليلة .. وعشر ليال ولم يحدث شئ ولكن الرعب ما يزال يسيطر على الرجال .. وبعد أسبوعين اعترف له أحد الرجال بأنه ما يزال يتوقع أنثى الأناكوندا بين لحظة وأخرى .. وليس أمامهم إلا أن يتجهوا إلى البحر ليركبوا الزوارق ، لأن هذه الحية لا تستطيع أن تسبح فى ماء المحيط .. وشعر السيد المحترم بالخوف ، منذ رأى إيمان الرجال بذلك وخوفهم الواضح .. ولكنه فكر فى حيلة .. فقد خلع ملابسه وألقى بها أثناء الليل على واحد من رجاله، ونام عاريا تماما على سريره المعلق .. وظل ساهرا طول الليل .. وعند الفجر أغفى قليلا ليقفز من سريره على صراخ أحد الرجال .. لقد هجمت عليه أنثى الأناكوندا وعضته فى ساقه .. وظلت واقفة إلى جواره .. وما هى إلا لحظات حتى مات الرجل .

ان هذه الحية قد سارت وراءهم أكثر من عشرين يوما .. ولم تحاول أن تهرب بعد أن تأكدت من وفاته ، وإنما ظلت واقفة على بطنها حتى قتلوها كأنما أرادت أن تموت بعد أن انتقمت ، وبسهولة ماتت .. ولاحظوا أن هذه الحية بها جروح كثيرة وأنها فقدت عينيها ! !

وعندما عاد السيد المحترم إلى أوروبا ، جعل طريقه إلى إيطاليا ، وفى روما وجدهم يركبون واجهة كنيسة القديس بطرس ، وأصيب الناس بذعر عندما وجدوه يخلع معظم ملابسه .. وحذاءه وجوربه .. ويتسلق واجهة

الكنيسة .. ثم يضع قبعته على علامة اتجاه الريح .. واندهش الناس . وقالوا : مخمور ، وصرخ فيهم : لم أذق الخمر فى حياتى . قالوا : انزل ..

وبسرعة نزل . وقالوا : ليس من الأدب أن تضع قبعتك .. اصعد !

وصعد فوق الكنيسة كأنه قرد أو ثعبان . وأتى بالقبعة وارتدى ملابسه وتساءل الناس من يكون .. وفى الزحام اختفى . واتجه إلى الشاطئ وعاد إلى بريطانيا ..

وفجأة اتخذ قرارا : أن يتزوج . وكان فى الأربعين من عمره ، تزوج فتاة فى السابعة عشرة ، وعندما أنجبت له طفله الوحيد ماتت .. وعاش بعدها ٤٣ عاما ..

وعند وفاة زوجته وقف إلى جوارها يقول : أعدك .. لا زواج بعدك .. ولانوم على السرير !

وظل ينام على الأرض ، ويضع رأسه على جذع شجرة مجوفة ، ويتغطى ببالطو زوجته . أما حياته فكانت نوعا عجيبا من الزهد : فهو يأكل النباتات والثمار ولا يذوق الخمر أو اللحوم ولا يدخن ولا يذهب إلى الكنيسة .

وقبل وفاته بأيام قال لخادمه : المكان الذى تجدنى فيه ميتا أرجو أن أدفن فيه !

وذهب السيد المحترم يتمشى على شاطئ إحدى البحيرات التى تقع فى أرضه الواسعة ، وفجأة رأى عصفوراً غريبا لم يره من قبل ، وتسلق إحدى الأشجار . وكان قد اقترب من الثالثة والثمانين من عمره .. وسقط من فوق الشجرة .. وتدحرج تحتها .. حتى وصل إلى شاطئ البحيرة .. وهناك أقيم قبره ، وتنفيذاً لوصيته نقشوا هذه العبارة :

« عشت وحيداً ، ومت أكثر وحدة ! »

الأفندية الأربعون
والشيخ في باريس!

أستطيع أن أعرف بالضبط هذا الذهول الذى أصاب الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى عندما انتقل من الصعيد إلى باريس . ومن فضل الله عليه أنه رأى الإسكندرية . فقد قيل له أن الإسكندرية تشبه أوروبا : وفيها خواجات وأناس يتكلمون لغات أخرى غير العربية ..

فأنا أيضا انتقلت من المنصورة إلى باريس ولندن قبل أن أشاهد مدينة الإسكندرية .. ولكنى كنت أقل ذهولا من الشيخ الطهطاوى لأننى رأيت مدينة القاهرة وعشت فيها وأعرف عددا من اللغات ولكن الشيخ الطهطاوى أزهرى صعيدى شاءت الصدفة أن تجعله إماما لأربعين طالبا أرسلهم محمد على إلى باريس ، ولم يكن من المفروض أن يتعلم مثلهم ، إنه ذهب ليصلى بهم ويرشدهم إلى دينهم .

فعندما سمع محمد على أن سفينة حربية فرنسية قد رست فى ميناء الإسكندرية خطر له أن يبعث على ظهرها عدداً من الشبان النابهين فى العلم وكان ذلك سنة ١٨٢٦ وكان رفاعة الطهطاوى فى الخامسة والعشرين من عمره لم تنته دهشته ، ولم يتوقف عن التفكير والتأمل والمقارنة بين ما رأى وبين ما قرأ لاحظ أن الفرنسيين على السفينة فى غاية النظافة . فاندهش ، لقد قرأ أن النظافة من الإيمان . وهؤلاء ليسوا مؤمنين ! ولاحظ أنهم يغسلون السفينة مرات عديدة ، ولاحظ أنهم يغيرون ملابسهم الداخلية مرتين فى الأسبوع ، وفسر ذلك بأن هذه هى الطريقة الوحيدة للقضاء على « الواغش » .

وكتب رفاعة الطهطاوى رحلته إلى فرنسا التى استغرقت خمس سنوات فى

كتاب اسمه « تلخيص الأبريز فى تلخيص باريز » ، وفى الكتاب صفحات مسجوعة على طريقة الكتاب فى ذلك العصر ، ولكن فيه كثيراً من النور والذكاء والوطنية يقول الطهطاوى بعد أن خرجت سفينته من الإسكندرية إلى عرض البحر : عصفت الرياح وتموج ماء البحر وتلاعبت بذات الألواح تلاعب الأشباح بالأرواح ، فلازم أكثرنا الأرض ، وتوسلنا بالشفيع يوم العرض » .

ومضت سفينة حتى اقتربت من الشواطئ الإيطالية .. وكان ممنوعاً عليهم أن ينزلوا ، فهناك قيود الحجر الصحى ، ولذلك كانوا إذا أرادوا شراء شئ أودعوا الفلوس فى علب بها خل حتى لا تنتقل العدوى .

ومن السفينة رأى فتيات إيطاليات جميلات . وفى ذلك يقول :

أصبو إلى كل ذى جمال ... ولست من صبوتى أخاف
وليس لى من الهوى ارتياب ... وإنما شيمتى العفـــــاف

وله شعر آخر متواضع :

قد قلت لما بدا الكاس فى يده ... وجوهر الخمر فيها شبه خديه
حسبي نزاهة طرفى فى محاسنه ... ونشوتى من معانى سحر عينيه

وكتاب الشيخ رفاعه الطهطاوى ملئ بالملاحظات الدقيقة عن المرأة والرجل وملابس المرأة وعادتها وخلاعتها ، وإعجابه بها ، واحتقاره لتساهل الرجال مع المرأة ، ولكنه لم يغمض عينه عنها .

وقطعت السفينة هذه الرحلة من الإسكندرية إلى مرسيليا فى ٣٣ يوماً

وفى ميناء مرسيليا كان لابد من الحجر الصحى ، ودارت مناقشة على السفينة : هل الحجر الصحى حرام أم حلال ؟

قال بعضهم : حرام .. لأن معناه أن يتدخل الإنسان فى إرادة الله .. فإذا كان الله أراد أن يموتوا جميعا ، فلماذا يعطلون مشيئة الله .

ومن رأى الشيخ الطهطاوى أنه ليس حراما !

وفى مرسيليا تلقى الشيخ رفاعة الطهطاوى الحضارة الغربية دفعة واحدة فهو يروى أن البيوت لها جدران مغطاة بالورق ، وليست مبيضة بالجير . ورأى الناس لا يأكلون على الأرض ، وإنما يضعون أمامهم طبلية ـ أى تربيزة ـ عالية ويجلس كل واحد على مقعد .. وأعجب من ذلك أنهم يأتون بالطبيخ فى إناء واحد كبير وأمام كل واحد طبق .. وأعجب من هذا كله أن كل واحد له شوكة وملعقة وسكينة .. وكل واحد له كوب خاص يشرب فيه ولا يصح أن يشرب الإنسان من كوب غيره .. ولا يمسك شيئا بيده وينقله إلى فمه .. وإنما بالشوكة والملعقة !

ولا يضعون حلل النحاس المبيضة على الطبلية ، وإنما الحلل يطبخون فيها فقط ..

وأعجب من ذلك أنهم ينامون على شئ مرتفع .. سرير أو أى شئ آخر ولا ينامون على الأرض !

أما القهاوى « فهى ليست للحرافيش » وإنما هى « لأرباب الحشمة » أما الفقراء فيدخلون « المقاهى الصغيرة والمحاشيش » ..

ويلاحظ الشيخ رفاعة أن النساء يبعن فى الدكاكين ، أما الرجال فلهم أعمال أخرى أهم وأعنف « فالقهوجية إمرأة جالسة ، وقدامها دواة وريشة وتكتب وتقطع ورقة صغيرة فيها الثمن وتبعثها مع الجرسون . والعادة أن الإنسان إذا شرب القهوة أحضروا له السكر » .

وفى اليوم الذى قرر أن يدخل فيه المقهى أحس كأنه فى ميدان واسع جداً والناس يذهبون ويجيئون .. واكتشف بعد ذلك أن هذا الذى يراه ليس

ميداناً ، وإنما هى المرايا فى كل جوانب المقهى ، فالذى أدهش الشيخ أن المرايا الفرنسية تعكس صور الناس كما هى ، وليست كالمرايا فى مصر فهى تجعل الإنسان بكرش ، أو تجعله أعوج !

أما الميادين فى باريس فكثيرة ، وهى تشبه الميادين فى القاهرة فى الاتساع لا فى القذارة ! .

شئ آخر اندهش له الشيخ رفاعة عندما وجد أشجار النخيل ، فقد قرأ فى كتاب القزوينى المعروف باسم « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات»

إن النخلة شجرة مباركة عجيبة ، ومن عجائبها أنها لا تنبت إلا فى بلاد الإسلام ! ..

وكثير من الحقائق الثابتة بدأ الشيخ يشك فيها ، ويصحح معلوماته ويلفت الناس جميعا إلى أن يغيروا من أفكارهم وآرائهم ، ففى فرنسا علوم وفنون وفلسفة ، صحيح أن بعض الفرنسيين يرون أن المفكرين أعظم من الأنبياء والعياذ بالله — ولكن هذا لا يمنع أبداً أن عندهم مفكرين عظاماً من مثل : روسو ومونتسكيو . وغيرهما ..

وعندما ينظر إلى نهر السين . يجد أن نهر النيل أوسع ومياهه أعظم ويقول : « شتان بين هذا وبين النيل فمنطقة الروضة والمقياس أجمل ، ونزهة فى الروضة لا تقارن بشئ ! » .

والناس فى باريس يقرأون الصحف والمجلات والكتب ، كل الناس ، ويناقشون فى كثير من القضايا الفكرية والنساء أيضا ، وهم مجاملون بالأقوال لا بالأفعال ، وهم بخلاء .

وهم أقل غيرة على نسائهم من العرب .. فالرجل يترك زوجته ترقص مع رجل آخر ، بل أنه يعلم أن زوجته قد ذهبت إلى إحدى الحدائق ، وتعرفت

على رجل آخر ، ولا يغضب .. بل إن الأجازات السنوية تسافر فيها الزوجة مع رجل آخر .. والرجل المسافر مع امرأة أخرى .. وكثيرا ما سافرت المرأة بعيدا فى الريف بعض الوقت لأنها حامل ، وهناك تلد وتترك طفلها لأسرة أخرى تربيه .

ويذكر الشيخ رفاعة أن بعض ملوك فرنسا وانجلترا لهم زوجات فاسدات وعلى الرغم من أنهم على يقين من انحلال الزوجات ، فإن القضاء لم يحكم ضدهم لعدم توافر الأدلة ، فيظل الملك وزوجته منفصلين مدى الحياة !

فالمرأة الفرنسية لا تنقصها الثقافة ولكن تنقصها الأخلاق ، والمثل الفرنسى يقول : إذا رفضتك المرأة ، فليس ذلك دليلا على أخلاقها، وإنما على تجاربها .

والناس يعملون ليلا ونهارا ، الكل يعمل ، ولابد أن الفرنسيين يؤمنون بالمثل القائل : الليل والنهار يعملان فيك ، فاعمل فيهما !

ولكن الشيخ رفاعة لا يرفع عينيه عن المرأة الفرنسية ، ولا يشبع من النظر إلى ملابسها ووجهها ، فالمرأة الفرنسية عرت صدرها وسترت ساقيها ، والمرأة تضع عند صدرها عوداً من الحديد من الخصر إلى العنق ليشد قوامها ..

ومن الغريب أن الناس فى باريس لا يخبزون فى بيوتهم ، وإنما هناك مخابز .

والحيوانات يذبحونها بالسكين أو يكسرون رؤوسها أو يخنقونها ، يقول الشيخ رفاعة أنه أرسل خادمه ليشترى لحما ، فلما رآهم يذبحون الثيران أصيب بالرعب ، « وجاء يستجير ويحمد الله تعالى حيث أنه لم يجعله ثوراً فى بلاد الأفرنج ، وإلا لذاق العذاب كالثيران التى رآها » .

ويقول أنه كان يمشى فى الشارع فطارده فرنسى مخمور وقال له : ياتركى أنت تركى ! وتوقف الشيخ رفاعه ، ثم سحب الرجل إلى أحد البارات وقال لصاحب البار : بكم تشترى هذا الرجل ؟ ورد عليه صاحب البار : إننا

لا نبيع الناس ونشتريها كما تفعلون فى بلادكم . وكان رد الشيخ رفاعة : وهو سكران هكذا ليس من الناس !

ثم ترك الرجل وعاد إلى الطريق .. ورأى الناس يستخدمون الباروكة: الرجال والنساء ، ثم لاحظ أنهم فى مصر يفعلون ذلك أيضا — ولم يعرف الشيخ رفاعة أن حتشبسوت كانت أول من وضع الباروكة على رأسها وأول من وضعت لحية رجل أيضا ومن ألوف السنين !

وانبهر الشيخ رفاعة الطهطاوى لرؤية المسارح وظهور الناس وعرضهم للمواعظ الأخلاقية والأدبية وعندما ينزل الستار كان يقرأ عليه هذه العبارة : التمثيل يصلح اخلاق الناس ! .

وأعجبته الحمامات الشعبية فى باريس . فكل إنسان له حمام خاص بينه وبين الحمام المجاور ستار ، فلا يسمح أن يرى الإنسان عورة أخيه ، كما فى الحمامات العمومية فى مصر .

وتمنى الشيخ رفاعة أن يجد فى مصر هذا الاختراع اللطيف .. يقول : أنهم يضعون دناً عظيما ذا عجلات ، ويمشون العجلة بالخيل ، ولهذا الدن بزابيز ، مصنوعة بالهندسة تدفع الماء بقوة عظيمة وعزم سريع ، فلا تزال العجلات ماشية مفتوحة حتى ترش قطعة عظيمة فى نحو ربع ساعة ، لا يمكن رشها بجملة من رجال فى أقل من ساعة ، ولهم غير ذلك من الحيل ، فمصرنا أولى بهذا لغلبة حرها » .

هل عرفت هذا الاختراع ؟ .. انه عربة الرش ! ..

ولما عاد الشيخ رفاعة طبع كتابه هذا مرة أخرى وأضاف إلى ما كتبه عبارة أخرى تقول : قد صار الآن جل ذلك بمصر ! — أى قد تحقق ذلك فى مصر .

والتفت الشيخ إلى الشوارع ونظام رصفها . وإلى المزارع وتنسيق أشجارها وأزهارها .

وأعجبه الدستور الفرنسى الذى يقول فى أولى مواده : أن الناس جميعا متساوون أمام القانون . يقول : المادة الأولى : سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة ، ومعناه سائر من يوجد فى بلاد فرنسا من رفيع ووضيع لايختلفون فى إجراء الأحكام المذكورة فى القانون حتى أن الدعوة الشرعية تقام على الملك وينفذ عليه الحكم كغيره ، فانظر إلى هذه المادة الأولى فإن لها قسطا عظيما على إقامة العدل وإسعاف المظلوم وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظراً إلى إجراء الأحكام » .

وتحدث الشيخ رفاعة عن اللغة الفرنسية ومبادئ النحو والصرف والبلاغة وعن الهندسة والجغرافيا .. ثم عرض أسماء الكتب التى درسها ، وما الذى استفاده منها .. وحاول – على عادة الأدباء فى ذلك الوقت – أن يتذكر أبيات الشعر التى تتناسب مع الموقف ، وهذه الأبيات عموما لا تناسب الموقف ولا ضرورة لها ولكنه أسلوب العصر !

وكان يشرف على هذه البعثة المستشرق الفرنسى جومار ، وهو أحد علماء الحملة الفرنسية ، والمسئول الأول عن إصدار ذلك الكتاب الموسوعى الرائع الذى عنوانه « وصف مصر » وفى هذا الكتاب مسح اجتماعى وإنسانى وجغرافى وتاريخى لكل مصر ، من جميع نواحيها وما فيها من إنسان وحيوان ونبات وجبال ووديان ومدن وقرى .

ولا ينسى الشيخ رفاعة تلك اللوحات الفنية لأنها (لا تمتاز عن الإنسان إلا بعدم النطق) .

وكان من عادة محمد على أن يبعث إلى أعضاء البعثة برسائل يسألهم عن حالهم ، ويعلق على التقارير التى وصلت إليه ، ويبدو أن بعض هذه

التقارير لم تعجبه ، فأرسل إليهم يقول باللغة التركية وهذه هى ترجمة الشيخ رفاعة الطهطاوى :

« قدوة الأماثل الكرام (الأفندية) فى باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم .

« ينهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم ثلاثة أشهر مبهمة لم يفهم منها ما حصلتموه فى هذه المرة وما فهمنا منها شيئا ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على شغلكم فى هذه المدة عرفنا غيرتكم وتحصيلكم وهذا الأمر غمنا كثيراً فيا أفندية ما هو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى بهذا الوقت ، أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئا من ثمار شغله وآثار مهارته فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض كتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون فإن ظنكم باطل فعندنا ولله الحمد والمنة رفقاؤكم المتعلمون كمال العلوم والفنون فينبغى للإنسان أن يتبصر فى عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن يجنى ثمرة تعبه . فبناء على ذلك أنكم أغفلتم عن اغتنام الفرصة ، وتركتم أنفسكم للسفاهة ، ولم تتفكروا فى المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا فى كسب نظرنا وتوجهنا إليكم ، لتميزوا بين أمثالكم فإن أردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل للعلوم والفنون ، وبعد ذلك كل واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر . ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم ، ويكتب فى كل شهر ما تعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وإن قصرتم فى الاجتهاد والغيرة فاكتبوا لنا سببه وما هو عدم إعتنائكم ، أو من تشويشكم وأى تشويش لكم هل هو طبيعى أو عارض وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ما عندكم ،

وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرأوا هذا الأمر مجتمعين وافهموا مقصود هذه الإرادة ..

« قد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر فى مجلسنا فى اسكندرية بمنه تعالى : فتى وصلكم أمرنا فاعملوا بموجبه ، وتجنبوا وتحاشوا عن خلافه . انتهت صورة المكتوب » .

وأصبح من الواجب على كل طالب بعثة أن يرسل إلى الوالى محمد على خطابا يشرح فيه العلوم التى حصلها .

ثم يجئ المدرسون واحداً واحداً ويعلقون على ذلك ، ولما لاحظ المسيو جومار أن بعض المبعوثين قد تكاسل كتب يقول له :

« .. من المعلوم أن هذه الأوراق الشهرية لا تأخذ فى كتابتها إلا نصف ساعة ، لأن الغرض منها مجرد ضبط عدد الدروس التى قرأتها ومعرفة نوعها ولايخفى على اجتهادك ، ولا أجهل قدر ثمرة تحصيلك ، فاطلب منك أن تواظب على توفية الحقوق التى كلفت بها ، واعلم وتيقن بمحبتى لك .. » .

وفى آخر كتابه « تخليص الأبريز فى تلخيص باريز » يقول رفاعة الطهطاوى عن المرأة الفرنسية : إن وقوع الخبطة – الاختلاط – بالنسبة لعفة النساء لا يأتى من كشفهن (سترهن) ، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والخسيسة والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك فى المحبة والإلتئام بين الزوجين وقد جرب فى بلاد فرنسا أن العفة تستولى على قلوب النساء المنسوبات إلى المرتبة الوسطى من الناس ، دون نساء الأعيان والرعاع . فنساء هاتين المرتبتين عندهم الشبهة كثيراً ، ويتهمن فى الغالب » .

وكان رفاعة الطهطاوى أول مترجم مصرى .. أو رائد المترجمين ومديراً

لمدرسة الألسن . وقد ترجم موضوعات كثيرة علمية . وأشار إلى فرنسا وإلى الحضارة الغربية . ودعا لها وتحمس وكانت عينه على فرنسا ، وقلبه على مصر .

وإذا كان المؤرخ الإنجليزى الكبير توينبى قد اعتبر المؤرخ الجبرتى أعظم مؤرخ فى كل العصور لأنه انبهر بحضارة فرنسا ولكنه لم يرض عن احتلال الفرنسيين لمصر . فإن رفاعة الطهطاوى هو أكثر طلبة البعثات نبوغا ونبلا .. فقد بهرته فرنسا بناسها وشوارعها ودستورها وعلمها ولكنه كان يصرخ دائما : فى إستطاعتنا أن نكون كذلك ، لو تحركت أيدينا فى نور عيوننا وعلى هدى عقولنا !

ثم حملوه ...
على الأكتاف تسعة شهور

على قبره نقشت هذه العبارة التى تدل عليه :

« أمضى ثلاثين عاماً من حياته فى تعب لا نهاية له ، لهداية هؤلاء البدائيين ، ولكشف أسرار هذه الغابات والبحيرات وللقضاء على تجارة الرقيق الرهيبة ، فى قلب أفريقيا السوداء »

وإنما تدل عليه هذه الحادثة المخيفة . . فقد كان يمشى مهموماً مهدوداً محطماً مع عدد من أبناء أفريقيا الذين يحملون أمتعته عندما ظهر أسد من بعيد . وفكر فى الأسد طويلا . وهو يعرف أنه إذا استطاع أن يقتل ولو أسداً وحداً هربت بقية الأسود . . واقترب وأطلق رصاصتين فى وقت واحد . . أصابتا الأسد ولكنه ظل واقفاً . اقترب أكثر .. ورجاله أيضا . ورفع بندقيته يسددها إلى رأس الأسد وفجأة قفز الأسد عليه . وأسقطه على الأرض .

ويصف هذه اللحظة الطويلة فى مذكراته فيقول : « أعرف كيف أسمى هذا الشعور . . هل هو نوع من الحذر . . هل هو نوع من الحلم . . كل ما أعرفه بوضوح . . هو أننى فقدت كل شعور بالألم أو بالخوف . وإن كنت أدرى بوضوح جداً كل ما حولى . . فالأسد قد وضع قدمه اليسرى على كتفى . . ورفع رأسه إلى أعلى . . والتف حوله بقية الرجال . وانطلق عيار نارى آخر . . وطاشت سهام ورماح . والآن أستطيع أن أقول أن الذى حدث لى يشبه ما يحدث للمرضى عندما يعطون المخدر — الكلوروفورم — فهم يرون مشرط الطبيب ولكنهم لايشعرون بالعملية الجراحية . إنها إذن عناية الله التى شاءت أن تفقد الحيوانات المسكينة شعورها بأى شىء عندما تقع فريسة

لأسد أو نمر . . إنها حالة غريبة خلقها الله حتّى لا تشعر هذه الضحايا بلحظات الموت » .

وبعد لحظات سقط الأسد ميتاً . . أما ذراع هذا الرجل فقد ظلت مكسورة . . وعندما حاول أن يضعها فى مكانها بمساعدة هؤلاء الرجال لم يفلح فظلت مصدر تعاسته مدى الحياة !

هذا هو الرجل الذى جمع بين الطب والإيمان . وبين الشجاعة والاستسلام للتجربة لعله يقدر على كتابتها .

إنه هو الرحالة الإنجليزى دافيد لفنجستون (١٨١٣ — ١٨٧٣) .

ولا شئ فى بداية حياة هذا الرجل يدل على نهاية هذه الحياة . . فهو من أسرة فقيرة جداً . كان أبوه يعمل فى أحد محالج القطن . . وهو يعمل فى دكان بقال . وكان من الضرورى أن يتعلم شيئاً ما ، ليصبح قادراً على كسب قوته . . لابد أن يكون رجلا بسرعة . فالطفولة عند الفقراء نوع من الترف . وهو لم يعرف هذا الترف .

وقد أحس فى نفسه ميلا شديداً إلى القراءة . فقرأ كل الكتب التى صادفته من كل لون وفى كل موضوع . وفى كثير من الأحيان كان يقرأ الكتابين والثلاثة فى وقت واحد ، لأنه لايطيق أن يرى كتاباً دون أن يعرف مابه فى اللحظة التى يراه فيها .

وكانت أكثر الكتب التى تشغله هى كتب التاريخ والرحلات . وحياة الحيوان والنبات . . وعلى الرغم من ذلك اتجه إلى دراسة الدين . . فقد قابله أحد القساوسة الألمان وقال له : اسمع ياولدى إذا أردت أن تسافر فلابد أن تكون قسيساً تبشر بالدين . ومستقبلك فى بلاد الصين !

فدرس الدين ليكون قسيساً .

وقابله أحد الأطباء وقال له : إن الفقراء يحتاجون إلى الرغيف والكتاب

المقدس والدواء . . وأنت لاتستطيع أن تطعم كل الناس . . فعالجهم !

ودرس الطب . وفى سنة ١٨٤٠ قرر أن يبدأ عمله ، يقول فى مذكراته : « إننى أصلح لشئ واحد : أن أنشر الإيمان فى قلوب هؤلاء الوثنيين . . أما ماعدا ذلك فأمره سهل . . ولكن أمام هذا الهدف لقد نذرت حياتى » .

ولم يستطع أن يذهب إلى الصين ، فقدكانت حرب االأفيون على أشدها فاتجه إلى أفريقيا ، إلى قلبها . وقرر أن يقطع أفريقيا من الغرب إلى الشرق ووصل إلى زنزبار واستأذن السلطان فى أن يجرب حظه فى وسط أفريقيا وأعطاه السلطان خطاب توصية . . واستطاع أول الأمر أن يقطع أفريقيا من ساحل إلى ساحل . واقترح بعض الناس عليه أن يعود إلى الدوران حول أفريقيا بالبحر ، بدلا من أن يعود فى نفس الطريق الشاق ، ولكنه رفض . . فقد وعد هؤلاء الشيالين الذين مشوا وراءه بأن يعيدهم إلى قراهم . وهو رجل يحترم كلمته ويرعى الله فى كل ما يفعله ويقوله .

وبعد هذه الرحلة الاستكشافية عاد إلى لندن . واستقبلته الصحف والهيئات العلمية بالاحترام وفى ذلك الوقت نشر أول كتبه بعنوان « رحلات تبشيرية واكتشافات فى جنوب أفريقيا » .

وكلفته الحكومة البريطانية باكتشاف نهر زامبيزى وأن يكتب لها تقريراً إن كان من الممكن استعمار هذه المنطقة . . واستغرقت هذه الرحلة خمس سنوات (١٨٥٨ — ١٨٦٣) ..واكتشف فيها بعض البحيرات الصغيرة ولكن هذه الرحلة ضاعفت من تعاسته وضيقه بالحياة . . فقد ماتت زوجته وكانت قد صممت على أن ترافقه : قتلتها الملاريا . . وأسوأ من ذلك وأقسى تجارة الرقيق . وما الذى يلقاه هؤلاء البدائيون من عذاب وهوان . . وأقسم أمام الله أن يفضح هذه التجارة الوحشية أمام العالم كله . وعاد إلى إنجلترا بعد ذلك ينبه الرأى العالمى إلى هذه التجارة التى هى عار على الإنسان !

وعاد إلى أفريقيا . . ثم عاد إلى إنجلترا وفى آخر رحلاته ذهب إلى الهند . وحصل على عدد من الرجال المدربين وعلى ١٢ شاباً . . واتجه مرة أخرى إلى زنزبار . وتحرك إلى أواسط أفريقيا . . وكانت قافلته تتكون من ٣٦ شخصاً وستة من الجمال وأربعة من الحمير وأربع جواميس . وبغلين . . واختار عيد ميلاده ١٩ مارس سنة ١٨٦٦ ليبدأ فيه آخر رحلة له . ويبدو أن حالته المعنوية كانت فى قمتها .

فكتب فى مذكراته : إن الرحلات تجعل الإنسان واثقاً من نفسه . . وتنشط جسمه . . وتشد ساقيه . . وتذيب الشحم . . وتجعل وجهه مشرقاً وبشرته برونزية والذى يعرف الرحلات لايعرف الإمساك أو سوء الهضم . والإنسان لايعرف طعم الراحة إلا إذا عرف طعم التعب . .

واتجه إلى الغرب . . الغابات مخيفة موحشة . الأمطار لا تتوقف . . الوحوش لاتهدأ . ولكن أقسى من الوحوش : البعوض والنمل وذباب تسى تسى . . وكان يشعل النيران طول الليل لتخويف الوحوش . .

ومضت القافلة بين قبائل لم تتوقف الحروب بينها من مئات السنين . ولكنه استطاع بحكمته وصبره أن يمرق بينها دون أن يصاب بشىء .

وبعد شهرين أضرب الشيالون عن السير معه . . لم يفلح فى إقناعهم تركوه ومضى معه أربعة من الرجال فقط . وبدأت متاعبه . فالرجال فى غاية القسوة على الحيوانات . والحيوانات تموت فى الطريق . فالوحوش هاجمتها . . ولم يستطع حمايتها .

وجاء رأس السنة . . كتب فى مذكراته يقول : « اليوم رأس السنة .. ليس عندى ملح ولا سكر . . إننى جائع دائما . . وأحلم بالخبز . . ولاأعرف كيف أنام . . وصور اللحم ورائحة الشواء والأكواب النظيفة أراها أمامى وأنا أمشى على قدمى . . كل شىء حولى له لون الطعام ورائحته . . إنها حالة من الهذيان . . » .

وفى يوم ٣٠ يناير من العام الجديد حدثت كارثة . . هرب اثنان من رجاله . . وكان أحدهما يحمل صندوق الأدوية وخصوصاً مادة الكينين الضرورية للحمى . . وأحس لفنجستون أن حكماً بالإعدام قد صدر ضده !

لا طعام ولا دواء . . لا راحة . . وإنما إصرار على أن يمضى فى طريقه . . لقد قطع أكثر من ٨٠٠ ميل .

وكان إذا تعب من المشى يركب البغل . . وإذا تعب من الركوب حمله رجاله . . واحداً واحداً . واثنين اثنين . . ووصل إلى جنوب بحيرة تنجانيقا رآها . . وركب الجمل . . ونزل فى زورق وراح يتحرك فى داخل البحيرة . . ثم عاد إلى الشاطىء أكثر عجزاً . . وكانت الحمى قد عصرته وحطمته . . فظل نائماً فى إحدى الخيام ثلاثة أسابيع .

وتحرك من جديد . . أنه يريد أن يعرف من أين ينبع نهر النيل . . لابد أن يصل إلى ذلك . . وفى طريقه قابله بعض التجار العرب وأفهموه أن الحرب اشتعلت من جديد بين بعض القبائل . . ونصحوه بالتوقف شهرا أو شهرين حتى تجىء الأمطار وتخمد نيران القبائل .

وفى بداية عام ١٨٦٩ رأى أحد الشيالين الذين استأجرهم أن أحد النمور يعلق ذيله الدامى . . فصرخ . . ولما سألوه : قال أن هذا يدل على أن أحدا سوف يموت .

وتشاءم لفنجستون فقد تحول إلى حطام إنسان . والتهبت رئته اليمنى ثم انه سقط فوق ذراعه اليسرى التى مزقها الأسد . . فانتعشت أوجاعها . . ولولا أن أحد التجار العرب قد عالجه وأعطاه بعض العقاقير والأعشاب الطبية لمات فى ساعات !

وخطرت له أن يتجه إلى الشمال ثم إلى الشرق بحثاً عن المدينة التى يقال إن موسى عليه السلام قد أقامها فى الحبشة .

وأصيب الرحالة الإنجليزى بما يشبه الجنون . كأنه أحس بنهايته قبل أن يحقق المهمة التى جاء من أجلها . . فكان يسأل الناس : قل لى يا حضرة .. ألم تر بحيرة تخرج منها أربعة أنهار فى وقت واحد !

وفى هذا الوقت كانت الدوسنتاريا قد أهلكته أما قدماه فقد تورمتا وأما رئته فإنها توجعه . . ولذلك يسعل دماً طول الوقت . . وعندما أركبوه على حمار سقط . . فحملوه أربعة . . من الرجال . .

ورغم هذا العجز الشديد فإنه كان يكتب مذكراته . . ومن العجب أنه كان يصف الأزهار النادرة وكان يطلب إلى المرافقين الجدد الذين استأجرهم أن يقطفوا الزهور ويقربوها من أنفه ليصف رائحتها ويقارن بين الروائح المختلفة . . وكذلك كان يصف الطيور وحيوانات الغابة .

ويقول فى مذكراته : ليس أمامى إلا طريق واحد . . أن أمد يدى إلى هذه القبائل أطلب طعاما لى ولغيرى !

وفى هذه الاثناء جاء محمد حسان — أحد رجاله من العرب — ومن ورائه عبد المجيد . . وقال الأول : يا سيدى . . يا سيدى . . لقد عثرت على رجل أبيض . . إنه يسأل عنك . .

وسأله لفنجستون بالعربية : كيف حاله .

وقال حسان : حاله زين (بالعربية)

قال لفنجستون بالعربية : أى والله . . أى والله . . كيف حاله ياحسان ..

ويصف حسان عدد الرجال الذين معه . . وعدد البغال والحمير والمعونات والأدوات الغريبة التى يحملها . . ومنظره وصحته وملابسه . .

وقال له حسان : إن هذا الرجل الأبيض يسأل عنك ويريد أن يراك . . وفى الصباح التقى الرجلان . . ورأى لفنجستون بوضوح أن هذا الرجل

الأبيض الأمريكى . . فالعلم مرفوع فى مقدمة القافلة . . واقترب الرجل الأمريكى ليقول :

أظن أنت الدكتور لفنجستون .

فقال : نعم أنا مرحباً بك .

وقال الأمريكى : أنا سعيد لرؤيتك . . وأرجو أن تتلقى هذه الأنباء بسرعة . . فلى الشرف العظيم أن أراك . . وما جئت إلا للبحث عنك .

– عنى . .

– نعم . . فقد كلفنى صاحب جريدة نيويورك هيرالد أن أعثر عليك بأى ثمن !

– آه . . اننى أعرفه .

– لقد انشغل العالم كله عليك . . فقد انقطعت أخبارك منذ سبع سنوات

وانتهت الدهشة . . وقدم الرجل الأمريكى نفسه . . إنه من أصل إنجليزى ثم تحول إلى الجنسية الأمريكية . . وعمل صحفياً ومراسلا عسكرياً فى الشرق والغرب . . وقد كلفته صحيفته بأن يقدم المساعدات المادية والأدوية للرحالة الإنجليزى . . والرجلان مختلفان تماما : لفنجستون رجل طيب عنيد . . والرجل الأمريكى مورتون ستانلى (١٨٤١ – ١٩٠٤) عنيف وفى غاية القسوة فحياته أيضاً قاسية . . فهو ابن غير شرعى . . وقد تركته أمه عند أقاربها . . وتنكرت له وهرب إلى أمريكا وتبناه أحد الرجال . . ثم عاد إلى الجنسية البريطانية . وأصبح عضواً فى مجلس العموم . . ورفض الإنجليز أن يدفنوه فى مقابر العظماء لأنه أسال الكثير من الدماء فى أفريقيا . . وقد اشتهر هذا الرجل بلقائه العجيب مع لفنجستون . . ولكن أثره الحقيقى هو أنه اكتشف الكونغو . . ثم عمل فى خدمة ملك بلجيكا !

ولم يكد لفنجستون يراه حتى سأله : وما أخبار الدنيا .

فقال له ستانلى : أفضل أن أتركك بعض الوقت لتقرأ رسائل أولادك إليك .. تعلمت الصبر وأستطيع أن أترك هذه الرسائل ساعة أو ساعتين . .

هذه أخبار الدنيا . . إن قناة السويس فتحت . . واتصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر . . (نحن الآن فى سنة ١٨٧١) . والخط الحديدى الأمريكى اكتمل . وجرانت أختير رئيسا لأمريكا . . وامتلأت مصر بالعلماء والخبراء وانتهت ثورة كريت . . وثورة فى إسبانيا أسقطت الملكة إيزابيلا من عرشها .. وبروسيا قد أحتلت الدنمارك وتحاصر باريس الآن . . أنتهت إمبراطورية نابليون تحت ضربات المستشار بسمارك والجنرال فون مولتكه . . وفرنسا الآن تلعق التراب !

وبعد لحظات صمت الرحالة الإنجليزى : عندما رأيت الشيالين يحملون البانيو والملابس النظيفة . . ظننت أول الأمر أنك رجل فرنسى غنى جداً . . وقررت ألا أتصل بك . . فلا شأن لى بك . .

وهنا نهض ستانلى بسرعة وراح ينادى : يا سليم . . يا عبد الرحمن . . هات الزجاجة . . لقد أعددت شمبانيا لهذه المناسبة . . وأعددت كئوسا من الفضة . .

وشرب الرجلان . . وجاء الطعام الشهى . . والأدوية والملابس والفلوس . . وارتفعت روحه المعنوية . .

ويقول ستانلى فى مذكراته الجميلة الفاتنة : جئت أبحث عن « موضوع » عن سبق صحفى . . ولكن وجدت الإنسان أنه ليس فى حاجة إلى أن يقول . . وجهه يقول . . شعره يصرخ . . شفتاه . . عيناه . هذا الهيكل العظمى معناه

الإصرار رغم المرض والجوع والعزلة فى قلب القارة السوداء .. وقلب الأحراش والمستنقعات . .

حاول ستانلى أن يقنع الرحالة الإنجليزى بالعودة . . ولكنه قال له فى الحقيقة : أريد أن أبحث عن هذه الينابيع التى تحدث عنها المؤرخ هيرودوت.. لابد أن هذه الينابيع هى التى يخرج منها نهر النيل !

وترك له ستانلى كميات من الطعام تكفى لسنوات . . وأخذ مع مذكرات لفنجستون خطابات إلى أولاده . . وعاد ليكتب قصة الرحالة الغريب الذى قابله فى أواسط أفريقيا . . وكانت مقالات ستانلى قنابل عالمية . . ولكن الإنجليز شعروا بالخجل من أن رجلا أمريكياً هو الذى أنقذ لفنجستون . . أنقذه من الجوع والمرض والموت . .

وعجز لفنجستون تماماً عن الحركة . . ولم يفلح العلاج والطعام . إنه أحس باقتراب النهاية . اتجه من جديد إلى بحيرة تنجانيقا . . ثم اتجه شرقاً وشمالا .. وفى الليل ينهض مفزوعاً إلى الغابة ويسأل الأشجار : ألا تعرفين بحيرة تخرج منها أربعة أنهار !

وكان الرجال يبكون لحاله ..

وفى الليل ، كل ليلة ، يجدونه راكعاً إلى جوار فراشه ويتحدث إلى الله وقد أضاء شمعة . . ويقتربون منه . . وعندما يسمعونه يهمهم يتركونه فى صمت . . وفى إحدى المرات وجـدوه راكعا وقد أسند رأسه إلى الفراش . .

ولا ينطق . . ولا يتنفس . . وفى هذه اللحظة سمعوا صوت طائر متوحش هذا الطائر يشم رائحة الموتى . . لقد مات لفنجستون قبل ذلك بساعة واحدة !

وبسرعة وقف رجاله صفين وراحوا يبكون . . وبسرعة غريبة . . تقدم واحد منهم إلى ملابس لفنجستون وخلعها . وإلى بطنه وفتحه . وأخرج قلبه ودفنه تحت شجرة !

وتقدم رجل ثالث وقام بغسل الجثمان وتحنيطه ثم لفه بالقماش لفاً محكماً وأعلن الرجل أنه لابد أن يعودوا به .. ووافقوا جميعاً .. لابد أن يسلموه للقنصل البريطانى على مدى ١٥٠٠ ميل . . ونقلوا جثمانه على رؤوسهم عبر الغابات والمستنقعات والصحارى والقبائل التى تتشاءم من جثث الموتى والقتلى . . والوحوش التى تشم رائحة الجثث . . حملوا جثمانه تسعة شهور حتى وصلوا إلى زنزبار . . وقد حاول بعض البيض إقناعهم بدفنه فى أى مكان . . ولكن الرجال رفضوا !

ونقل جثمانه بعد ذلك إلى لندن . .

. . وكانت أطول جنازة فى التاريخ !

ودفن فى مقابر العظماء يوم ١٨ أبريل سنة ١٨٧٤ . . وفى جنازته كان يمشى أربعة : عبد الحميد وسليم والطاهية حليمة وعبد الرحمن ابن غالب !

لقد مات هذا الرحالة ولم يكتشف منبع نهر النيل . . ولكنه كان أول من رسم أواسط أفريقيا . . ورسم أنهارها وبحيراتها . . وأقام مراكز للتبشير الدينى . . وكان أعلى صوت استنكر تجارة الإنسان فى الإنسان !

العروس
التي أحبت القطار
حتى الموت!

أنه فى يوم الأربعاء ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٠ . .

الناس خرجوا من بيوتهم . معهم أطفالهم وطعامهم وشرابهم وأغطية كثيفة . وكلابهم وخيولهم وأغنامهم . ومعهم بعض الكتب . . وأكثرهم يحمل نسخة من الكتاب المقدس . أى يوم هذا ؟ رجال الدين يقولون : إنه من المتوقع أن تقوم القيامة فى الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق . . وقيل : وست دقائق . . أكثر الناس سعادة . . الأطفال والفتيات . . وأكثرهم تعاسة الأمهات ورجال الدين .

وقد تزاحم بعضهم إلى جوار بعض . . إلى مدى ثمانية كيلو مترات من مدينة ليفربول ، وقفوا وجلسوا على جانبى الشريط الحديدى . . وتكدسوا عند النفق الذى يفضى إلى المدينة ، فهنا عند النفق سوف يرون معجزة العصر الحديث كله . . بل معجزة العصور كلها . . ومن حق كل إنجليزى أن يرفع رأسه إلى أى ارتفاع ، وإذا شك أحد فى ذلك ، تكاثر عليه الناس واتهموه بأنه فرنسى أو أمريكى أو ألمانى على أسوأ الفروض !

الساعة السابعة . . الثامنة . . التاسعة والنصف . . لم يظهر شىء من بعيد ، وأخيراً ظهرت عربة . . لها عجلات من حديد . . يدفعها الناس أمامهم . . ومن الغريب أنها بسهولة تندفع على الشريط الحديد . . هذا معروف ، قد رآه الناس كثيراً ، بل إنهم رأوا العربات تجرها الخيول فوق القضبان أيضا

وفجأة صرخت الجماهير . . وارتعد الأطفال ، وتراجعت الأمهات . . لقد حدث انفجار وصفير وضجيج ودخان وضوضاء حديدية . . لقد تحركت « القاطرة » ، هذا هو اليوم الذى انتظره الجميع من سنوات ، قاطرة تجر وراءها عربات ، وفى العربات اناس وبضائع . . وفى الطريق من مدينة ليفربول إلى مانشستر ، اليوم افتتاح أول خط حديدى فى العالم . .

والموسيقى راحت تعزف نشيد « جاء البطل المنتصر جاء . . » أما البطل المنتصر فهو دوق ولنجتون الذى هزم نابليون فى معركة واترلو ، فقد كان موجودا فى ذلك الوقت باعتباره رئيسا للوزراء . . وإن كانت الجماهير تفضل أن تنظر إليه باعتباره بطلا من أبطال الحرب . .

وظهرت القاطرة الأولى على قضبان خاصة . . تجر وراءها ثلاث عربات . . العربة الأولى لها ثمانى عجلات ، وفيها فرقة الموسيقى العسكرية ، والثانية ركبها ولنجتون والوزراء وأعضاء مجلس العموم واللوردات والعربة الثالثة ركبها مدير السكك الحديدية الجديد وكبار المهندسين . . أما القاطرات الأخرى وعددهن ست ، وكل واحدة لها لون ولها اسم : الأولى اسمها العنقاء ولونها أخضر .. والثانية اسمها : نجمة الشمال ولونها أصفر . . الثالثة اسمها : القذيفة ولونها أحمر .. والرابعة اسمها : الشهاب . . ولونها أزرق .. والخامسة اسمها : السهم ولونها وردى . . والسادسة اسمها : النيزك ولونها بنى . .

وقد أعلنت القاطرة الأولى قدومها بانفجارات عنيفة . . ودخان وغليان . . وكان الجو باردا ، ولكن الناس على الجانبين قد نسوا البرد والعواصف التى هبت على غير العادة فى هذا الوقت من العام .

وبلغ عدد الركاب فى هذا اليوم ٧٧٢ راكبا ، كلهم يحسدون أنفسهم على هذا الحظ السعيد .. تصوروا أنهم أول من ركب قطارا فى التاريخ وبسرعة « ضوئية . . أقرب إلى سرعة البرق الخاطف » . . لقد كانت

سرعة القاطرة حوالى ١٥ كيلو مترا فى الساعة . (خمسة عشر كيلو مترا فى الساعة) .

أما القاطرة التى ركبها ولنجتون فكانت لها مهمة خاصة .. لقد تجمع المهندسون يعرضون على البطل الكبير كيف أن القاطرة تتحرك وتقف . . وتسرع وتبطئ . . وكيف استطاع الإنسان بعبقريته أن يتحكم فى الحديد والنار وكيف استطاع أن يحول البخار إلى حيوان ذليل ذلول . . يلمسه فيقف . . ويضغط عليه فينطلق . . إن الإنسان قد دخل عصراً جديداً .

وترددت عبارات : إن الإنسان سيد هذا الكون . . قد لان الحديد . . واحتبس البخار . . والتقى الماء والنار من أجل خدمة الإنسان والإنسانية !

وكان صوت القاطرة أعلى من صراخ الناس . . ومضت القاطرة . . ووراءها قاطرة أخرى . . وخمس قاطرات أخريات وفجأة توقفت القاطرات وهبط المهندسون وأعلن واحد أن القاطرات فى حاجة إلى مزيد من الماء ، فالبخار يتعالى ، ودرجة الحرارة شديدة . والناس يتصببون عرقاً ، ثم إنهم إذا أخرجوا مناديلهم من جيوبهم ومسحوا وجوههم ، فهذا السواد الذى يرونه هو هباب الفحم طبعا ، ويضحكون ولكن الحزن باد على وجه أحد المهندسين وهو يقول : أعرف ذلك . . ولكن سوف نجد طريقة للتخلص من هذا الفحم . . سوف نجد طريقة !

ومن الغريب أن أحدا لم يسجل هذه الرحلة الفريدة فى التاريخ لا أحد ! فكل دفاتر شركة السكك الحديدية تسجل أرقاما ، وأسماء بعض المشاهير ولكن كيف حدث ما حدث ، ماذا قال الناس . . كيف هزمهم الحديد والنار . . لاشئ من ذلك فى كتب التاريخ .

ولكن فتاة فى العشرين من عمرها هى التى احتفظت لنا بوثيقة نادرة تصف فيها ذلك اليوم ، الفتاة اسمها نانى كمبل ، كانت ضمن السعداء الذين ركبوا قطار دوق ولنجتون ، وأرسلت خطابات طويلة إلى إحدى صديقاتها .

تقول فى إحدى رسائلها : عزيزتى . . أنت تعرفين سعادتى وأنا أظهر على المسرح لأول مرة . . فى دور جولييت . . طبعا تذكرين . . أن سعادتى هذه يمكن تسجيلها فى ورقة واحدة . . ولكن هذا الشئ المذهل الذى حدث لايمكن وصفه فى مئات الأوراق . . شئ يحتاج إلى موسيقى . . وإلى شعر . . لقد فقدت إحساسى بكل شئ . . كنت فى نشوة . . لم أشعر بأن لى جسما ولا وزنا . . اننى أطير . . ما هذا العصر الذى نحن فيه . . ما الذى يريد أن يصنعه الإنسان . . إن الإنسان استطاع أن ينطلق بهذه السرعة المجنونة . . بهذه السرعة يشق طريقه بين صواعق التصفيق والصراخ . .

وتقول فانى كمبل أيضا : هذه المرة من أى شئ أحدثك . . أود أن أعيد ما قلته لك من قبل . . فإننى لا أتعب من تكراره . . إنه لا ينسى . . هل تعرفين كيف بدأت هذه المعجزة . . أن صاحبها رجل متواضع ، كان يعمل فى المناجم ، ولكن له قدرة نادرة على فك الساعة وتركيبها ، وفى وقت فراغه كان يصنع الأحذية لنفسه . . إن لديه هذه القدرة الخارقة على تركيب الأشياء وإبداعها . . هذا الرجل الذى اخترع القاطرة اسمه جورج ستيفنسون. أنه فى الخامسة والخمسين من عمره — لقد كانت سنه فى ذلك الوقت ٤٩ سنة . .

ومضت الفتاة تروى قصته . . وكيف أنه ذهب إلى مجلس العموم البريطانى وعرض عليهم اختراعه ، وكيف أنه سيصنع قاطرة تمشى على عجلات ، هذه القاطرة تنقل الناس والبضائع وكيف يأمل أن يجعلها « تطير » بسرعة عشرين كيلو متراً أو خمسة وعشرين كيلو متراً فى الساعة . . ولم ينظر هذا المهندس إلى وجوه أعضاء مجلس العموم ، فقد تغيرت ألوانها ، أما أعناقهم فدارت يمينا وشمالا ، وتهامسوا وقال واحد : إنه مجنون ، وقال ثان : هذا هو السحر الأسود . . وقال أكثرهم طيبة ورقة : دعوا الرجل فى حاله إنه جنون الفقراء . .

ولكن هذا المهندس الواثق من نفسه اتجه إلى إحدى الشركات ، وعرض عليهم مشروعه . فكروا . دبروا . اتفقوا . أعطوه المال فاندفع أسرع من القاطرة يفكر ويصمم وينفذ ، ويضع القضبان الحديدية على الأرض . . استعدادا لهذا اليوم .

تقول الفتاة : لقد أحببت هذا الرجل إنه نحيف ، شاحب ، له طريقة غريبة فى الكلام ، ولكنه مهذب ، وهو غارق فى أفكاره ، مهموم كأنه يحمل القطارات والعربات والركاب كلهم فوق كتفيه ويريد أن يسبق القطار !

ونعود إلى ذلك اليوم ، تقول الفتاة العاشقة الولهانة : فى ذلك اليوم وزعوا علينا بطاقات ، يقولون فيها : يجب ألا يبرح أى إنسان مقعده ، مهما كانت الأسباب حرصا على سلامة الجميع ، وكانت أمى فى قاطرة أخرى . وقررت أن أذهب إليها وآتى بها إلى جوارى لتشاركنى سعادتى . . وكانت صدمة عنيفة لقد كادت أمى تموت من الخوف ، وفى هذه الأثناء ظهر رجل يمسك بوقا فى فمه ويصرخ أوقفوا القاطرة . . أوقفوا القاطرة . . إن شخصا قد جرح ! . .

والذى حدث أن القطار عندما توقف فى إحدى المحطات ليتزود بالماء ، نزل بعض الكبراء يتمشون قليلا . . أو يتحدثون عن هذه المعجزة ، ويبدو أن الحديث قد استغرقهم فلم يلاحظوا وسط هذه الضوضاء العنيفة . . أن قطارا آخر قد جاء وراءهم ، ولم يكن من السهل فرملة القطار ، فسقط واحد منهم تحت العجلات ، وانكسرت ساقه اليمنى ، وحاولوا انقاذه ، وبصعوبة أنقذوه . . ووضعوا ساقه إلى جواره ، أما الرجل فهو واحد من رجال الاقتصاد الإنجليز وعضو مجلس العموم . وصاحب مشروعات تجارية وإنسانية كثيرة واسمه هسكنسون ، ومن المضحك أن هذا الرجل

لم يدخل التاريخ على أنه خدم بلاده ، ولكن على أنه أول ضحايا القطارات فى التاريخ !

وحاول الجميع إنقاذ الرجل . . ولكنه كان يصرخ . . ويقول : لقد مت فليرحمنى الله !

وصرخ الناس ، ونزلوا من القطار ولكن القطارات الأخرى مضت فى طريقها فلا أحد قد أدرك ما حدث ، لاسمع ولا رأى . . إنه يوم من أيام القيامة . . أو هى القيامة نفسها . . كل إنسان مشغول بأفكاره ، وبما سوف يقوله لأهله وأصحابه كيف ركب ، وكيف اهتز ، وكيف أمسك قبعته حتى لا تطير من شدة الاندفاع !

وتوقف القطار نهائيا . .

ونودى على المخترع وعلى أصحاب الشركة وقيل لهم إن رئيس الوزراء يريدهم فوراً ، واتجهوا إلى البطل ولنجتون ، فقال لهم : هذه الرحلة يجب إلغاؤها فوراً ، ولا داعى لهذه الهيصة !

ولأول مرة يجد ولنجتون معارضة حقيقية . . قال واحد منهم : ولكن هذا مستحيل لقد دفعنا ألوف الجنيهات من أجل هذا المشروع . . ثم إن هذا الحادث الأليم ليس سببا كافيا فى القضاء على هذا المشروع الإنسانى ؟

وقال ثان : إننا أخذنا أجور كل هؤلاء الركاب ، وليس من العدل أن نفسد عليهم هذه المتعة . .

وقال ثالث : إن هناك مئات من الناس على جانبى الطريق ينتظرون منذ يومين . . وليس من حقنا أن نخدعهم ، ولا من الواجب علينا أن نضلل الناس ؟

وكان على رئيس الوزراء أن يركب القطار أو ينزل ويكمل الطريق فى عربة تجرها الخيول ؟

وتقدمت سيدة عجوز تقول لدوق ولنجتون : ولكن ياسيدى الدوق أن كثيرين ماتوا وهم يركبون العربات التى تجرها الخيول ، فلم يصدر قرار فى أى عصر من العصور بإلغاء العربات وقتل الخيول !

وتقدم رجل يقول لدوق ولنجتون : ياسيدى الدوق . . لم أكن أعرف أن مقتل إنسان يهز جنديا مثلك رأى الألوف يموتون فى الحرب ضد الألمان!

وانطلق القطار . . وتعالت الصيحات من جديد عند مدخل مدينة مانشستر . . ألوف الناس على الجانبين .

ولكن شيئاً من الوجوم والصمت يسود الجميع . . وتوقفت القاطرات . ونهض الناس على الجانبين فى صمت . . وأفسحوا الطريق لعدد من العمال كبار السن . . إنهم يمسكون المغازل . . وشعرهم منكوش . . ووجوههم شاحبة . . وملابسهم ممزقة . . ويعترضون القاطرات . . ما الذى يريدون أن يقولوه ؟ . . إنها مظاهرة احتجاج على اختراع الآلة البخارية ، التى سوف تؤدى إلى تعطيل الأيدى العاملة . . وتجويع ألوف العمال .

وإذا عدنا إلى سجلات الشركة نجد أن عدد الذين ركبوا هذه القطارات فى الأسبوع الأول بلغ عددهم ستة آلاف نسمة . . أى بمعدل ٧٦٣ راكبا فى اليوم . . وتقاضت الشركة عن هؤلاء الركاب مبلغ ٢٠٤٣ جنيها و ١١ شلنا !

وكانت هناك آراء غريبة ؟ !

كتب طبيب فى ذلك الوقت أنه ينصح السيدات الحوامل فى الشهر الثانى والثالث ألا يركبن القطار !

ونشر أحد رجال الدين بحثا يقول فيه : إن هذا القطار ضد الدين . . الناس قد أصابهم الغرور . . لأن القطار لم يرد فى الكتاب المقدس ومعنى ذلك أن الإنسان يعرف أكثر مما يعرفه الأنبياء !

وطالب القس : بالقضاء على هذه الخرافة التى تحطم العلاقة الإنسانية والصلات الروحية بين المؤمنين !

أما العاشقة بنت العشرين عاما فكتبت لصديقتها تقول : كل أملى فى الدنيا أن أتزوج شابا أحبه . . وأن نركب معا القطار ، فى أول يوم من أيام شهر العسل . . وأموت بعد ذلك !

وتحققت أمنيتها . . ركبت القطار هى وعريسها . . وكان مخمورا . . وكانت هى فى غاية النشوة ، وسقط العريس تحت عجلات القطار . . فلما حاولت إنقاذه سقطت هى أيضا تحت القطار . . وكان الاثنان معا أول عروسين داسهما قطار فى التاريخ !

يكسب في النهاية

من عنده أرق!

فى يوم ١١ يناير سنة ١٩٠٧ نشرت صحيفة « الصباح » الفرنسية فى صفحتها الأولى هذه العناوين . . مادامت هناك سيارة فالإنسان قادر على كل شئ . . لم تعد الصعوبات الجغرافية مشكلة . . أنها فرصة نادرة أمام الجميع لإثبات عبقرية الإنسان !

إن عبقرية الإنسان هذه مطلوب تأكيدها فى سباق دولى للسيارات من مدينة باريس إلى مدينة بكين . والسباق مفتوح للجميع . وستتولى هذه الصحيفة الإشراف ـ والدعوة والدعاية لهذه الرحلة الرهيبة . .

وكان كل من يريد الاشتراك أن يدفع ٤٠٠ جنيه .. أما تكاليف الرحلة للسيارة الواحدة فتصل إلى عشرين ألفا من الجنيهات . وقد أعلنت شركات عالمية رغبتها فى الاشتراك . وكان أول المشتركين نبيل إيطالى اسمه الأمير بورجيزة . . وكانت سيارته قوتها أربعة سلندرات . أما الأمير نفسه فهو رجل شجاع . واستطاع عن طريق علاقاته الدبلوماسية الكثيرة أن يدير لنفسه كل وسائل الراحة والوقود على طول الطريق . . وقد رافقه فى هذه الرحلة ميكانيكى . وحمل الأمير عددا من قطع الغيار الضرورية .

ومن فرنسا اشترك المركيز دى ديون ، وهو صاحب شركة لإنتاج السيارات وقد اشترك بسيارتين ولكل منهما سلندران . وكان يرافقه اثنان لإصلاح السيارتين إذا ما حدث أى خلل .

واشترك رجل ثالث اسمه كونتال بسيارة لها ثلاث عجلات . ورافقه سائق وميكانيكى . .

وأخيراً اشترك رجل مهرج خفيف الدم اسمه شارل جودار . وكان قبل ذلك يعمل فى سباق الخيل . وهو مغامر أفاق مفلس . وقد طلب من أحد أصحاب شركات السيارات الهولندية أن يعاونه على دخول السباق . وأعطوه سيارة هولندية . وملأها بقطع الغيار والإطارات الجلدية . ورافقه ميكانيكى . .

أى أن هناك خمس سيارات على استعداد لأن تقطع المسافة من فرنسا إلى الصين — مهما طال الوقت . ومهما تكبدوا من متاعب أو خسائر .

وقبل أن يبدأ السباق اعترضت الحكومة الصينية على دخول هؤلاء « الشياطين الأجانب » الحدود الصينية . . ونشرت الصحيفة الفرنسية أن هؤلاء الشياطين مصرون على السباق ، مهما كلفهم ذلك . . ورغم أنف الامبراطور الصينى !

ووافقت الحكومة الصينية . .

وبسبب رداءة الجو ، تقرر أن تبدأ الرحلة من الصين فى اتجاه فرنسا . .

وشحنت السيارات إلى الصين . .

وتحدد موعد السباق يوم ١٠ يونيو . . وكان على هذه السيارات أن تقطع ١٥ ألف كيلو متر ، أو هذه الكيلو مترات هى التى تقطعها !

وأقيمت حفلة ضخمة لهؤلاء الشياطين الأجانب . ودار رجال الدين حولهم وحول سياراتهم . وتعلقت أغصان الأشجار والورود . فى السيارات وملأ كل واحد منهم جيوبه بحبات الأرز على سبيل البركة . ولكن أحد الدبلوماسيين همس فى أذن الأمير الايطالى وأعطاه تمثالا « نادراً » لبوذا . وطلب إليه أن يضعه فى جيبه . وقيل له أن هذا وحده الذى سوف يساعده حتى النصر . .

أما المهرج جودار فقد ارتدى ملابس صينية كاملة . وحلق رأسه بالموسى — وارتدى قبقابا خشبيا وجوربا أحمر . . واقتربت منه سيدة

وقطعت جزءا من ملابسه ثم أحرقته أمامه . . وقالت : لقد أحرقت الشياطين التى تعلقت بملابسك . اذهب . . على بركة الآلهة !

وبعد توديع الشياطين الأجانب ، أخذت السيارات تخوض طريقها وسط الناس فى اتجاه أبواب مدينة بكين . ومن ورائهم الجماهير . وأمامهم عدد من الرسميين على ظهور الخيول . وقبل أن يبدأوا السباق اتفقوا على أن يتعاونوا فى الطريق حتى لا يقتل أحد . أو لايسقط سائق بسبب المرض . . وكان الأمير الإيطالى أسبقهم إلى خارج المدينة . وبعد ساعات تلفت وراءه فلم يجد زملاءه . وثار . ولكن المهرج جودار أصر على أن يعود إليهم . فقد خرجوا من أبواب أخرى وضلوا الطريق . ولحق بهم ثم أعادهم إلى الطريق الصحيح .

وكانت السيارة ذات الثلاث عجلات هى التى ضربت رقما قياسيا فى عدم تحمل الطرق المتعرجة المليئة بالأوحال .. فانكسرت عجلتها الثالثة . وانتهى السباق بالنسبة لها ..

وكان على المتسابقين أن يمضوا فى طريقهم . فقد سبقهم الأمير الذى أعلن : أن هناك حدودا للرحمة الإنسانية . وليس من المعقول أن يبكى الواحد منا لغيره .. انها معركة والطريق طويل والصعوبات لا حدود لها ..

وكان على الأمير أن يجتاز أول عقبة : كوبرى من الرخام .. الكوبرى أعلى من الطريق بنصف متر . وكان على الأمير أن يرفع سيارته إلى ارتفاع الكوبرى . ونزل واشترى كتلا خشبية . ووضعها تحت عجلات السيارة . وارتفعت فوقها . وسارت على الكوبرى . ثم عاد فنقل الأخشاب إلى الجانب الآخر . ونزلت السيارة واستأنفت سيرها ..

وقرر الأمير الإيطالى أن يتوقف فى مدينة نانكوف على مسافة أربعين ميلا من بكين . أما السيارات الأخرى فقد توقفت فى الطريق وقررت المبيت

على أن تستأنف رحلتها فى اليوم التالى . ولم يعرفوا إلا فى اليوم التالى أنهم توقفوا على مدى ميل واحد من مدينة نانكوف .

ومضى الأمير متجها نحو حدود منغوليا .. والطريق ملئ بالجبال والوديان والطرق الضيقة التى تمشى فيها الجمال . واستعان الأمير بعدد من الشيالين يدفعون عربته إلى أعلى .. ويمسكونها بالحبال إذا نزلت أحد الطرق اللولبية الضيقة .. وفى كثير من الأحيان كانوا يتركون الأمير وحده ، ويجلسون يتعاطون الأفيون وكان على الأمير أن ينتظر .

وبعد أن عبرت السيارات بصعوبة لا حد لها بعض السلاسل الجبلية ، استراح الأمير فى أحد الفنادق . الفندق بدائى قذر . ولكن الناس مهذبون. وفى غاية الرقة والمرح . وعلى استعداد دائم لأن يساعدوا هؤلاء الشياطين الأجانب !

وعاود الأمير رحلته .. واقترب من حائط الصين العظيم .. ونفذ منه .. وانفتحت أمامه الأراضى الصينية الشاسعة والواسعة .. ملايين من حقول الأرز .. والمستنقعات والطرق الضيقة والأوحال والأمطار والرعد والبرق .. ولم تتوقف سيارته .. واستطاع أن يصل إلى حدود سيبيريا وهناك التقى بموظفى البنك الروسى الصينى . واحتفلوا به . وأمضى وقتا سعيدا . وفى الصباح المبكر انطلق بسيارته ودون حاجة إلى شيالين ..

لقد مضت على الرحلة سبعة أيام ، قطع فيها ٢٠٠ كيلو متر .. وما يزال أمامه ١٣٠٠ كيلو متر .. وعليه أن يجتاز منغوليا وصحراء جوبى . وهذا هو الجانب الخطير من الطريق..فالنهار ملتهب والليل جليد . وعلى الرغم من وجود محطات تلغرافية فى الطريق وهذه المحطات قد زودت بوقود للسيارات وطعام للمتسابقين ، فإن هناك مئات الكيلومترات من الطرق العارية التى خلت تماما من الإنسان والحيوان . فإذا توقفت السيارة ، توقفت الحياة أيضا . ولذلك فعلى السيارات جميعها أن تحمل وقودها وطعامها وقطع غيارها . وعلى السيارات أيضا أن تلقى بكل ما ليس ضروريا . وأن تكتفى بالقليل النافع من كل شئ ..

وراحت السيارات تلقى بأحمالها من الطعام والمشروبات والملابس . بل إن المهرج جودار قد ألقى بصندوق من الشمبانيا .

وتعطلت السيارات كلها فى الطريق . فاستأجروا الخيول لجرها يومين . ثم راحوا يدفعون هم هذه السيارات يوما كاملا . ورفضت القبائل البدوية معاونتهم لأسباب غير معروفة . وعلى الرغم من أن المهرج جودار حاول أن يكون ظريفا مع طفلة صغيرة . وحاول أن يضعها على سيارته على سبيل المداعبة .. ولكن القبائل لم تهتز لما حدث ولا فرحوا بالمداعبة بل انزعجوا لأنه أخذ منهم الطفلة . بل تركوه يجرى وراءهم ليعطيهم طفلتهم ..

وأصلحت السيارات واستأنفت السباق ..

وكان الأمير الإيطالى فى المقدمة ..

وكان المهرج جودار وسائق السيارة الهولندية وراءه .. أما الفرنسيون فكانوا فى المؤخرة .

وعلى الرغم من أن المسافة التى تفصلهم عن حدود سيبيريا الجنوبية حوالى ٣٠٠ كيلو متر .. فإن السيارات بدأت تلهث .. ورغم البرودة الهائلة للجو فإن السيارات تغلى وتنفث وتتهالك على جانبى الطريق ..

أما سيارة الأمير فقد غاصت فى الرمال الناعمة . واستأجر عددا من الخيول سحبت السيارة عبر الرمال والمستنقعات . ثم عادت فغاصت فى الرمال الناعمة . وراحت تدور حول نفسها ولا تتحرك . وجاء الفلاحون ومعهم الثيران . وسحبوا السيارة . وقرر الأمير أن يفك السيارة تماما . وأن يخلع عجلاتها. وأن يرفع موتورها وأن ينقلها إلى الأرض الجافة قطعة قطعة .. ثم يعيد تركيبها . ويعاود استكمال السباق ..

ووصل الأمير بورجيزة إلى مدينة على حدود الصين وروسيا القيصرية

وهناك استراح وأكل وشرب ونام . وحمل معه أكثر من خمسين لترا من الوقود .

ثم اتجه بسيارته إلى بحيرة بايكال ..

ووجد من المستحيل أن يعبر البحيرة بزورق يحمل هذه السيارة ولذلك قرر أن يدور حول البحيرة وكان عليه أن يعبر بسيارته أحد الجسور القائمة على نهر صغير ونزل من السيارة يختبر الجسر . وأدرك أن الجسر لن يقوى على حمل السيارة . وقيل له إنه فى الإمكان إصلاح هذا الجسر بعد أسبوع .

وفكر الأمير . ثم بعث برسالة إلى الحاكم العام يستأذنه فى أن يربط سيارته بأحد القطارات فوافق الحاكم العام . وارتبطت السيارة بالقطار الذى يمشى بسرعة عشرة كيلو مترات فى الساعة . وكان الطريق صعبا . وكان القطار يهز السيارة ويحطم ويفكك كل مساميرها ثم قرر الأمير أن ينفصل عن القطار ليلحق به فى مكان آخر .

وكان لابد أن يعبر جسرا على نهر . ونزل ليرى الجسر فوجد أنه ليس أحسن حالا من الجسور السابقة . واتجه بسيارته إلى الجسر . وعندما أصبح فى منتصف الجسر تداعت أعمدته الخشبية . وسقطت السيارة فى النهر . ولحسن الحظ سقطت على الإطارات الإحتياطية . فلم تتهشم .. أما الميكانيكى فقد أصيب بكدمات . ولكن الأمير لم يصب بسوء . وسحبوا السيارة وأعادوا ربطها وضبطها . وبعد خمس ساعات استأنفوا الرحلة ..

أما الآخرون فقد واجهتهم نفس المصاعب . وإن كان الأمير قد ترك لهم رسالة ينصحهم أن يبحثوا عن وسيلة أخرى لعبور البحيرة . ولكنهم لم يجدوا زورقا أو سفينة تنقل سياراتهم . ولذلك سلكوا نفس الطريق .. وإن كانوا قد شحنوا سياراتهم فى القطار . وعندما وصلوا إلى مدينة أركنسك يوم ٣ يوليو ، كان الأمير قد غادرها فى صباح ذلك اليوم .

ولاحظ المهرج جودار أن الزيت يتسرب من سيارته . فشحنها فى القطار إلى مدينة بعيدة وأصلحها هناك . وعاد بالقطار إلى نفس النقطة التى توقف عندها واستأنف الرحلة وسبقه الفرنسيون . وجاء مهندس ميكانيكى هولندى ومعه قطع غيار جديدة . فأصلح السيارة . وانطلق جودار من جديد . أما الفرنسيون فقد عبروا جبال الأورال واخترقوا المراعى المحترقة . وعلى الحدود الفاصلة بين أوروبا وآسيا توقفوا وشربوا الشمبانيا إبتهاجا بهذا النصر . وقرروا أن يناموا فى أحد الفنادق حتى الصباح وفى ساعة مبكرة صحوا على ضوضاء غريبة .. فقفزوا من الفراش . وأطلوا من البلكونة .. لقد وجدوا المهرج جودار قد لحقهم .. لأنه كان يقود سيارته عشرين ساعة فى اليوم ..

أما الأمير فقد وصل إلى هذه المنطقة منذ أسبوعين . وأتم الأن المئات الأخيرة من السباق . وكان الطريق أمامه واسعا مرصوفا .. وليس عليه إلا أن يجتاز ألمانيا بعد ذلك . وعندما وصل الأمير إلى موسكو أعلن أنه سوف يدخل باريس يوم ٥ أغسطس . أى بعد شهرين من بداية السباق .. واخترق الأمير ألمانيا ووصل إلى حدود فرنسا . ودخل باريس . واستقبلته الفرق الموسيقية .. وانتهى السباق بفوز الأمير الإيطالى الشجاع بورجيزه وانتصرت السيارة الإيطالية !

ولما سألوا الأمير عن سر تفوقه .

قال : إننى أصحو مبكرا ..

قيل له : نشاط وشباب ؟

فأجاب : أرق !

أما الآخرون فقد وصلوا إلى موسكو يوم ١٥ أغسطس واستقبلهم الروس بحرارة شديدة وأقاموا لهم الحفلات والمآدب . وهذه الحفاوة الشديدة قد أخرت السباق بضعة أيام ولكنهم فضلوا أن يكونوا معا !

وعبروا الأراضى الألمـانية . وقبل أن يقتربوا من الحدود الفرنسية . نشرت صحيفة « الصباح » الفرنسية أن المهرج جودارقد نصب على عدد من الدبلوماسيين فى الصين . وطلبت من البوليس أن يلقى القبض عليه . وبذلك يتأخر وصوله إلى فرنسا ويتقدم الفرنسيون إلى المركز الثانى فى السباق الدولى . ولمـا علمت شركة السيارات الهولندية أرسلت من يحل محل المهرج جودار . ويكمل السباق وجاء البوليس ومنع المهرج من ركوب السيارة .

ولم يدخل المهرج جودار السجن وإنما دخل سباقا آخر بين نيويورك وباريس عن طريق اليابان . وقبل أن يصل المهرج جودار إلى الشاطئ الغربى لأمريكا ذابت السيارة وتفككت كلها .. أما هو فقد سقط على الأرض وتدحرج فى إحدى القنوات .. وعندما خرج من المـاء فوجئ الناس بأنه ارتدى الملابس الأوروبية فوق الملابس الصينية التى كان يتفاءل بها .. وخلع الملابس الصينية وألقى بتمثال بوذا فى المـاء .. وراح يصلى على سيارته التى ماتت على حد قوله ثم تمدد إلى جوارها .. ونام .. وتركه الناس نائما .. ساعة .. ساعتين .. ثم حملوه وهو يحتضن بقايا سيارته ودفنوهما معا .. فقد مات جودار .. انها نكتة مؤلمة لمهرج عالمى !

ذهبت إلى الجنة

وعادت تروي ما حدث !؟

كانوا سبعة يجلسون على مائدة الطعام . وقبل أن ينتهوا من شرب القهوة وقفت هى لتقول لهم جميعا : أريد أن أنتهز هذه الفرصة السعيدة لاستودعكم الله .

قالوا : إلى أين .. إلى فرنسا .. إلى إيطاليا .. إلى القطب الشمالى .

تركتهم يتنقلون على خريطة أوروبا كلها .

وأخيرا قالت : إننى ذاهبة إلى الجنة .

قالت واحدة خبيثة : إذن أنت قررت الزواج ؟

قالت واحدة أخرى أكثر خبثا : لابد أنه الإنتحار فى مكان جميل مع شاب جميل ؟

وأمام هذا الضحك من الجميع كانت ملامحها جادة على غير عادتها .

وقالت : انها مغامرة !

وليس غريبا أن تعلن هذه الفتاة أنها ستقوم بمغامرة . فقد فعلت ذلك كثيرا .. خرجت فى الليل وحدها وعادت بذئب قتيل .. ثم ركبت زورقا وحطمت الزورق وعادت إلى الشاطئ بين الحياة والموت .. وصعدت برج إحدى الكنائس .. ثم تدلت بحبل حتى الأرض .

أما الأسباب فليست واضحة وإنما هى تقول عبارة واحدة : أريد شيئا يهزنى من أعماقى .. أريد شيئا يفزعنى حتى الموت ، يسعدنى حتى الموت ..

أما هذه المرة فقد جمعت ملابسها .. فى حقيبتين ، ثم حملت معها سريراً صغيرا . وركبت السفينة إلى سوريا . ومن سوريا اتجهت إلى إيران . وفى إيران سألت عن منطقة معينة .. تعرفها على الخريطة ولكن لا تعرف الكثير عن تفاصيلها . وعلى الحدود سألوها : أيتها الفتاة الإنجليزية فرايا ستارك ماذا تريدين من بلادنا .

قالت : إنى سائحة .

قالوا : وأى الأماكن تريدين ؟

قالت : أريد أن أرى الجنة التى أقامها الحشاشون فى القرن الحادى عشر فى منطقة جبال البروز .. وعند صخرة الموت ..

وضحك رجال الحدود وقالوا لها : ولكننا الآن فى مايو سنة ١٩٣٠

وعاد الإصرار على وجه الفتاة الإنجليزية . وأكدت أنها تعرف ذلك ولكنها تريد أن ترى ما تبقى من الجنة التى أقامها بعض الناس على الأرض من أجل قتل أناس آخرين

وعلى الرغم من أن فرايا استارك هذه كانت مغامرة فقط ، وأنها تريد أن ترى ، فقد أضافت إلى كل كتب الجغرافيا والتاريخ معلومات قيمة . عندما نشرت كتابها «رحلة فى وادى الحشاشين» . ولذلك فقد عاونتها « الجمعية الجغرافيا الملكية » فى تكاليف هذه الرحلة .

ولكن فرايا استارك فى خطاب لها إلى صديقة تقول : « إن الشئ الذى يبعث على السعادة حقا ، أن فى جيبى جنيهين .. ومعنى ذلك أننى لن أخاف من اللصوص .. فى استطاعتهم أن يسرقوا منى شيئا واحدا : النوم : ومع ذلك فأنا لا أنام إلا قليلا » !

وفى استطاعتك أن تتصور فتاة إنجليزية بمفردها فى يدها خريطة .

وتركب حصانا ومن ورائها إثنان من الشيالين . وقد اتجهت إلى مناطق جبلية .. هذه المناطق لم تر فتاة أوروبية من قبل . فالناس مهذبون . وهم يخفون دهشتهم فى أدب .

وكل ما تعرفه بوضوح هو : أن هناك جبلا اسمه جبل الموت . وقلعة الموت وصخرة الموت . وأن زعيم الحشاشين حسن الصباح كان يقيم فى هذه المنطقة . وأنه مات سنة ١١٢٤ . وكان له قصر اسمه قصرخان .

واتجهت فرايا استارك إلى منطقة الجبال العالية الموحشة . والناس يعترضون طريقها . وكان الشيالون يتولون شرح أسباب هذه الرحلة . الشيالون هم عزيز وسليمان وحجة الله .. وكانت تدفع لكل واحد أربعة شلنات كل يومين .

كتبت فرايا استارك تقول :

« هنا العزلة .. والهدوء والأحلام ورائحة الزهور .. كأننى فى عالم آخر أو كأننى أركب العربة الأخيرة فى قطار الزمن .. وكأن هؤلاء الناس موجودون هنا من ملايين السنين .. لم يتغير شئ .. ويبدو أن شيئا ولن يتغير » .

سألت فرايا استارك أحد شياليها : وأنت ماذا تريد ؟

فقال لا شئ !

قالت : لا أقصد ما الذى تريده منى ؟ ما الذى تريده من هذه الحياة

فأجاب : لا شئ .

ـ لا أمل لك فى شئ ؟

ـ لا أمل .

ـ ولا يأس من شئ ؟

ـ ولا يأس .

– سعيد أنت هكذا .

– هكذا سعيد ..

وتقول فرايا استارك أنها نظرت إلى ملابسه .. إلى وجهه .. إلى عينيه .. إلى شفتيه .. كل شئ هو الحد الأدنى من أى شئ .. فهل السعادة هى أن يكون للإنسان الحد الأدنى من كل شئ ..

نعم : السعادة أن يكون لدى الإنسان الحد الأدنى من أى شئ .. وهذا الحد الأقصى من القناعة !

واقتربت قافلة فرايا استارك الصغيرة من ممر شالا .. ممر ضيق .. ولكن على جانبه الزهور والورود .. وأحست أن العطر نفسه ثقيل كأنه ضباب يحجب عن الأنف أن يميز بين روائح الزهور ،وفى هذا الممر تنطلق البغال تحمل الناس والبضائع .. منذ ألوف السنين .. فلم يتغير هذا الطريق بين الصين والهند وسوريا ومصر .. ولم تتوقف الأقدام والحوافر والعطور والصمت والشمس والجليد فى القمم .. كل ذلك كأنه صدى لما كان من عشرات القرون ..

وفتحت فرايا استارك الخريطة لترى أين هو عرش سليمان . فالخريطة تقول أنه عند قمم هذه الجبال فوق صخور عالية له شكل العرش . ويقال إنه عرش سليمان أو أطلق عليه بعض الناس هذا الاسم .

وفى كتيب صغير قرأت : : انه إذا كان عرش سليمان على اليسار .. فإنه بعد أميال إلى اليمين يوجد « وادى الحشاشين » . وعندما حاولت فرايا استارك أن تطوى خريطتها ظهر لها أحد رجال البوليس : له لحية حمراء . وعينان سوداوان . وبسرعة امتدت يده إلى الخريطة .. وقلبها . ولم يفهم منها شيئا .. ثم عاد ونظر إلى سريرها وطلب منها أن تنشره على الأرض . تم طلب إلى الشيالين أن يضعوا الحقائب على الأرض وفتح الحقائب . وفتشها جيدا .

وقبل أن ينطق بكلمة واحدة أخرى كانت فرايا استارك قد خلعت البالطو والجاكتة والحذاء الغليظ والبنطلون .. وعلى الرغم من أنه أدرك أنها تسخر منه .. ولكن هذا اللمعان الغريب فى عينيه يدل على أنه قد أعجب بساقيها .. وكانت هى تعرف هذه الحقيقة !

ومضت القافلة فى دهشة مما حدث . ولكن الخجل الواضح على وجوه الشياليين أفقدهم النطق طول الطريق . أما هى فلم تنطق ، لا خجلا فليست هى من هذا الطراز الذى يستحى ، وإنما لأن المنظر أمامها يصيب من يراه بنشوة غامرة .. وكتبت فرايا استارك تقول : «هؤلاء الحشاشون كانوا يدخنون مرتين .. مرة عندما يملأون عيونهم وأنوفهم بهذا الجمال ، ومرة عندما يتعاطون الحشيش .. إننى أفضل هذا الحشيش الطبيعى » .

هنا فى وادى الحشاشين .. كان حسن الصباح — زعيم الحشاشين والذى كانوا يلقبونه شيخ الجبل . يزرع الحدائق ويكثر من الزهور .. وكان يشق الصخور لكى يهبط الماء .. وكان يجعل الزهور الحمراء إلى اليسار والصفراء إلى اليمين .. وفوق الجبل توجد قلعة الموت .. ومن هذه القلعة كان يطل حسن الصباح على الوادى .. وعلى رجاله من المؤمنين به .. وكان يقول لهم: لا صلاة إلا من أجلى..ولا صوم إلا بأمرى .. ولا معبود إلا أنا ..

وكان حسن الصباح عندما يهبط إلى الوادى ينظر إلى القلعة .. ويشير إلى أحد حراسه أن يهبط .. فيلقى بنفسه من أعلى القلعة .. ويهبط إلى الأرض ميتا — منتهى الطاعة العمياء ..

وهنا كان حسن الصباح يدعو صديقه الشاعر الصوفى الفلكى عمر الخيام . ويقال إن عمر الخيام كان يشرب النبيذ بطريقة جديدة .. كان حسن الصباح يصب النبيذ فى أحواض كبيرة .. ثم يأتى بالفتيات الجميلات يسبحن فى النبيذ . وكان يشرب النبيذ من فوق أجسام الفتيات .. وقد انتقلت موضة استحمام الفتيات فى النبيذ إلى أوروبا أيام الحروب الصليبية .. وانتقلت إلى أغانى

شعراء الطروبادور فى فرنسا وإسبانيا فكرة الجنة على الأرض .. أو الجنة التى استطاع إنسان أن يصنعها وأن يدخل إليها المؤمنين . ثم يطردهم منها .. ويرغبهم فيها إذا أطاعوا أوامره .. وكانت أوامره محددة : اقتلوا فلانا الوزير .. أو فلانا الملك ..

وكانوا يقتلون ..

واقتربت فرايا استارك من القلعة التى كانت مصدر الرعب والفزع منذ أكثر من ثمانية قرون .. لم يبق من هذه القلعة شئ .. لقد ظلت هذه القلعة وخمسون قلعة أخرى ، مهيبة قرنا ونصف قرن .. وكان من عادة حسن الصباح أن يدعو رجاله الفدائيين – إلى داخل القلعة ، وهناك يعطيهم الحشيش .. حتى ينتشوا تماما .. ثم تظهر أمامهم الفتيات الجميلات عاريات .. ثم يرون قنوات من لبن وخمر ومن عسل .. ويسمعون الموسيقى .. كأنهم فى الجنة ..

ثم يلقى بهم حسن الصباح إلى خارج القلعة .. ويعدهم أن قتلوا هذا أو ذاك أدخلهم الجنة مرة أخرى ..

واستمعت فرايا استارك إلى قصص وأناشيد وخرافات عجيبة عن سحر حسن الصباح وخلفائه من شيوخ الجبل وزعماء الحشاشين ..

فقد كان من عادة حسن الصباح أن ينشر رجاله فى كل مكان ليرووا للناس ماذا رأوا وكيف رأوا ؟ وكيف أن الجنة قريبة .. هناك فوق الجبل .. وأن فى استطاعة أى إنسان أن يدخل الجنة .. لأن الطريق إلى الجنة يقف على بابه رضوان ؟ ، ورضوان هذا هو حسن الصباح .. وفى استطاعة الناس أن يقتربوا إلى الجنة بدماء الآخرين أعداء حسن الصباح .. وكان على باب الجنة هذه ستة من الكلاب السود .. هذه الكلاب تصبح وحوشا أحيانا ، وتصبح فى وداعة القطط أحيانا .. لقد كان شيخ الجبل يعطيها الحشيش هى أيضا ! ..

وينشر هؤلاء الفدائيين قصص الذهب والفضة والمرجان الذى رأوه فى أرض وسقف الجنة .. وكيف أنهم جلسوا على الأرائك ينظرون .. وعن النعيم المقيم !

وكتبت فرايا استارك تقول فى كتابها : كنت أتمدد على سريرى .. وفجأة رأيت طفلا صغيرا .. وجاء الطفل وقدم لى زهرة .. وكانت تحية رقيقة صادقة صافية لم أتوقعها .. فأنا ما أزال فى ذهول مما أرى .. ورأيت الطفل يمد يده إلى الزهرة ثم يقطف منها ورقة .. ويأكلها .. وكانت عيناه تطلبان منى أن أفعل مثله .. وأكلت ورقة .. ثم ورقة .. ورابعة .. وأكلت الزهرة كلها .. والآن أستأنف كتابة هذه المذكرات بعد ثلاث ساعات أمضيتها فى النوم .. فقد كانت هذه الزهرة الجبلية نباتا مخدرا .. وكنت فى حاجة إلى النوم حقا .. وبصراحة لا أعرف بالضبط .. إن كان هذا قد حدث .. أو أننى أحلم أو أن بعض الأطعمة المخدرة قد أكلتها دون أن أدرى .. أوأننى إنضممت دون علم منى إلى جماعة الحشاشين .. لو ظهر لى الآن حسن الصباح لطبقت عليه أحد مبادئه : وذلك بأن أقتله هو .. »

وإلى هذه المنطقة التى رسمتها رسما دقيقا ، جاء المغول بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٦ وحاصروا هذه القلاع . ومن الغريب أن هذه القلاع ظلت صامدة عدة شهور ثم استسلمت .. وقتل هولاكو ١٢ ألفا من الحشاشين .. وكان فى جيش هولاكو عدد من المهندسين الفنيين .. وعدد من خبراء القلاع .. وقد دخل المهندسون الصينيون .. وعدد من خبراء القلاع .. وقد دخل المهندسون الصينيون إلى داخل القلاع وفتشوا عن الذهب والماس الذى وضعه حسن الصباح فى كهوف عميقة .. وحمل هولاكو هذه الثروات الخيالية معه .. أما المكتبة التى كانت تضم كتبا عن الإلحاد ، ألوف الكتب ، فقد أحرقها هولاكو . وقبل أن يحرقها سأل بعض الحشاشين من هو أعقلكم هنا ؟

فتقدم رجلان ..

فأمر هولاكو بقتلهما فورا وقال : : لو كانا عاقلين ما تقدما ..

ثم نظر إلى سبعة آخرين وقال : إذن أنتم أعقل الموجودين هنا ..

وأمر بإحراقهم وعشرات الألوف من الكتب ..

وتحولت الجنة الوهمية إلى نار حقيقية ..

وعادت فرايا استارك إلى انجلترا تحكى ما رأت ..

ويبدوا أن شيئا قد فاتها فى وادى الحشاشين .. ولذلك رجعت مرة أخرى إلى جبل البروز وإلى قرية الموت وصخرة الموت .

وقررت أن تفعل شيئا غريبا جنونيا .. حملت سريرها .. ونامت فى قلعة حسن الصباح .. أوفى بقايا هذه القلعة .. ومن العجيب أنها رأت فى نومها حسن الصباح ورأت الجنة .. ورأت أنهار اللبن والعسل والخمر والفتيات الجميلات وشبابا فى غاية الرجولة والجمال أيضا .. والذى أنهضها من نومها الغريب أن شابا كانت تحبه قد رأته فى الجنة أيضا .. ففزعت من نومها .. فهذا الشاب قد قتل فى حادث سيارة ..

وفى اليوم التالى قررت ألا تتناول أى طعام سوى الفاكهة .. فقد خافت أن يكون فى كل شئ حشيش : الهواء والماء والخبز والأرز .. وتمددت على سريرها وحدها .. وصحت من النوم فى ذهول أكثر : لقد أمضت ليلة طويلة عروسا لحسن الصباح .. زفة عروس .. وعروس .. وغرفة من ذهب وفضة وحرير .. تطير فوق السحاب .. ثم تهبط فوق الجليد .. ثم تنزل على عرش سليمان .. وأنها بلقيس .. ثم أحست أنها كليوباترة .. وعندما التفت حولها أفعى كليوباترة نهضت من نومها .. وجمعت حقائبها .. وتركت سريرها واتجهت إلى الشاطئ .. إلى البحر .. إلى انجلترا لتروى للناس كيف دخلت وخرجت ودخلت الجنة ! ..

تسعون يوما..
على ألواح خشبية
بحثا عن إله أبيض!

رجل وزوجته أقاما فى إحدى جزر المحيط الهادى بضع سنوات .. كل سكان الجزيرة عراة بدائيون ، ولكن الذى يبعث على الدهشة أن لهم ابتسامة دائمة .. وأن لهم شعرا أصفر وعيونا زرقاء .. وهذا عجيب . فكل سكان الجزيره من الصفر أو السمر ، ولكن هؤلاء البيض بدائيون أيضا .. فمن أين جاءوا ؟

ظل هذا الرجل يفكر كل سنوات الحرب العالمية الثانية . كانت عنده عدة فروض . ولا يوجد أى دليل علمى . ولذلك أخذ يجمع الأساطير القديمة والأغانى الشعبية . وراح يصور النقوش والتماثيل التى تتجه إلى الغرب وكلها تتجه إلى ناحية واحدة .

وفى إحدى الليالى كان هو وزوجته يتطلعان إلى القمر . والمحيط الهادى هادئ فعلا . لا موج . لا شئ يعلو من الماء . والنسيم عليل يسحب نفسه سحبا على السطح .. وفجأة هبت الريح . وعلت الأمواج .

ولاحظت زوجته شيئا عاديا . وعندما فكر فيه زوجها ظهرت أمامه رؤية جديدة .. لاحظت الزوجة أن الأمواج كلها تتكسر على شاطئ واحد .. أما بقية شواطئ الجزيرة فلا تتكسر عليها الأمواج . أو بعبارة أخرى أن الموج أو التيار يجئ من ناحية واحدة .. فلماذا لا يجئ أناس آخرون أيضا من هذه الناحية . أما هذه الناحية فهى أمريكا والمسافة بين هذه الجزيرة وأمريكا حوالى ٤٣٠٠ ميل ؟

لماذا ؟ ليس أسهل من الأسئلة وليس أصعب من الإجابة عليها .

وبهذه الملحوظة اكتملت النظرية فى رأس زوجها الرحالة الشاب تور هايردال وكان عليه أن يدرس أكثر ويتصفح خرائط أكثر . وأن يتصل بعدد من العلماء . وانتهت الحرب . وذهب إلى نيويورك . وقلب عشرات المئات من الكتب . وسجل ملاحظاته كلها فى بحث . وعرض البحث على أساتذة الجامعات الأمريكية . هزوا رؤوسهم وقالوا : مجهود عظيم ولكن نظرية خاطئة .

وكان رد هايردال : مجهود عظيم هذا صحيح . . والنظرية صحيحة حقا !

وآمن بنظريته . وصمم على أن يثبت صحتها . وهو فى حاجة إلى مال . وإلى عدد من الشبان المغامرين الذين يؤمنون بوجهة نظره هو أيضا . ويقامرون بحياتهم معه !

أما النظرية فهى : أن هؤلاء البيض الذين تناثروا فى جزر المحيط الهادى لابد أن يكونوا قد جاءوا من أمريكا الجنوبية . ولكن سكان أمريكا الجنوبية من ألوف السنين كانوا من الهنود الحمر . وليس معروفا عن الهنود الحمر أنهم كانوا يصنعون السفن ويرتادون المحيط . إذن من أين جاء هؤلاء البيض . لابد أن تكون هناك جماعة أخرى من البيض كانوا يسكنون أمريكا الجنوبية قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون . أما الأساطير فتقول إن هناك جماعة من البيض جاءوا من بعيد . وأساطير أمريكا الجنوبية تقول إن جماعة من البيض دارت بينهم وبين السكان الأصليين مذابح . هذه المذابح جعلت البيض يهجرون أمريكا ويتجهون إلى هذه الجزر . وكان يتزعم هؤلاء البيض الزعيم الإله « تيكى » .. وكانوا يطلقون عليه كلمة « إله » العربية هذه — وهذا غريب !

ولاحظ تور هايردال أن هناك تماثيل عجيبة الشكل والحجم . وأن بعضها فى غاية الدقة. وأن هذه التماثيل شبيهة بالتماثيل الموجودة فى بيرو فى أمريكا الجنوبية. مع أن المسافة بينهما أكثر من أربعة آلاف ميل .. ولاحظ أن لغة جزر هاواى تشبه لغة جزر تاهيتى مع أن المسافة بين هذه الجزر تعد بألوف الأميال.

إذن لابد أن تكون الشعوب التى عاشت فى هذه الجزر واحدة أو أنه شعب واحد يختلف عن كل الشعوب الآسيوية ..

ثم اكتشف هايردال أنه إذا كان هؤلاء البيض الذين سكنوا أمريكا الجنوبية وهاجروا إلى هــذه الجزر لم يتركوا سفنا كبيرة فما المانع أن يعبروا المحيط الهادى فى زوارق صغيرة ؟

وكل المعلومات القديمة تؤكد أن أبناء الشواطئ الغربية لأمريكا كانوا يستخدمون خشب البالسا فى صنع الزوارق . إذن لابد من القيام بالتجربة وأعلن عن رحلته .. وتحدثت الصحف وأجهزة الإعلام الأخرى . وتقدم هايردال إلى وزارة الطيران الأمريكى فساعدته وأعطته زوارق لم تجربها بعد . ووزارة التموين البريطانية أعطته أنواعا من الحبوب تريد أن تجربها .. ثم تقدم خمسة رجال آخرون يريدون أن يساهموا فى هذه الرحلة .. أصبحوا ستة الآن . خمسة من النرويج وواحد سويدى .

واعترض هايردال على تزويد زورقه الجديد بجهاز لاسلكى لأنه أراد أن يعيش فى نفس الظروف التى عاشها المهاجرون البيض من ألوف السنين . ولكن زملاءه نبهوه إلى أن هذا الجهاز لا يفيد فى أى شئ . لأنهم إذا غرقوا فلن يستطيع أحد إنقاذهم . ولكنه ضرورى لكى ينقلوا إلى العالم أحوال الطقس . أو ليصححوا مسارهم .. وأخيرا وافق ..

إذن لا يستبعد أن يكون المهاجرون الأمريكان البيض قد استخدموا زوارق صغيرة . وعاشوا على صيد السمك وشرب ماء المطر . وقطعوا كل هذه المسافة . ممكن .

وظهرت مشكلة جديدة : من أين يأتى بخشب البالسا ؟ فهذا الخشب لا يوجد فى بيرو التى تقع على الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية . وإنما يوجد فى الداخل فى دولة إكوادور . وعليه أن يذهب إلى إكوادور ويقطع أشجار البالسا ثم يقوم بتعويمها فى النهر إلى الشاطئ .. وعلى الشاطئ يجب أن يصنع هذا الزورق مستخدما الفأس والسكين . وفى ميناء «كالا» بدولة بيرو ، جلس

الستة يصنعون زورقهم من ألواح خشبية متراصة . لا مسامير ولا أسلاك . وإنما من الحبال وصنعوا أيضا شراعا مثلثا . وآخر مربعا . واستخدموا المجاديف . وكانت الدفة مجدافا أيضا . وجعلوا فوق الألواح الخشبية غرفة ينامون فيها . وكان العالم كله يتابع أخبار هؤلاء المغامرين الذين وصفهم الأديب الإنجليزى سومرست موم : بأنهم أنعشوا الروح الأوروبية التى انهارت بعد الحرب العالمية الثانية . وأن الذين عندهم بلادة ذهنية فقط هم الذين يستطيعون تجاهل مثل هذا العمل العظيم ..

وفى أحد الأيام جاء وزير بحرية بيرو . ونظر إلى الميناء وإلى أرصفة السفن . وسأل عن الزورق الذى سوف يعبر المحيط . ولكنه لم يستطع أن يراه وأخيرا دلوه على كومة من الخشب البنى اللون متراصة بعضها إلى جوار بعض . فضحك ثم طلب إلى هؤلاء الستة أن يوقعوا على وثيقة تقول إن هذه الرحلة على مسئوليتهم وحدهم !

وجاء يوم السفر . وكان ذلك يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٧ .

وتطلع الناس إلى الزورق الصغير الذى اختار له هايردال اسم « كون تيكى » أى إله الشمس .. ثم صعدت ثلاث فتيات جميلات إلى ظهر الزورق الصغير .. وجاء لنش وسحبه إلى خارج الميناء .. وبعد ذلك نزلت الفتيات الثلاث .. وركب البحارة الستة .. وتعالت الصيحات والموسيقى تتمنى للمغامرين النجاح فى هذه الرحلة المجهولة وتطلع هؤلاء الشبان إلى الجبال العالية . إنها ما تزال راسخة وظلت راسخة أمامهم ساعات طويلة .. والزورق لا يتحرك من مكانه . حتى هبت نسمة .. وامتلأ الشراع . وراحوا يلقون قطع الورق ليروا حركة الزورق .. وكان يتحرك .. وجاء الليل واختفى كل شئ بعيدا . وقد اقترح عليهم بعض الأصدقاء أن يستخدموا المصابيح الكهربية ليلا . لأنهم يمشون فى طريق ملاحى . فقد تغرقهم السفن الكبرى دون أن تراهم أو تدرى بهم . وقد عارضوا أول الأمر . ثم وافقوا .. وبقياس سرعة الزورق

لاحظوا أنه سار فى الأربع والعشرين ساعة مسافة ٥٥ ميلا أى بمعدل ميلين فى الساعة .. وجلس البحارة على صناديق الطعام . وقد ارتبط كل واحد منهم بحبل حتى لا يسقط فى الماء .. وناموا مهمومين جميعا .. إلا واحداً . هذا الواحد هو ببغاء فى قفص كان يتناول الأسماك التى تتناثر من الماء وتسقط على الزورق . وأحس البحارة الستة أن العزلة تامة ! . لا أحد . لا شئ . البحر حولهم . لا نهاية لأى شئ . وقد قدروا هذه الرحلة بحوالى سبعة وتسعين يوما إذا لم يحدث شئ غير عادى ..

وتوالت الليالى ..

وفى إحدى الليالى صحا واحد منهم على شئ بارد يلعب فى قفاه . وكان الليل أسود . وصرخ . وأشعل عود كبريت . فوجد ثعبانا طويلا . وفى فم الثعبان سمكة . سقطت السمكة . ثم خرجت من فمه سمكة أخرى . وتعاونوا على قتله . وكان من الثعابين النادرة . أما هذا الصوت الغريب الذى يسمعونه ليلا إلى جوار الزورق فهو : سمك القرش .. لم يفارقهم ليلا أو نهارا .. أما هذه الجزر الصغيرة التى تعلو وتهبط فهى عشرات الحيتان ..

وبعد ذلك لم يعرفوا للنوم العميق طعما . فهم يتوقعون زيارات مفاجئة شاذة كل ليلة : صوت سمك قرش .. ثعابين .. أخطبوط — وفى هذه المناطق أنواع من هذا الأخطبوط قادرة على أن تحطم عنق أى إنسان بذراعين من أذرعها فقط !

وحاول هايردال أن يختبر أخشاب الزورق . وكان يخشى أن تتمزق الحبال .. وفى هذه الحالة يصبح الزورق مجموعة من الحبال والألواح .. ولكنه لاحظ أن الحبال قد التصقت بالأخشاب تماما . وأنه لحسن الحظ قد اختار نوعا من الأخشاب الخضراء . ولو كانت هذه الأخشاب جافة لشربت الماء .. ولكن هذه الأخشاب الخضراء قد وقفت فى وجه الماء ولم تغص بالزورق إلا مليمترات قليلة .. مجرد صدفة سعيدة !

أما حياتهم اليومية فهى صيد السمك .. والسباحة إلى جوار الزورق أحيانا وتناوب الدفة ساعة أو ساعتين وبعد ذلك يستريحون .. وفى أثناء العواصف يرتبك النظام ويصحون جميعا ويتماسكون . وفى إحدى المرات سقط واحد منهم فى الماء . وكان الموج عاليا . ولم يفلحوا فى إنقاذه . فهبط واحد منهم وقد لف حبلا حول وسطه .. وسحبه .. وحاول الجميع سحب الاثنين وفى مرة ثانية سقطت أغطية واحد منهم فمال يلتقطها من الماء . وأنقذوه بصعوبة وكان وراءه سمك القرش .. وفى آخر لحظة قفز إلى الزورق !

وعندما يصفو الجو ، يضحكون ، ويلعبون . ويستمعون إلى الموسيقى ويتصلون بهواة اللاسلكى . وكان واحد فى العالم كله هو الذى يعرف مكانهم وأخبارهم أولا بأول وقد لاحظ هايردال أن الصور التى يلتقطها عندما يقوم بتحميضها تكون باهتة .. فما السبب ؟ واتصل باللاسلكى . وعرف عن طريق أحد الخبراء أن جهاز التحميض ساخن . ولذلك يجب تبريده . واخترعوا طريقة للتبريد للحصول على ثلج أيضا !

وكانت معهم أدوية من كل نوع .. ولكن فى إحدى الليالى شكا واحد منهم من مغص شديد . فاتصل باللاسلكى بأحد المستشفيات فى أمريكا وردت عليه إحدى الطبيبات بأن هذه هى أعراض مصران أعور . وجاء رد البحار بأنه تخلص من المصران الأعور منذ سنوات .. فقالت الطبيبة : لابد أن لديك أعور آخر .

وعاد البحار يقول إننا فى المحيط وأن الأمر خطير . وأنه لا توجد أية وسيلة للنجاة .. فاعتذرت الطبيبة عن هذه المداعبة . وأيقظت طبيبا عالميا فى مستشفى « مايو » الشهير . وطلب إليه الطبيب أن يكف عن التدخين ..

وتوقف عن التدخين فى ذلك اليوم وذهب المغص !

ومضت أيام تحول فيها الزورق إلى حديقة نباتات . فالبذور التى حملوها

معهم قد نمت . والبصيلات قد طالت .. حتى الببغاء هو الآخر قد ازداد مرحا وسعادة ..

وجاءت موجة عالية فأطاحت به هو والقفص فى الماء . وكانوا يحلمون له بعروس فى إحدى الجزر !

وبين الحين والحين يأتى هايردال بسكين ويدقها فى خشب الزورق ليعرف مدى تشبعه بالماء . وكان يلاحظ أن قلب الخشب جاف أصم تماما !

وفى إحدى الليالى القمرية وراح واحد منهم يردد أغنية شعبية نرويجية تقول : كان ذلك دون علمى ..

ثم توقف فجأة وسأل : من هذا المجنون الذى أقنعنا بأن نجئ إلى هذه المناطق الموحشة وبهذه الصورة ؟ !

وضحك الجميع .

وحاولوا تضييع الوقت . فتساءل واحد منهم : ما هى أمنيتك . فأجاب : أن أصل إلى أية جزيرة ؟

وقال الثانى : أن أنام وأصحو على نهاية هذا الجنون ؟

وقال الثالث : أن يجئ حوت ويحمل سفينتنا على ظهره بقية الطريق .

وقال الرابع : أن أتمدد على الشاطئ !

وقال الخامس : أن أتزوج .

وقال السادس : أن يكون كل ما أراه حلما !

وعاد الأول يقول : أما أنا فأمنيتى ألا أرى وجوهكم !

وتلفت واحد يصرخ ويقول : انظروا .. انظروا كيف تحول الحلم إلى حقيقة !

ونظروا .. وكانت مجموعة من الطيور .. إذن هم قريبون من أرض .. من جزيرة . وكان ذلك فى نهاية يوليو .. أى بعد حوالى تسعين يوما من الرحلة .. وصرخوا من الفرحة والسعادة . وعادوا إلى خرائطهم . وقالوا لابد أنها جزر يوكايوكا .. واقتربوا منها . ومروا بها . ولم يتمكنوا من الاقتراب لوجود صخور ناتئة وشعاب مرجانية حادة . ودفعتهم الريح بعيدا عنها ..

وفى اليوم السابع والتسعين اقتربوا من جزيرة أناجاتو .. ولاحظوا أن رجلا كبيرا جاء فى زورق صغير واقترب منهم . وقال لهم : مساء الخير .. قالها باللغة الإنجليزية واندهشوا وتحدثوا إليه بالإنجليزية . ولكنهم اكتشفوا أنه لا يعرف إلا هاتين الكلمتين . وعرفوا أن هذه جزر أناجاتو .. ولم يتمكنوا من الاقتراب منها .

وحاولوا الدوران ..

ولكن الموج كان عاتيا . وتمزقت الحبال .. كأنها أحست أنها قد أدت واجبها وأكثر . وأطلقت للألواح الخشبية حرية الحركة . وتحطم الزورق وانتهت الرحلة ولكن البحارة قد وضعوا الأجهزة فى علب لا ينفذ إليها الماء وألقوا بها فى الماء .. فى المحيط .. ثم جاء رجال الجزر وجمعوا الألواح . وجاءت سفينة ونقلت الحطام إلى جزر تاهيتى وبعد ذلك حملوها إلى أوروبا .. ووضعت هذه السفينة التاريخية فى متحف فى مدينة أوسلو عاصمة النرويج ..

أما الرحلة فقد نجحت . وأما النظرية فلا تزال حائرة بين الذين يؤيدونها وبين الذين يرفضونها .. ولكن بقيت مشكلة الإله الأبيض الذى أقيمت له التماثيل الغريبة .

لقد كان لغزا.. هل هو رجل أبيض هل هو واحد من الذين هبطوا من السماء؟

وفى آخر ليلة لهم .. تلقوا رسالة من أحد هواة اللاسلكى يقول : أنا أعرف

مكانكم الآن تماما .. الصوت واضح .. فقالوا له : انتهت رحلتنا .. فقال لهم : مبروك .. هل تسمحون لجيني أن تبعث لكم بقبلة ؟ .. فتزاحموا على الجهاز وقالوا : دعها تقبلنا جميعا فى وقت واحد .

وسمع الجميع صوت قبلة ..

ثم سألوه : كم يبلغ عمر جيني ؟

فقال : إنها ليست كبيرة .. إنها جدتي عمرها تسعون عاما !

فضحكوا قائلين : شكرا لك يا جيني .. نحن نتفاءل بهذا الرقم أيضا !

الطبيب الذى قرر
أن يعبر المحيط غريقا !

بالصدفة قرأ صحيفة تقول إن رجلا استطاع أن يمتنع عن الطعام أربعين يوما ولم يمت . كان يشرب الماء فقط . وعند نهاية هذه المدة سألوه : ماذا تريد قال : أن أقتل زوج أختى ! ولما سئل عن السبب. قال : لأنه هو صاحب فكرة أن يضرب الإنسان عن الطعام مقابل مبلغ تافه من المال !

ومعنى ذلك أن هذه الأيام الأربعين لم تكن مجرد جوع مستمر . وإنما كانت جوعا وعذابا وانتظارا للانتقام !

وفى نفس اليوم تسلم مستشفى (بولونى – على – البحر) فى فرنسا جثث ٤٣ غريقا .. وكان ذلك فى أحد أيام سنة ١٩٥١ . وتشاء الصدفة مرة أخرى أن يكون فى استقبال هذه الجثث طبيب شاب اسمه : آلان بومبار . وعلى الرغم من أنه طبيب ، وأنه ككل الأطباء ، قد اعتاد على الدم والصرخات والآهات فإنه أصيب بحالة من الفزع .. لقد رأى على وجوه الغرقى أشكالا وألوانا من الخوف والصراخ المكتوم . فليس أبشع من أن يموت الإنسان غريقا : أى بعد صراع يائس مع البحر والشمس والعطش .. إنها العزلة الموحشة التى تقتل أى إنسان !

وكان هذا الطبيب مشغولا فى ذلك الوقت ببحث عن الجوع والتضور . ماذا يحدث للإنسان الجائع ؟ وكم يوما يحتمل الجوع والعطش . فهو يعلم أن أعمال إنقاذ الغريق تتوقف بعد عشرة أيام . وبعدها يستحيل على الجسم الإنسانى أن يقاوم .

وخطرت له فكرة : ولكن لماذا لا يقاوم الإنسان ويلات المحيط . ان

المحيط ليس عميقا . ففيه أسماك من الممكن أن يأكلها . وهناك ماء المطر من الممكن أن يشربه .

وقرر الطبيب بومبار أن يدرس السمك . ومن دراسة السمك عرف أن السوائل الموجودة فى داخل السمك تحتوى على نسبة قليلة من الملح . ومعنى ذلك أن هذا السائل يمكن للغريق أن يمتصه . فى استطاعة الغريق أن يعيش على « عصير » السمك .

ودارت فى رأسه فكرة أخرى : لماذا لا أجرب حياة الغرق . لماذا لا أعيش كغريق وأكتشف بنفسى ماذا يحدث لأى إنسان لو غرق . ان كل ما سوف أكتشفه سيؤدى إلى إنقاذ ألوف الناس !

ومن المؤكد — من وجهة نظره — أن أى غريق ليس غريقا تماما .. فأمامه فرص للنجاة لا شك فيها ؟

وأعلن عن فكرته ..

ونشرتها الصحف . واتصل به أحد الأثرياء الهولنديين . وطلب إليه أن يجرب أنواعا جديدة من زوارق النجاة المصنوعة من المطاط . أما الزورق فهو عبارة عن « طوف » له موتور . ركبه فى بحر عاصف . ونجحت التجربة . وأعلن عن حاجته لزورق أكبر يستطيع أن يواجه ويقاوم ويطفو على أمواج المحيط . وكما هى العادة تقدم له أناس كثيرون متحمسون ..

وسافر الطبيب إلى مدينة موناكو . وفى هذه المدينة أقام معملا صغيرا فى متحف الأحياء المائية . وهناك أجرى تجارب جديدة على الأسماك . واكتشف أن السمك غنى بالبروتينات الضرورية . ووجد فيه كمية كبيرة من الدهون وكذلك فيتامينات ا وب و ب٢ ود . أما فيتامين ج فموجود فى الأعشاب البحرية . واكتشف أن السمك به من ٥٠٪ إلى ٨٠٪ من السوائل . ومعنى

هذا أن سبعة أرطال من السمك التى يصيدها أى غريق فى اليوم تكفيه للشرب ٢٤ ساعة .

ولكن ماذا حدث إذا مضت أيام دون أن يصيد الغريق سمكة واحدة ؟ فى هذه الحالة يجب أن يشرب من ماء البحر . ولذلك يجب أن يدرس كمية ماء البحر التى يتحملها الغريق . ومن المعروف أن الامتلاء بماء البحر يؤدى إلى الالتهاب الكلوى والموت الأكيد . غير أن تحليله لماء البحر قد هداه إلى أن كوبا ونصفا من ماء البحر يوميا ولمدة خمسة أيام لا تهدد الكليتين ! وانتهى الطبيب بومبار إلى أن وجبة متوازنة من الطعام سوف تمكنه من الحياة !

أما القرار النهائى الذى اتخذه فهو : سوف أعبر المحيط غريقا وفى نفس الطريق الذى سار فيه خريستوف كولمبوس عندما اكتشف امريكا سنة ١٤٩٢.

وعاد الطبيب بومبار يراجع معلوماته كلها .. فوجد أنه قد درس الأسماك دراسة وافية ودرس الأمواج واتجاه الريح . والتيارات المائية . واستطاع بعد ذلك أن يقول لبعض أصدقائه : ان معلوماتى عن الملاحة أوسع وأعمق من معلومات كولمبوس !

وكان خاطئا فى هذا الوهم !

ولم يتردد كثير من أصدقائه فى أن يصارحه بأنه شاب مجنون . وهو على يقين من أن أصحاب الأفكار المجنونة هم الذين أنقذوا البشرية مئات المرات .

أما الزورق الذى اختاره فكان من المطاط على شكل حدوة الحصان . وله سارية وشراع ومزود بعوامات من المطاط . أما هو فقد لف حول جسمه أطواق النجاة . واختار لهذا الزورق الصغير اسم « الفاجر » و « الفاجرة » .. ومن المضحك أن أحد الذين أعجبوا بهذه المغامرة قد عرض نفسه لأن يكون طعاما للسمك ثم يحدث العالم بعدذلك .. عما يشعر به أى إنسان وهو يموت قطعة قطعة !

وقام الطبيب بومبار برحلته العذراء من ميناء موناكو يوم ٢٤ مايو سنة ١٩٥٢ . . إلى البحر الأبيض متجها إلى جبل طارق . ومعه صديق إنجليزى . استغرقت الرحلة ١٢ يوما ، أكلا فيها الأسماك وشربا ماء المطر وكانت الأعشاب البحرية لها طعم الجمبرى أو الكابوريا المسلوقة . وقد أصيب الاثنان بالتهابات شديدة فى اللثة . وعندما وصل الاثنان إلى جزيرة مايوركا الأسبانية كانا قد ضربا رقما قياسيا فى البقاء فى الماء والحياة على حيوانات البحر .

ومن جزيرة مايوركا جاءت سفينة وحملت الزورق الفاجر إلى جزر الكنارى ، ومن هذه الجزر خرج كولمبوس فى رحلته المشهورة . وهرب الصديق الإنجليزى . وقرر الطبيب أن يمضى وحده . غريقاً . أما الأشياء التى حملها معه فهى الضروريات فقط . فمعه صندوقان : امتلآ بالأطعمة المحفوظة وقد كتب بها قائمة . وطلب إلى الجهات المسئولة أن توقع عليها . فقد وعد الطبيب ألا يلجأ إلى هذه الأطعمة إلا إذا كان مهددا بالموت وصندوق آخر به بعض العقاقير الطبية . ثم حمل معه لفتين من الحبال وخرطوشة كبريت وإبرة وبكرة خيط وراديو بطارية . ومعه ورق . وبعض الكتب .

وفى يوم الأحد ٩ أكتوبر سنة ١٩٥٢ خرج الزورق الفاجر مسحوبا إلى خارج جزر الكنارى . والناس يهتفون ويصرخون ويلقون عليه الورود .. أما كل السفن الكبرى عابرات المحيط فقد أطلقت صفاراتها تحية للمغامر الشاب . ووقف رجال الدين يتطلعون إلى أسماء يدعون الله أن يوفقه فى هذه الرحلة الإنسانية !

وعاد اللنش الذى سحبه إلى خارج الميناء . وبعد ذلك أصبح الطبيب وحده تماما . وكان الجو جميلا هادئا . وأوقد فانوسا صغيراً حتى لاتصطدم به السفن الكبرى . ووضع رأسه على طوق نجاة . وترك الزورق للموج والتيارات البحرية . وفى هذه اللحظة فكر فى زوجته . وقال : مسكينة أن تتزوجى

طبيبا مجنونا مثلى . . ألم أقل لك أن ابن عمك كان أفضل . . أنه قروى صاحب دواجن وأبقار وحدائق . وسوف يعيش ويموت إلى جوارك . . ولكنك أنت التى رفضت . إذن . . هو قدرك أن تتزوجى طبيبا لايحترف الطب وإنما يهوى الملاحة ويحترف الجنون ! مسكينة !

ثم اكتشف أنه هو المسكين حقيقة . فلن يرى فى هذا المحيط سفينة ولا طائرة — كما اعتاد أن يرى فى البحر الأبيض . وإنما هنا صمت ولا نهاية لأى شىء . . لا نهاية للبحر ولا للسماء ولا للهواء . ولا للفزع . وحده تماما .

وطلع الصباح ولم تتحرك الريح . . ولكنه لاحظ أن الزورق (الفاجر) قد اتجه إلى الجنوب أكثر مما يجب . وجاء اليوم الثالث . ولا ريح . كل شىء ساكن جامد ميت كأن الكون كله يتفرج عليه . . ولم يتمكن من صيد سمكة واحدة . وشرب نصيبه من ماء البحر . وفى الليل هبت الرياح التجارية واشتدت . وظل طول الليل ساهرا . والحقيقة أنه أوقظ بعنف من نومه . . فقد غطت الأمواج ظهر الزورق . ومزقت الرياح شراع الزورق أيضا وراح يلقى بالماء من فوق ظهر الزورق إلى المحيط . وكان الجو بارداً . وقد لسعه البرد . وبعد أن تأكدت الريح من أنه أصبح يتلوى كالسمك ، هدأت حتى الموت . وفى النهار تحول الزورق إلى ملاحة . . كل شىء يغطى بالملح . وهو أيضا قد غطاه الملح . ولا أمل فى إزالته .

وعندما طلع النهار أصبح واضحا أن الريح قد مزقت الشراع . واضطر الطبيب إلى إلقاء المرساة فى الماء ، ليتوقف الزورق حتى يتمكن من إصلاح الشراع ، وراح يخيط هذه الثقوب ولكنه لايدرى ما الذى سوف تفعله الرياح مرة أخرى بالشراع .

وفى صباح اليوم التالى لاحظ بقعا زرقاء متحركة تحت الماء . . فأدرك أن طابورا من الأسماك فى الطريق إليه . ووراء هذه الأسماك جاءت الدرافيل .

وربط سكينا فى مجداف . ثم أصاب بالسكين درفيلا . وقتله . . وسحبه إلى ظهر الزورق . . أخيراً وجد طعاما . وجبة واحدة على الأقل !

وكان الطبيب يظن أن الوحدة لاتخيف . وكان هذا رأيه وهو على مرأى من الشاطئ والسفن والطائرات . أما الآن . . فلا شئ . . أنه شئ تافه بين عالم رهيب لايمكن أن يوصف !

وظلت الدرافيل تتابع الزورق الفاجر ولكن بحرص على مسافة منه . أما الأسماك الطائرة فقد كانت ترتاد الزورق ذهابا وإيابا . وتعلوه وتتساقط عليه ثم ترتد على الماء ولها طعم الفسيخ ورائحة الكلاب الميتة !

وفى يوم ٢٧ أكتوبر كان عيد ميلاده فقد بلغ الثامنة والعشرين فى هذه اللحظة وأقام لنفسه وليمة . فاصطاد طائرا بحريا . وأكل نصفه فى العشاء . وترك النصف الآخر للغداء . . ولاحظ وهو يتقلب فى الليل أن هناك أشباحا على ظهر الزورق تروح وتجئ . . هل من المعقول أنها عفاريت البحر ؟ هل صحيح ما يرى ؟ أم أن الذى يراه خداع بصرى فقط . فأشعل عودا من الكبريت . . ووجد أن هذا الضوء الفسفورى ينبعث من النصف الآخر للطائر ؟

ونظر فى ساعته الاوتوماتيكية فوجدها قد توقفت تماما . وهذه كارثة لم تكن فى حسابه . فمنذ الآن لن يعرف الوقت . ولن يعرف سرعة الزورق « الفاجر » . .

وفرض على نفسه نظاما قاسيا : أن ينهض مع شروق الشمس . ويصيد السمك الطائر ويشرب أكبر كمية من ماء المطر . ويستريح ساعة . ثم ينهض بعد ذلك ويحدد المسار الصحيح لهذا الزورق الذى يبلغ طوله ٢٨ قدما . ويبدو فى بعض الأحيان أنه قدم واحدة ! وعليه بعد ذلك أن يقرأ فى أحد الكتب . ثم يسجل ملاحظاته . فقد وعد بتأليف كتاب عن هذه المغامرة .

وفجأة ألقى الكتاب من يده . . فقد لاحظ أن سمكة قرش تحاول أن تمزق المطاط . ولكن لحسن الحظ كان المطاط أكبر من فمها . فتركته السمكة ومن ملاحظاته أيضا أن سمك القرش جبان . يكفى أن تدق رأسه وبعد ذلك يتحول إلى قطعة من اللحم الطافية .

أما الذى حدث له بعد هذه الوجبات البحرية فواضح تماما : فأظافره تكسرت . وفقد ثلاثة أظافر والتهبت مؤخرته وظهرت عليها الدمامل . وكان من الصعب عليه أن يجلس . وحتى لايسقط من الارهاق فإنه قد ربط نفسه بسارية الزورق بحبل متين . .

ورغم ذلك كان شديد التفاؤل . .

وهبت الرياح التجارية . وتحرك الزورق الفاجر بسرعة أكبر . وكان الطبيب على يقين من أنه سوف يرى الأرض بعد ثلاثة أسابيع على الأكثر . ولابد أنه اقتنع فى هذه اللحظة أن الملاحة ليست سهلة . ولا أن معلوماته أكثر من معلومات كولمبوس .

وفى يوم الأحد ٧ نوفمبر كان من الممكن أن تنتهى المرحلة تماما . نهاية مفاجئة . فقد سقط طوق النجاة الذى كان يلفه دائما حول جسمه . وألقى بنفسه فى المحيط ليأتى به . وهنا ابتعد الزورق قليلا . . قليلا . . ان المسافة التى يراها الآن بينه وبين الزورق يمكن اعتبارها ألف متر . . مليون متر . . كأن الزورق قرر أن يعبر المحيط وحده . . حاول الطبيب أن يدرك الزورق فلم يستطع . . وهنا فقط تنطلق القوة الكامنة الاحتياطية الموجودة فى جسم الانسان . والتى لاتظهر إلا فى مواجهة الموت المحقق . ضرب بزراعيه ورجليه . . ولكن الزورق بعيد . . هنا حدثت المعجزة لقد انقطع الحبل الذى يمسك المرساة . . سقطت المرساة فى المحيط أما الحبل فقد طفا على الماء.. وامتدت يد الطبيب وأمسك الحبل . وتوقف الزورق تماما . واقترب الطبيب وصعد إلى الزورق . . واستأنف الرحلة الجنونية !

وفى صباح اليوم التالى رأى سفينة من بعيد . . حاول بكل الحيل أن يلفت النظر إليه . . ولكن السفينة مضت ولم يلاحظ أحد هذه البقعة السوداء فقال بومبار لنفسه : مسكين يا أى غريق !

ورأى أسراب الطيور . أدرك أن الأرض قريبة . . ربما على مدى أسبوعين أو ثلاثة . وأصيب بالتهاب شديد فى أذنه — التهاب فى الغدة النكفية . وكان يأمل أن يصل إلى جزر الهند الغربية أى على مقربة من الساحل الأمريكى فيما بين ٢٣ و ٣٠ نوفمبر . ولم يخطر على باله أنه سوف يظل فى المحيط حتى نهاية ديسمبر !

وظلت الدرافيل تتابع الفاجر . . وفى يوم ٨ نوفمبر لاحظ أن الراديو الذى أخذ صوته يخفت ، قد فقد النطق تماما . وهذه كارثة أخرى !

أما فى يوم ١١ نوفمبر فقد هدأ البحر . وسكت الريح . وتحول الماء إلى لون الزيت ونعومته . وعرف بومبار أن هذا هو الهدوء الذى يسبق المطر ، فخلع ملابسه تماما . ووقف عاريا ونزل المطر . واستحم بالماء العذب . وراح يغسل الملح الذى التصق بجسمه وأشعل فيه النار . وراح يملأ يديه ويشرب . . وملأ إطارا من المطاط بالماء العذب . . وتكاثرت الأمطار وغطت الزورق وكاد يغرق فى الماء الحلو ! وراح يضحك فى جنون وهو يقول : إننى أكاد أغرق مرتين ثم يقول : أنا الرجل الوحيد الذى يلتى بالماء الحلو فى الماء المالح !

أما هذا الصوت الغريب الذى سمعه . . وهز الزورق بعنف . فليس المطر طبعا . ولا الريح . فلا ريح . ولا هى درافيل إنها بعيدة . ولكن هناك أسماكا كبيرة اسمها أبو سيف قد حطمت الدفة . وبعد ذلك اتجهت إلى الزورق نفسه . وهى تحاول شيئا آخر . ولكنها لم تفلح فاتجهت بعيدا عن الزورق !

وتوقف المطر بعد يومين وبدأ يشعر بآلام شديدة فى كل مكان . فجسمه

قد تغطى بالدمامل . . وأظافره تساقطت وتورمت أصابعه كلها . وجلد قدميه بدأ يتساقط . . وأحس كأن أعصابه كلها عارية ملتهبة . . والملح يشويها .

وظهرت الشمس فكانت أقسى من الملح . وراح يتوارى منها بكل مالديه ولكن لاأمل . . انه قطعة من النار تهرب من الماء إلى النار . . وأحس أنه فقد الاتجاه تماما . فهو لايعرف أين هو . . ولا أين تقع الأرض القريبة .
ووقف الفاجر تماما . لايتقدم . .

وفى يوم ٢٣ نوفمبر لم تظهر الأرض كما كان يتوقع . وفجأة فى ذلك اليوم تحول النهار إلى ليل . والبحر إلى محيط من الحبر الأسود . وهبت عاصفة مخيفة واحتمى بومبار بالشراع . ولف جزءا منه حول ذراعيه التى تسيل منهما الدماء . وتحرك الفاجر بسرعة . . وسكنت العاصفة وذهب الشر !

ولم يكن يتصور أن الأسوأ مايزال فى الطريق إليه . . فقد رأى طيورا كثيرة . بل ورأى مخلفات من الخشب والورق . . ورأى فراشا ولاحظ أن هناك نسيج عنكبوت على سطح الماء . وفتح كتابا عن المحيط والرحلات . والكتاب يقول إن هذه العلامات تدل على أن الشاطىء لايبعد عن مائة ميل وجاء يوم ٤ ديسمبر وهو يعانى من الإسهال الشديد . . وكان يحلم بكوب من اللبن البارد . . ويحلم بدش من الماء البارد . . والنوم على فراش لين دافىء . . وطرد هذه الأحلام التى تعذبه . واكتفى بأن تصور أن زوجته تستمتع بهذه الأشياء مهما كانت حزينة عليه . على كل حال إذا كان عاجزا عن أن يمسك القلم ويكتب حرفا واحدا . فغدا تطلع الشمس أو بعد غد . . أو بعد بعد غد ، إنه لم يفقد الأمل . ولن يفقده !

وفى الساعة العاشرة صباحا يوم ١٠ ديسمبر رأى سفينة . واقترب منها وراح يصرخ . والقبطان يصرخ فى الميكروفون : هل أنت فى حاجة إلى مساعدة ؟ وكان رد الطبيب الفرنسى بومبار : أريد أن أعرف خط الطول والعرض !

وكان رد القبطان : أنه ٤٩ تقريبا !

وأدرك بومبار أنه أخطأ الحساب عشرة خطوط على الأقل . وعلى ذلك فالمسافة التى بينه وبين الشاطىء لاتقل عن ٦٠٠ ميل .

ودعاه القبطان إلى ظهر السفينة . وقبل الدعوة . ورأى صورته المفزعة فى المرآة وأخذ دشا باردا . ثم استأذن القبطان فى أن يرى نفسه فى المرآة مرة أخرى : الوجه شاحب . العينان غائرتان . الدمامل قد غطت كل جسمه . على كل حال أنه مايزال حيا . . وفى استطاعة القبطان أن يبرق إلى زوجته أنه مايزال حيا . وأنه فى طريقه إلى الشاطىء !

وعرض عليه القبطان أن يحمله إلى الشاطىء ولكن بومبار ، أصر على اكمال الرحلة ثم أدخله القبطان فى قاعة الخرائط . وعرف بومبار لماذا أخطأ فى حساب خطوط الطول والعرض . وأيقن أن المعلومات البحرية التى عنده قليلة جداً . وأن المعلومات القليلة أكثر خطورة من البحر !

وفى ليلة الكريسماس وصل الفاجر إلى جزر بارابادوس . . وكادت الصخور البارزة أن تحطمه . ولكنه رغم ذلك نجا تماما . لقد نقص وزنه ٥٥ رطلا . وأصيب بفقر دم حاد وانخفض ضغط الدم . وضعف بصره ولكنه رغم كل شىء قد ظل حيا ٦٥ يوما فى البحر ، وجاءت هذه المغامرة دليلا على أن الغريق يجب ألا يفقد الأمل . . وأن الموت أبعد بكثير جداً مما نتصور !

من هنا...
إلى ألفي مليون سنة !!

يقال أن النبي عليه السلام يوم موقعة حنين أعطى أبا سفيان بن حرب مائة من الإبل ، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ، وأعطى العباس ابن مرداس أقل من مائة . فغضب ابن مرداس ووقف بين يدى رسول الله يقول متحدثا عن مزاياه وعيوب الآخرين :

وما كان بدر ولا حابس
يفوقان مرداس فى مجمع
وما كنت دون أمرئ منهما
ومن تضع اليوم لا يرفع

فضحك النبي وجعل الإبل لهذا الشاعر مائة !

أهم ما فى هذه الرواية التى جاءت فى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة هو اسم : مرداس . .

وكلمة « مرداس » هذه معناها : قطعة الحجر التى كان يلقيها العرب فى البئر ليعرفوا إن كان فيها ماء . وكانت هذه صناعة ابن الشاعر .

ومن الغريب أن كلمة « مرداس » هذه قد جاءت فى قصة عجيبة عن الإسكندر الأكبر . فقد كان الإسكندر يجلس على شاطئ البحر الأبيض وألقى حجرا . . ثم طلب أن يركب زورقا . . وألقى حجرا . ولم يكن من عادة الناس حوله أن يسألوه عما يفعل . وفى إحدى المرات أراد أن يعرف عمق

الماء عند الشاطئ فألقى حجراً وراء حجر . ولاحظ أن بعض الأحجار تختفى بسرعة وبعضها يختفى ببطء . . ولم يستطع الاسكندر أن يستنتج أن جاذبية الأرض هى المسئولة عن السرعة . . ولكن رجلا قال له مرداس . . أو مدرياس استطاع أن يربط الحجر فى حبل . . وأن يعرف عن طريق طول الحبل عمق البحر . وكانت هذه أول محاولة فى التاريخ لمعرفة أعماق البحار . . فقط أعماق البحار . .

وإذا كنا فى العشرين عاما الماضية استطعنا أن نطلق سفن الفضاء إلى ما حول الأرض وإلى الكواكب الأخرى ، فإن دولتين فقط فى العالم هما القادرتان على ذلك . . فالأموال باهظة . والفوائد العلمية لايمكن أن نقدرها . ولكن من المؤكد أن الذى ننفقه على رواد الفضاء سوف يعود على دافعى الضرائب بالخير العام بعد عشرات السنين . .

وإذا كنا استطعنا أن نرسم الهيئة الفلكية : النجوم والكواكب القريبة والبعيدة ونرسم الأرض بوديانها وجبالها وغاباتها وأنهارها ، فإن البحر ما يزال سراً غامضا . . اننا فقط نتمدد على شواطئه ونعبره وأمامه نشعر بالجمال والجلال . بالمتعة والرهبة معا . . ونرى فى أمواجه التى تضرب الشاطئ محاولة أبدية يائسة : فلا البحر زحزح الشاطئ ، ولا الشاطئ قد أسكت البحر . .

وقديما جداً حار الملك سليمان وهو ينظر إلى الأنهار وهى تصب فى البحار وكان يقول : لا الأنهار جفت ولا البحار امتلأت . ولم يكن الملك سليمان يعرف قانون تبخر المياه من البحار وسقوطها مرة أخرى على أعالى الجبال إلى الأنهار إلى البحار مرة أخرى !

ولكن محاولة معرفة أعماق البحار ترجع إلى مائة سنة تقريبا . وقد بدأت بمحاولة جريئة سنة ١٨٧٢ . . عندما حاول عدد من العلماء يرأسهم الأستاذ ويفيل توماس أن يدوروا حول الأرض . وجمعوا ألوف العينات من

النباتات والحيوانات البحرية فى أماكن مختلفة وفى درجات حرارة متباينة . وظلت هذه الرحلة أكثر من ثلاث سنوات . وأتوا ببعض هذه الحيوانات البحرية من أعماق المحيط على انخفاض ما يقرب من ثلاثة آلاف قامة — القامة ستة أقدام .

وقد استخدم ويفيل توماس : نظرية الصوت والصدى ليعرف أعماق المحيط واكتشف لأول مرة وبصورة عملية أن قاع البحر يشبه وجه الأرض : ملىء بالجبال والوديان !

ولكن الإنسان لابد أن يهبط بنفسه ليرى ماذا يجرى هناك . تماما كما ذهب الإنسان بنفسه إلى القمر ليرى بعينيه ماذا هناك . ولذلك يجب أن يبحث عن وسيلة يهبط بها وفيها دون أن يموت . . فنى أعماق المحيط يصل ضغط المـاء على البوصة المربعة إلى تسعة أطنان ! وفى هذه الحالة لايمكن أن تنفع بدلة الغواصين . . تماما كما لم تنفع بدلة رائد الفضاء . . فرائد الفضاء ينطلق فى سفينة محكمة جداً . . فإذا هبط إلى القمر فهو يرتدى بدلة أكثر احكاما من الكبسولة .

وقد حاول الهبوط إلى قاع البحر كثيرون . ومات كثيرون دون أن يدرى بهم أحد . فمثلا حاول المغامر الأسبانى ثرفو فى سنة ١٨٣٨ فقد ابتكر لنفسه جهازا أو أنبوبة من الخشب . وعلق فيها أثقالا من الحديد والرصاص وهبط بها إلى أعماق المحيط . وحدث ماكان متوقعا . فقد سحقها ضغط المـاء .. وبعد لحظات . . طفت على المـاء ألواح خشبية أما الرجل نفسه فلم يعد ! .

وفى سنة ١٩٣٠ حاول الأستاذ الأمريكى وليام بيب ومعه المهندس أوتيس بارتون آن يصمما معا جهازا للهبوط إلى أعماق البحر . وجاء الجهاز على شكل اسطوانة من الصلب الذى سمكه بوصة ونصف بوصة . وجعلا لهـا فتحة من الكريستال . وكان لهذا الجهاز شكل الضفدعة .

ونزلت الضفدعة إلى البحر مربوطة فى حبل من الصلب سمكه بوصة أيضا . واستطاع الرجلان أن يهبطا إلى عمق ١٥٠ قامة . .

وبعد ذلك بسنتين استطاع الرجلان أن يهبطا إلى ١٨٠ قامة . . ولم يتمكنا من الهبوط إلى مادون ذلك .

وكتب الأستاذ بيب فى مذكراته التى نشرت بعنوان (نصف ميل تحت الماء » يقول : « من هنا إلى تحت ومنذ ألفى مليون سنة ، لم يكن ليل ولا نهار ، ولا صيف ولا شتاء ، ولا زمن . . حتى جئنا وسجلنا ذلك » .

وعلى الرغم من عدم وصول أشعة الشمس إلى هذه الأعماق ، فإنه استطاع أن يرى من الفتحة الصغيرة كائنات مضيئة تروح وتجىء . . فبعض هذه الأسماك تشبه السيارات فى الشوارع ليلا عندما تنظر إليها من طائرة . ومن الكائنات الغريبة أسماك زرقاء الزعانف حمراء العيون وبعضها طوله أكثر من مترين . ان هذه الأسماك تشبه زوارق الأعماق التى يستحيل على أى إنسان أن يلمسها !

وفى سنة ١٩٣٤ قام الرجلان بتحسين هذا الجهاز الذى يغوصان به وأطلقا عليه اسم « زورق الأعماق » . واستطاعا أن يهبطا إلى ٥١٠ قامات (٣٠٦٠ قدما) إلى آخر الحبل الصلب الذى تدلى منه الزورق . وفجأة أحس الاثنان بصدمة . . بصوت عنيف يهزهما تماما . وأدرك الاثنان أن الحبل الذى يربطهما إلى منصة عائمة قد انقطع ، إن هلاكهما لا محالة . فالمسافة بينهما وبين قاع المحيط أكثر من ميل !

ولكنهما اكتشفا أن الزورق قد اصطدم بأحد التلال الموجودة فى قاع المحيط وقد أدى بهما الفزع إلى أن يوقفا الهبوط وأن يصعدا بسرعة !

وكان لابد من تعديل هذه الطريقة البدائية فى الغوص إلى الأعماق . . فالذى يحدث هو أن زورقا عائما أو منصة يتدلى منها حبل من الصلب ومن

هذا الحبل يتدلى أو يربط زورق الأعماق . وعند الاحساس بالخطر يقوم الزورق العائم بسحب الزورق الغاطس . فالحبل يقوم بدور « الحبل السرى » الذى يتغذى منه الجنين فى بطن أمه !

وهذا ما فعله الأستاذ البلجيكى أوجيست بيكار . وهو رجل مغامر وقد عرفه العالم . بمحاولاته الجريئة : فقد حاول أن يطير فى بالونات هوائية إلى طبقات الجو العليا .. ونجح فى أن يرتفع وهو فى داخل بالون إلى ٥٥,٥٥٧ قدما ..

وعندما حاول الأستاذ أوجيست بيكار أن يساهم فى مغامرات الغوص تحت الماء استخدم نفس الأسلوب . فإذا كان فى حالة البالونات يستخدم الغاز الأخف من الهواء . فإنه فى حالة الغوص استخدم البترول الأخف من الماء أيضا .. فالغاز الخفيف يدفع البالون . والبترول الخفيف يتعلق فيه زورق الأعماق ولايغوص معه .. وبذلك يمكنه أن يهبط ويعلو كيف يريد .. وصنع الأستاذ بيكار زورقا له جدران قوية جدا . ثم ربط الزورق بعوامة على شكل سيارة مليئة بالبترول . ثم ان هذا البترول له أهمية أخرى هو أن يحمى الزورق من ضغط الماء الشديد عليه .. ثم وضع فى زورق الأعماق كتلا ضخمة من الرصاص تساعده على الغوص . فإذا أراد الصعود ألقى بهذه الأوزان فيخف الزورق ويرتفع .. وهذا ما يحدث تماما عندما يريد البالون أن يرتفع فهو يسقط منه أكياس الرمل فيخف وزنه فيعلو ..

وتحدد اليوم الموعود فى سنة ١٩٤٨ .. عندما ذهب الأستاذ بيكار إلى ساحل غرب أفريقيا .. وهبط بزورق الأعماق إلى ما يقرب من ١٤٥٠ قامة ! ولم يكن بهذا الزورق أحد . لقد كانت محاول تجريبية . واعتبرت هذه التجربة ناجحة . ولكن عوامة البترول قد انفجرت قبل أن تصعد إلى السطح لأسباب فنية أمكن إصلاحها .

وانضم إلى الأستاذ بيكار مهندس فرنسى اسمه كوستو وتولت الحكومتان البلجيكية والفرنسية الإنفاق على هذا المشروع . ولكن المشروع ضاع بين

اللجان الفرعية . والميزانيات والاعتمادات الإضافية وضرورة مناقشة هذين الرجلين قبل اعطائهما مليما واحدا !

وهرب الأستاذ بيكار يطلب معونة الحكومة السويسرية . فوافقت على إعانته مناصفة مع الحكومة الإيطالية . وشعرت الحكومة الفرنسية بأنها أهينت . ولذلك عجلت بمشروعها . ونشر الأستاذ بيكار فى الصحف أن زورق الأعماق الفرنسى ملئ .. بالعيوب الفنية وانه مقبرة لكل من يحاول أن يهبط به . وأجريت الفحوص الإشعاعية على الزورق الفرنسى . وظهرت له عيوب طفيفة أمكن إخفاؤها بسرعة ..

وفى يوم السبت ١٣ فبراير سنة ١٩٥٤ وصل إثنان من الفرنسيين أحدهما غواص والآخر مهندس إلى الساحل الغربى لأفريقيا . وقررا أن ينزلا فى البحر . فمن أجل فرنسا وكرامتها وشرفها العلمى تهون الحياة . ورافق الاثنين عدد كبير من رجال الأعلام . وكانت هناك إذاعة متابعة تذيع على الهواء كل ما يحدث . أما الرجلان فهما : هو .. وفيلم .. وقد صدر للاثنين كتاب جميل ممتع أسمه « إلى ما تحت ألفى قامة » وفى اللحظة المحددة تماما . نزل الاثنان إلى « زورق الأعماق » وأقفلا الباب . . وكان يصلهما بالمنصة العائمة سلك تليفونى .. وكان على اتصال مستمر ..

وأصبحت الصيحات التليفونية مسموعة فى كل أنحاء العالم : الآن أقفلنا الباب تماما .. كل شئ على ما يرام .. الرؤية واضحة ..

وتجئ أصوات أخرى من فوق المنصة العائمة : على بركة الله .. ومع السلامة .. النزول يبدأ ..

وبدأت « غواصة الأعماق » فى الهبوط .. رجلان وحدهما تماما .. يربطهما خط تليفونى سرى يفصل تلقائيا بعد لحظات

وكانت الساعة العاشرة صباحا ..

ليس فى استطاعة أحد ابتداء من هذه اللحظة أن يساعدهما ، وقد أمسك واحد منهما التليفون يقول : عندنا شعور بالنشوة .. كأننا نشرب شيئا معتقا ممتعا .. ولكن الآن حياتنا بأيدينا .. اننا نحاول نفس الشئ الذى حاوله أبطال مجهولون من ألوف السنين أن يرتادوا البحر والقارات وحدهم وبلا علم حديث .. اننا ..

وهنا انقطع الخط التليفونى ..

ونظر أحدهما إلى الآخر يكمل جملته : إننا نسينا السندوتشات .. فليس أمامنا إلا أن نموت . أو نموت من الجوع .. وفى كلتا الحالتين نحن وجبة دسمة للسمك .. وخصوصا أنت !

وقال له الآخر : كيف عرفت ما كانت تقوله أمى دائما .. وأنا أحاول السباحة .. انها كانت تقول يجب أن تتعلم بسرعة حتّى لا تكون طعاما شهيا للسمك ..

ورد الآخر : بل هذا ما تقوله أمى أيضا .. فلغة الأمهات واحدة وخوفهن واحد .. !

وهبطت غواصة الأعماق إلى ما دون ذلك وببطء .. ومن فتحة الغواصة لاحظ الإثنان أن لون الماء أخضر .. أو أن هذه المنطقة من المحيط خضراء .. وكان عليهما أن يبعثا بإشارة صوتية تقول كل شئ تم كما تحبون ..

وفى العاشرة والنصف أرسلت الغواصة إشارة تقول : هبطنا إلى عمق مائتى متر .. الماء لونه أسود تماما .

ثم أرسلت الغواصة إشارة تقول : إننا ندور حول أنفسنا ونحن نهبط .. ولو كنا نرى شيئا من الفتحة الكريستالية لدخنا .. ولكننا لا نرى أى شئ ومن هنا وما زلنا نحتفظ بشئ من العقل ..

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف أرسلت الغواصة إشارة صوتية تقول وصلنا الآن إلى عمق ألفى متر !

وفى الساعة الثانية عشرة أرسلت الغواصة إشارة أخرى تقول: وصلنا إلى عمق ثلاثة آلاف متر ..

وكان من الضرورى الإبطاء فى الهبوط . ولذلك أطلق الرجلان سراح طن من الرصاص الملصق بالغواصة .. فخف وزنها . فأصبحت حركة الهبوط أبطأ .

وتوقفت الغواصة تماما ..

وبدأ الرجلان يفحصان الغواصة من الداخل . فلم يجدا أى تسرب للماء وفى هذا الوقت كان ضغط الماء يعادل ٥٩٠ طنا على البوصة المربعة . وكانت درجة حرارة الماء خارج الغواصة تصل إلى خمس درجات مئوية .. أما درجة حرارة البترول فى العوامة التى هى غطاء للغواصة فتصل إلى ١٣ درجة مئوية ولذلك كان لابد من الانتظار بعض الوقت حتى تنخفض درجة حرارة البترول ..

وهبطت الغواصة إلى عمق ٣٣٠٠ متر .. ومن الفتحة الكريستالية لاحظ الرجلان أن هناك كائنات غريبة وعجيبة.. أنواعا وأحجاما من الجمبرى والكائنات الدقيقة الطويلة المضيئة .. وأحيانا يكون الضوء متصلا . وأحيانا يكون نوعا من البرق الباهر ..

وعندما وصلت الغواصة إلى انخفاض ٣٥٠٠ متر لاحظ الرجلان أنها تهبط بسرعة أكبر مما يجب . ولذلك أطلقا بعض كتل الرصاص المعلقة من الغواصة . وبسرعة توقفت الغواصة عن الهبوط ..

وفى الساعة الواحدة انطلقت إشارة صوتية من الغواصة تعلن لرجال

الصحافة والإذاعة أنها وصلت إلى عمق ٤٠٠٠ متر . وهذا أبعد ما وصل إليه أى إنسان !

وكانت للغواصة مصابيح قوتها ١١٠٠ وات . وانفتحت المصابيح كأنها عيون شيطانية .. وانكشف ماء المحيط .. وصرخ الرجلان الواحد بعد الآخر : إننا نكاد نرى قاع المحيط ..

وتدلت من الغواصة سلسلة كما فعل الإسكندر الأكبر ليعرف بها عمق المحيط .. وعرف الرجلان من طول السلسلة أن القاع على مدى ستة أمتار فقط !

وفى هذه اللحظة كان ضغط الماء على الغواصة قد وصل إلى تسعين ألف طن !

ومن الفتحة الكريستالية سجلت العدسات صورا وأفلاما للحياة عند قاع المحيط .. فهناك أسماك من أنواع نادرة غريبة اللون والشكل والحركة .. لم يرها أحد من قبل وكانت هذه الأسماك تتحرك برشاقة راقصات الباليه . . وأكثر هذه الأسماك لها عيون جاحظة — أى خارج الرأس . وهذه العيون تتحرك فى كل الاتجاهات ..

وكان من المقرر أن تظل الغواصة فى أعماق المحيط ثلاث ساعات على الأقل ترتاد هذا العالم المجهول . وبينما يتبادل الرجلان النظر من الفتحة الكريستالية سمعا صوتا عنيفا غريبا .. وتحول ماء المحيط إلى لون البحر .. وداخ الرجلان.. وتساند أحدهما على الآخر .. إنها إذن النهاية .. النهاية العميقة لهذه المغامرة الشجاعة من أجل العلم .

وبعد لحظات أفاق الرجلان .. فقد انفلتت البطاريات الجافة التى تمد المصابيح بالضوء .. هذه البطاريات كانت موضوعة فى أعلى الغواصة وزنتها ١٣٠٠ رطل ..

أما أحد الرجلين فقد جلس منهاراً ويقول لزميله : أنا رجل مغامر .. وأنت مهندس .. أنقذنا من هذه الكارثة .

وقال المهندس ضاحكا : أما أنا فسوف أنقذ نفسى . وعليك أنت أن تبحث لك عن طريقة للنجاة !

وفى مواجهة الموت والخطر يشعر الإنسان بشئ من اليأس . ومن هذا اليأس تنبع روح المرح كتعويض سريع عن خسارته الفادحة ..

ولذلك قال أحدهما للآخر : هل تعرف ماذا أعد لنا الطاهى اليوم من أنواع الشواء ..

وصرخ الثانى : فعلا .. عندى دجاجة مشوية .. إنها هدية من زوجتى .. لم يتسع وقتى لكى أشكرها على ذلك .

واقتسم الرجلان الدجاجة ..

وأرسلت الغواصة إشارة تقول : نحن صاعدان . ونرجو أن يكتب الله لنا السلامة !

وأذيع النبأ فى العالم كله ..

وبعد لحظات توالت الإشارات بالصعود . وسرعة الغواصة ..

وبعد خمس ساعات و ١٤ دقيقة ظهرت الغواصة على سطح الماء . وانفتح الباب وخرج الرجلان . وتعانق الجميع .. وفرقعت زجاجات الشمبانيا .. وامتلأت المنصة العائمة بالأطعمة الشهية .. وهنأ الفرنسيون أنفسهم على هذا النصر العلمى فى كل مكان ..

وجلس الرجلان يقلبان فى برقيات التهنئة ..

وفجأة وقف واحد منهم وهو المغامر « فيلم » وصرخ : اقرأ ماذا تقول

زوجتي .. إنها تقول : كان ولدنا جاك يتمنى أن يقبلك ويهنئك عند عودتك ما معنى « كان يتمنى » .

واتصل بزوجته تليفونيا وعرف الرجل أن ابنه الصغير أيضا حاول أن يقلده .. فغرق !

امسكوا قداسته ...

لقد سرق الذهب وهرب

لو كانت فى رأس واحد من الحاضرين شعرة واحدة لوقفت ثم سقطت فى الحال فقد كانت لحظة رهيبة لم يسبق لها نظير فى التاريخ !

فقد جلس ألف واحد خاشعين تماما . فالموقف فى غاية القداسة . الرؤوس انحنت . العيون أقفلت . الأعناق تدلت . الأيدى تشابكت . الألسن ابتلعت . الآذان انفتحت وتردد فى هذا الصمت سؤال يقول : وقبل أن يخلق الله السماء كيف كانت هذه الدنيا ؟

وكان السؤال موجها فى خشوع شديد إلى طالب غير عادى .. فقال الطالب : لا يمكن أن تكون هناك سماء قبل الله . فالله هو السماء !

واقتنعت لجنة الامتحانات . أما المستمعون فقد سرت فيهم كهرباء من السعادة وعادت اللجنة توجه إلى الطالب سؤالا آخر : وأنت بالذات قبل أن تولد أين كنت ؟

وأحنى الطالب رأسه ليقول : بل كنت فى السماء .

وكانت السعادة واضحة على اللجنة وعلى الحاضرين . ولكى تنهى اللجنة امتحان هذا الطالب وتمنحه درجة الماجستير فى اللاهوت قالوا له : اننا لا نريد أن نسألك شيئا أو فى شئ . وإنما نتوسل إليك وحياة أمك المقدسة وقدميك الطاهرتين . وروحك التى ترفرف على أرضنا وقلبك الذى اتسع لملايين البشر . وابتسامتك التى ولدت منها الشمس أن تتفضل وتتكرم وتتواضع وتمنحنا البركة يا من أنت البركة !

ورفع الطالب يديه ليمنح الحاضرين بركته . ونهض الحاضرون جميعا ،

ورؤوسهم كلها قد حلقت بالموسى .. اللجنة بأعضائها ذوى اللحى البيضاء وألف طالب خروا ساجدين وهنا فقط .. دخل اثنان من الضباط متلاصقين كأنهما مربوطان بسلك من حديد .. الوجه الصارم . العيون حمراء . الأرض تتكسر تحت خطواتهما . ولابد أن يكون التاريخ قد سجل أنه فى يوم أول مارس سنة ١٩٥٩ وفى مدينة لهاسا عاصمة التبت اقتحم اثنان من ضباط الحامية الصينية قدس الأقداس لصاحب القداسة الدلاى لاما . فقد دخلا بغير إذن . ودخلا دون انحناء . وأعجب من ذلك أنهما يطلبان مقابلته مباشرة تصوروا مباشرة ، أى دون وساطة من كبير الكهنة ورئيس الديوان وقبل رئيس الديوان ، كبير الحرس . ثم كيف يدخل اثنان من الضباط على صاحب القداسة الدلاى لاما . الإله والرب الروحى للتبت ولم يحلق واحد منهما شعره .. إن هذا لشئ رهيب .. شئ فظيع ..

ولكن الضابطين لم يشعرا بشئ من ذلك . أو كانت التعليمات لديهما أن يتجاهلا أى شئ .. وبسرعة التف الرهبان حول الدلاى لاما . كما يلتف النحل الشغال حول ملكة الخلية لحمايتها من الدبابير . . ولكن الضابطين كانت لديهما تعليمات صريحة صارمة : نحن نريد تحديد موعد مع الدلاى لاما فورا !

ومن المفروض ألا يسمع الدلاى لاما كلمة واحدة .. فهناك أناس معدودون فقط هم القادرون على أن يهمسوا فى أذن قداسته مباشرة . وكان هذان الضابطان يعلمان هذه الحقيقة فصرخا لكى يسمع الدلاى لاما .. إنهما إذن اخترقا المجال الجوى لصاحب القداسة . إنهما عدوان ولا شك . وفى اليوم الذى يحتفل فيه الدلاى لاما بنيل أعلى الدرجات العلمية فى فقه الدين البوذى !

أما تفاصيل هذا الحادث المروع فقد هز كيان العاصمة . وخرج الضابطان طبعا ولكن المدينة لم تنم .. وتهامس الناس . وقالوا : عدوان .. وقالوا ..

زندقة .. وتساءلوا عن صحة صاحب القداسة بعد كل الذى حدث .. وقالوا: إنه أغمى عليه .. وقالوا : صعد إلى السماء .. وأقسم أناس أنهم رأوه فعلا وهو يركب سحابة بيضاء . ومعنى ذلك أن السماء تدخلت فى الوقت المناسب .

وقبل أن تطلع شمس اليوم التالى كان الضابطان الصينيان فى طريقهما إلى قصر صاحب القداسة يلحان فى مقابلته لأمر هام محدد .

ولكن الضابطين فى هذه المرة سارا فى الطريق الشرعى . ذهبا إلى كبير الحرس . وقالا نفس العبارة: نريد مقابلة صاحب القداسة الدلاى لاما لأمر هام .

واستطاع كبير الحراس أن يسأل : هل من الممكن أن أعرف السبب ؟

وكان الرد : أن قائد الحامية الصينية قد أقام حفلة استعراضية فى قلب الثكنات ويريد أن يتفرج عليها قداسة الدلاى لاما ..

واستطاع كبير الحراس أن يقول : سوف نعرض عليه الأمر .

وكان رد الضابطين : ومتى نعرف موافقته التامة على ذلك ؟

موافقته التامة ؟! — إذن ليست دعوة إليه إنها استدعاء ! المسألة خطيرة .

واجتمع الدلاى لاما بمجلس الوزراء وكبار رجال الدين .. وقال لهم:

— ما الرأى .

تخبطت الآراء . العقلاء قالوا : يجب أن نفكر ؟

المتزمتون قالوا : بل يجب أن نرفض هذه الإهانة !

والدلاى لاما : لا رأى له عادة .

واحتشد الناس حول قصر الدلاى لاما . وجاء اليوم التالى والناس فى غاية القلق على ما حدث وما سوف يحدث . ولكن ثورتهم خرساء . إنهم يهزون رؤوسهم . ولا يجدون فيها شعراً كافيا ليشدوه أو يقطعوه ويتطلعون إلى

الشرفات المقدسة .. يرون بعض الملابس والوجوه والرؤوس تروح وتجئ ..

وجاء الضابطان يلحان فى أن تكون زيارة الدلاى لاما يوم ١٠ مارس على الأكثر . بشرط ألا يرافقه حراس . وإنما فقط خادم خاص وثلاثة من الوزراء . وأعلن هذان الضابطان أنهما سوف يأتيان ببطاقات الدعوة وبعد يومين ..

ولم يكن من الصعب على الناس جميعا فى مدينة لهاسا المقدسة أن يشموا رائحة الخطر وأن يدركوا أن صاحب القداسة فى خطر . وأن قداسته لن تتمكن من حمايته من القوات الصينية .. وقد ترددت شائعات كثيرة بأن قوات صينية قد حملتها الطائرات ليلا ونهارا. وهذا طبيعى. فإن رجلا له هذه القداسة لن يقوى عليه إلا ملايين الرجال . وقد لا يقدرون أيضا . وهذا الخطر الصينى يخيف أبناء التبت وفى نفس الوقت ينفخ فى كبريائهم لأن الدلاى لاما من القوة بحيث لا يقدر عليه إلا جيش ! وأى جيش ؟ جيش محمول على الطائرات !

وعادت الرؤوس التى خلت من الشعر تماما تتقارب وتتلاصق .. الرؤوس والخدود والأيدى والأنفاس وفى صمت يريدون أن يبحثوا عن إجابة واحدة لهذا السؤال: هل يذهب الدلاى لاما إلى الثكنات الصينية وحده؟

وكان الجواب : بل يهرب من البلاد كلها !

وأعلن فى المدينة كلها عن طريق الأبواق التى يمسكها رهبان يقفون فوق الأسطح: يا أهل البلد .. يا أهل البلد.. إن صاحب القداسة تفضل مشكورا بزيارة الثكنات الصينة .. قفوا على جانبى الشارع فى خشوع . ضعوا أيديكم وراء ظهوركم . لا تمسكوا عصا واحدة .. ولا طوبة .. ولا تقولوا شيئا .. الصمت عبادة .. !

وتزاحم الناس على جانبى الشارع العمومى منذ المساء . حملوا طعامهم وفراشهم وأطفالهم . وبعضهم اصطحب الدواب والدواجن .. يريدون أن يذبحوها تحت قدمى الدلاى لاما .. أو يريدون أن تتبرك هذه الحيوانات بتنسم الهواء الذى يشمه . فتبيض الدجاج وتحمل الماعز وتلد الأم .. إنه يوم البركات .

وفى الليل انفتح الباب الخلفى من القصر وخرج عدد من الجنود يركبون البغال وكان بينهم ، أى بين الجنود ، واحد لا يكاد يرى أى شئ أمامه فقد خلع منظاره ووضعه فى جيبه ولم يدر بوضوح كل ما يدور حوله .. هذا الرجل الذى ارتدى ملابس الجنود هو الدلاى لاما نفسه !

إنه قرر أن يهرب إلى الهند . وعليه أن يجتاز طريقا صعبا جدا فى بلاده الواسعة وأن يعبر الجبال المغطاة بالجليد دون أن يتنبه الصينيون إلى ذلك . . وأخطر من ذلك دون أن يتنبه أبناء التبت أيضا . وإلا امتلأت الشوارع بالدماء . . وهو يريد لشعبه السلام . وهو يعرف أن هذه الساعة كان من المؤكد أنها سوف تدق بعنف . . تدق رأسه وعرشه الدينى . . وأن عقارب هذه الساعة لابد أن تطبق على عنقه . . فبلاد التبت واسعة وسكانها لا يتجاوزون عشرة ملايين بينما الصين تضيق بمئات الملايين من أبنائها . . سبعمائة مليون نسمة وأكثر . وأهل التبت زاهدون فى قيم الدنيا وزينتها — ومن الأفضل أن نقول إنهم جهلاء وكسالى . وهم أناس مسالمون لأنهم وثنيون بلهاء . لابد أن هذه المعانى دارت فى رأس هذا الجندى فى ملابسه التنكرية .

خرج الدلاى لاما ورجاله من القصر . . واجتازوا الشوارع وهو يسمع الصرخات والهمهمات ولا يستطيع أن يرى الوجوه . . فقد أخفى منظاره وهم يقودونه هو وبغله وسط الزحام الهائل . وانتهى شارع . . ومن بعده شارع . . واتسعت أمامه الأرض العارية . . وجاء نهر صغير . . عبرت البغال . . وانضم إليه عدد من الجنود . . مائة . . . وراء مائة . . ولكن أحدا

لا يدرى ما سوف يحدث . . وبين لحظة وأخرى يتوقف أحـــد الجنود أيضا ويتحسس صندوقا فوق أحد البغال . . ويتأكد من أن أقفاله سليمة . . الصندوق ملىء بالذهب . . وعندما عبر البغال أول نهر سقط كتاب الصلوات لبوذا . . وتشاءم الجميع . . ولكنهم تطلعوا إلى وجه الدلاى لاما الذى لا يرى تماما ووجدوا ابتسامته العريضة واستمدوا منها الراحة التامة وواصلوا السير .

وعندما اقترب أحد رجال الدين من الدلاى لاما وهمس فى أذنه قال : نعم يا صاحب القداسة . . إنها بخير لقد سافرت والدتك المقدسة وأختك المقدسة وأخوك المقدس فى الصباح دون أن تدرى أنت . . حرصا على صحتك !

إذن لقد هرب إخوته قبله . وكان من الممكن أن يقعوا فى أيدى القوات الصينية . وكان من الطبيعى أن يسأل صاحب القداسة : ولكن كيف ؟

قال له أحد الحراس : انهم جميعا قد ارتدوا ملابس الرجال والنساء . . أخوك لبس كفتاة وأمك وأختك رجلان !

ومضت القافلة . .

وجاء الليل . وصعدت البغال أحد الجبال . الطريق ضيق صاعد . البرد شديد . الجليد يغطى كل شىء . طلب قداسته أن يضع المنظار على عينيه . . ولكن هذه الرغبة لم تتحقق بسرعة . فقد ذهب أحد الحراس يسأل رئيس الوزراء إن كان هذا ممكنا . وعاد الجندى يقول لصاحب القداسة إن هذا غير ممكن . ولكن يبدو أن صاحب القداسة أصر . . وعاد الجندى ينقل أوامر قداسته إلى رئيس الوزراء . وهنا تشاور رئيس الوزراء والوزراء . . وتقاربت البغال فى الطريق الضيق . واستقر رأيهم على أنه لا داعى لهذا المنظار . وجاء الجندى يحمل قرار مجلس الوزراء بأن المنظار غير ممكن ــ وهنا هدد صاحب القداسة بأن يلقى بنفسه من فوق الجبل . . وعاد الجندى ينقل هذه الكارثة إلى رئيس الوزراء فى نهاية القافلة. وتقارب الوزراء.. وأخيرا قرروا

أن يسمحوا لقداسته بوضع المنظار على عينيه . . وبدلا من أن يذهب واحد ذهب اثنان معا ، واحد يمسك المنظار والآخر يرافقه . وفى اللحظة التى قدم فيها المنظار إلى صاحب القداسة جاء الجندى الآخر ودفع زميله فهوى على مرأى من صاحب القداسة إلى سفح الجبل . . تكسر المنظار والجندى معا . . وبذلك يكون قرار مجلس الوزراء بألا يضع صاحب القداسة هذا المنظار قراراً نافذاً . وفى نفس الوقت حاول الوزراء أن يخبر صاحب القداسة أنه فى الطريق إلى أن يكون مواطنا عاديا أو لاجئا سياسيا فى الهند . . أى أنه ليس مقدسا . وإنما كان فى يوم من الأيام مقدسا !

وفى الليل أوى الجميع إلى كوخ . ولم يدرك صاحب الكوخ من هذا الجندى الذى يحملونه فوق الأكتاف ولما رأوا فى عينيه نوعا ساذجا من التساؤل قالوا له : إنه مريض .

ويقول الدلاى لاما فى مذكراته التى عنوانها « مذكرات صاحب القداسة الدلاى لاما — شعبى وبلدى » : إنه عندما رأى هذا الرجل البسيط يكاد يعرفه استراحت نفسه فلم يعتد أن يكون مجهولا كل هذه الأيام الطويله . واسترد قداسته أنفاسه عندما أضيئت الشموع ورأى الذين حوله ورأوه ..

وفى الصباح عبروا أحد الأنهار وسقطت مسبحة كانت تلتف حول عنق الدلاى لاما . وحاول بعض الرهبان أن يستردها من النهر . ولكنه أشار برجله أنه لا داعى لذلك . وأطاعوا — ومن حق الدلاى لاما أن يشير بأى شئ ليكون أمرا !

وبسرعة مرت من فوقهم طائرة صينية . وأصيب الجميع برعب مؤكد ولكن الطائرة لم تر شيئا هاما فهم قافلة تتحرك . وما أكثر القوافل .

ولكن الشئ الذى أفزع الجميع ، أنهم استمعوا فى راديو صغير أن إذاعة صوت أمريكا تقول أن اضطرابات شديدة قد وقعت فى عاصمة التبت .

وأن الأنهار قد زادت نهرين آخرين : من الدم والدموع . . وأن الجميع قد عرفوا أن صاحب القداسة قد هرب : أى أن البلاد بلا رب . . فالشعب أصبح يتيما . . لا أب له . . عاريا لا سماء له . . ملعونا لا بركة فيه !

وبكى صاحب القداسة . . وكاد يقرر العودة إلى بلاده لولا أن رئيس الوزراء والوزراء قالوا له ما معناه : اعقل أيها الشاب . . !

ومضت القافلة ووصلت إلى الحدود الهندية . .

وكان الدلاى لاما قد تعب من ركوب البغال واحداً بعد واحد . ولابد أن الذى أصابه هو نوع من الإمساك الشديد بسبب الإرهاق . . أو بسبب تناول أنواع من الأطعمة الباردة . أو لأى سبب آخر . . وابتهاجا بالوصول إلى الحدود الهندية قرر قداسته أن يذهب إلى دورة المياه – والحقيقة أنه لم تكن هناك دورة مياه ولكننى لا أجد التعبير المناسب لهذا المعنى !

وكاد ينكشف للجميع . .

فقداسته له طريقة خاصة فى قضاء حاجته . وقد اعتاد عليها منذ الطفولة . وأنا مضطر أن أروى هذه الحادثة رغم أن المعانى التى تتبادر إلى الذهن ليست شيئا مشجعا أو مشهيا . جلس قداسته والتف حوله الكهنة ورفع ملابسه . ولكنه ما يزال يعانى من الإمساك الشديد . . وصرخ فيهم صرخة مقدسة . فبدأوا يقرأون التراتيل ولكنه ما يزال يعانى وأمر بأن يقرأوا بعض التراتيل التى تساعد على الإسهال . وقرأوا . وهم يتلفتون حولهم وفجأة ظهر جندى صينى وهربوا جميعا . وتركوا قداسته يحاول .

وحاول ونجح . كاد الإله ينكشف عندما حاول أن يكون إنسانا ! ويبدو أن المنظر لم يعجب الجندى الصينى . وأدرك أنها لعبة سخيفة وأن هذا الشاب يلهو ويلعب . لوى شفتيه وبصق على الأرض . وأحس الجميع أن هذه البصقة هى نعمة من السماء . . فقد أنقذت الجميع . .

ودخل الحدود الهندية . . وعلى حدود الهند كان ينتظره ألوف من

المؤمنين به . . وعبر الهملايا . . واتجه إلى ولاية ميسور . . ونزل فى أحد القصور هناك . . ومعه مجلس الوزراء وعدد من الرهبان . . أقاموا حوله ونشروا ملابسهم البنية الداكنة وأقامت الحكومة الهندية سياجا من حوله . . وحرسا لحمايته . وغسل الدلاى لاما وجهه لأول مرة واستحم وأصيب بزكام شديد . .

واستمع إلى راديو بكين يقول : الدلاى لاما هرب إلى الهند بعد أن سرق كل التحف الذهبية . . امسكوه حيا أو ميتا . .

وفى أحد الأيام التى قرر أن يطل فيها بطلعته البهية على شعبه . . استمع إلى ضوضاء شديدة . . وصراخ . . وتهديدات بلغـــة غير معروفة تتخللها كلمات إنجليزية وعربية . ويبدو أنه أشار بيـــده ولكن القوات الهندية اعترضت وتحدث رئيس الوزراء باللغة الفرنسية وجاء الرد باللغة الفرنسية أيضا بالامتنان . ولكن الحوار بين رئيس الوزراء وبين شخص ملفوف فى بطانية ومحمول على محفة . ورأت الجماهير مريضا أبيض اللون جـــاء يتبرك بصاحب القداسة . فكان ذلك أعظم تحيه لهم . فقد ظنـــوا أن قداسته وبركاته لا تتعدى حدود التبت . فإذا هى تغمر الجبال والوديان .. الصفر والبيض معـــا . .

وحملوا المريض الذى يقول إنه جاء بالنيابة عن كل المرضى واليتامى والمساكين فى العالم العربى وفى مصر بصفة خاصة وسكان عشش الترجمـــان بالذات — حيث توجد مؤسسة أخبار اليوم — وأنه قطع هذه الألوف من الأميال ليخطف منه بصيصا من البركة .

وأمام الدلاى لاما حلت البركة فى المريض . ورفع الغطاء عنه . . ونهض وأحنى رأسه ومد يده مسلما والتقط للدلاى لاما أول صـــورة له ولأمه ولوزرائه وأخته وأخيه فى العالم كله ولم يكن مريضا . . إنما هو صحفى تمارض ليروى قصته للعالم كله . . هذا الصحفى اسمه : أنيس منصور . .

حتى لا تكتب مذكراتك
هذه هي الطريقة

فى مثل هذا الشهر من ٢٧٠ عاما سافر أحد رجال الدين والعلم والأدب من دمشق إلى بيروت فألف فى ذلك كتابا . وعشرات الألوف من الناس الآن يفعلون ذلك دون أن يؤلفوا كتبا أو يقولوا أنهم سافروا من دولة إلى دولة . لأن المسافة قصيرة . ولا تستغرق من المسافر أكثر من علبة سجائر يدخن نصفها والباقى يوزعه على غيره من المرافقين .

ولكن السيد عبد الغنى بن اسماعيل النابلسى قد ألف كتابا إسمه « التحفة النابلسية فى الرحلة الطرابلسية » . والكتاب نشره المعهد الألمانى للأبحاث الشرقية فى بيروت . وقد حققه المستشرق الألمانى هربيرت بوسه وفى مقدمة هذا الكتاب تقدم بالشكر للذين نبهوه إلى هذه المخطوطة النادرة .. ويشكر الدكتور صلاح المنجد الذى « حرضه » على البحث عنها وتحقيقها — هوالذى قال حرضه على ارتكاب عمليه النشر . والمقصود « شجعه » على النشر !

أما الكتاب نفسه فأسلوبه عربى قديم مسجوع . والسجع فى كثير من الأحيان متكلف . وبه مائة قصيدة نصفها من تأليف عبد الغنى النابلسى . والمستشرق الألمانى يرى لهذا الكتاب أهمية خاصة فى معرفة أحوال الإسلام والمسلمين فى ذلك الوقت . ويقارن بين هذا الرحالة العربى ورحالة تركى اسمه أولياء شلبى .. ورحالة إنجليزى جاء إلى لبنان فى نفس الوقت . ولكن كلا منهم عاش منعزلا عن الآخر .. النابلسى غارق فى الصلوات والحمامات مع رجال الدين والفقهاء والرحالة الإنجليزى هنرى موندرل مع الأوروبيين وأبناء البندقية . ولو التقى الرجلان لروى كل منهما قصة مختلفة عن نفس البلاد .

وكان النابلسى فى الأربعين من عمره عندما بدأ رحلته .. يقول النابلسى فى أول سطور الكتاب متحدثا عن نفسه طبعا : « يقول روضة الآداب الندية والجامع من الفنون العلمية والأدبية ، سليل العلماء الأعلام ، الشيخ اسماعيل الشهير نسبة إلى الكريم ابن النابلسى . القادرى مشربا ، والحنفى مذهبا ، والدمشقى موطنا ، والخاتمى تحققا ومعدنا .. » وهذا يكفى !

ولكنى أرى لهذا الكتاب أهمية أخرى ..

فمؤلفه يفعل بالضبط ما يجب ألا يفعله أى رحالة ، إنه لايتحدث عما رأى من الأشياء أو من الناس . إنه يقول سافرت من مدينة كذا إلى مدينة كذا . ونمت حتى الصباح . بعد أن تعشيت وصليت وحمدت الله . ولكن كيف سافر ؟

كيف كانت وسيلة السفر ؟ كيف حاله ؟ كيف حال الناس ؟

ماذا رأى من الناس ؟ ماذا رأوا منه .. ما الذى أغضبه ؟

إنه لا يقول شيئا .

إنه مثلا عندما ذهب إلى المدينة المنورة فى إحدى رحلاته اهتم بعدد النخيل وأنواعها . وكتب أن أنواعها ١٩٣ نوعا .. وعندما ذهب إلى ميناء طرابلس وهى خاتمة هـذه الرحلة اهتم جدا بأنواع الزوارق والسفن .. وعرف أن أنواعها عشرون نوعا : الماعونة والغليون . والزربونة والغلياطه .. والقياسه . والشختوره .. والفلوكه .. والقارب والبرمه وغيرها ..

والكن النابلسى صاحب الفكرة .. أو له غاية محددة .. وضعها أمامه : وهو أن يلتقى بالناس الطيبين يتناقشون فى أمور الدين ، ويستمع إلى قضاياهم وفتاواهم. ويقول وينقل وهو فى كثير من الأحيان صاحب الرأى السديد .. هذا رأيه ..

سافر إلى دمشق . وبات ليلة .. وبعد يومين سافر إلى جبل لبنان .. وكانت الطرق وعرة – لم يصفها لنا كيف كانت وعرة . وفى صيدا أقام أسبوعا وسافر إلى جبيل . ثم إلى طرابلس وأقام فيها أسبوعين ..

وصعد الجبال . وهبط الوديان . وكانت وسيلته هى البغلة . وقد تعبت البغلة من الصعود والهبوط وقال فيها شعراً .

ولكنه يبدو أنه رجل ظريف . وأنه يخفى وراء هذا الإطار الدينى رجلا رقيقا ذواقا . ولكنه يستحى أن يفضح نفسه . فقال موالا فى الغزل :

حواجب الغيد جل الله باريها   والعشق أحلامنا بالشوق باريها
ياجاذب القوس إن مكنك باريها   خل التعب عنكواعط القوس باريها

ويقول أيضا :

إن المحب إذا بكا   فاعذروه زاد ولوعه
كالشمع يبكى فى الهوى   حتى تسيل دموعـــه

ويقول :

ايان هاج الهوى   بين المنازل والربوع
الناس تضحك فرحه   والشمع يبكى بالدموع

ربما كان هذا ألطف ما فى الرحلة كلها من شعر . وبعد ذلك ينتقل من مدينة إلى مدينة . وهو فى الحقيقة ينتقل من مناقشة إلى مناقشة . أو من مشكلة إلى مشكلة . مثلا : مشكلة هل الصلاة فى الصحراء ثوابها أكبر من الصلاة فى البيب ؟

هل الصلاة فى الحديقة أكثر ثوابا من الصلاة فى البيت ؟ مناقشات وأحاديث نبوية صحيحة أو مكذوبة .. والنابلسى عادة هو صاحب الرأى الذى له معنى فى النهاية .

وفى ذلك الوقت قرأ كتابا اسمه « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » من تأليف شمس الدين الدمشقى . والكتاب يتحدث عن أشياء غريبة وعجيبة ينقلها كما هى ـ والله أعلم ـ فمثلا من أين جاءت الجبال والرمال . جاءت من الرياح « المحقونة » فى الأرض المتموجة تحتها . فالرياح ترفع أرضا وتخفض أرضا . بل حدث أن زلزالا وقع فنقل أكثر من ٣٠٠ شجرة زيتون كانت فى أعلى الجبل إلى بطن الوادى وكأنها غرست فى هذا المكان . لا فى مكان آخر ، فلا الأشجار تغيرت ولا الأرض تكسرت، بل أن الرياح التى تخرج من بطن الأرض حملت أحد الأديرة كاملا بما فيه من رهبان وحيوانات وأدوات . « وتحرر بذلك محضر شرعى بإمضاء السلطان الملك الناصر » . بل أكثر من ذلك أن قرية كاملة بكل بيوتها وأهلها ونباتها وحيواناتها انتقلت من أعلى الجبل إلى بطن الوادى . فلم يشعر بذلك أحد من الناس .

وعندما أقام النابلسى فى دمشق لاحظ أن العناكب لا تبنى بيوتها فى أركان المساجد أبدا .. ولا العصافير تعشش فى المساجد مطلقا .. حتى الحيات لا تلدغ الإنسان ما دام فى مدينة دمشق .

وقرأ النابلسى فى كتاب « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » أن فى البحر الأبيض أسماكا لها رأس أصلع ولها لحية وأنها حمراء اللون . وأن هناك أسماكا تمسك سيفا قصيرا فى يدها .

ويتساءل النابلسى عن أصل كلمة (كردى) ومن أين جاءت فيقال له أن ملكا كان له فى كتفه دملان .. أو عرقان نافران . وكانا على شكل ثعبان . ولا يشفيهما إلا دم الإنسان . ولذلك كان هذا الملك يذبح كل يوم رجلا . فلما عرف الناس ذلك « كردوا » من الجبال ـ أى هربوا من الجبال . ومن هنا جاءت كلمة « الكردى » .. وهذا هو أصل الأكراد !

وإذا استطرد النابلسى ، وكثيرا ما يفعل ذلك ، يقول : لم نرجع إلى ما نحن فيه » ..

ويبدو أن محاولات كثيرة بذلت لإقناعه بأن يركب البحر . ولكنه رفض . خاف . وفى ذلك يقول :

لن تركب البحر الخضم مهابة ... بجلال خالقه فمنه نفـــرق
نخشى به غرقا ونخشى أسره ... بركوبنا فهو العـــدو الأزرق

ولكنهم بعد ذلك أقنعوه فركب البحر فى ميناء طرابلس وشارك فى صيد الأسماك . وأعجب بها . وهو معجب عموما بكل طعام لذيذ . ويكفى أنه يصلى العشاء ، ويتناول العشاء وينام نوما هنيئا حتى طلوع الشمس كل ليلة وكل صباح – منتهى الراحة .

ولكن يبدو أن هذه الراحة كانت فى بعض القصور التى نزل بها . أما البيوت الأخرى التى يملكها الناس الطيبون من المريدين والمحبين فكانت نوعا من العذاب . ولكن النابلسى احتمله .. مثلا :

براغيث كأفيال قصـــار ... راعتنا بالخراطيم الطوال
لنا أكلت جميعا من رؤوس ... إلى الأقدام حتى للنعال
وحتى نومنا أكلته أيضا ... فأصبحنا كأمثـــال الخيال

ويعود يتوجع من البراغيث فيقول :

براغيث كأمثال الهنـــود ... بأجسام صغار القد سود
وقعنا فى مخالبهـــا فعاثت ... بنا وتواثبت مثل الأسود !

وبعد ذلك ذهب إلى بيروت . وبات فى بيروت حتى الصباح . وبعد صلاة الظهر راح يتفرج على ما فيها من مساجد وحمامات . ففيها مسجد اسمه ابن الحمراء وفى هذا المسجد يقام الذكر والناس يتلون الأوراد ويحفظون القرآن .. ويقول إن الجامع الكبير فى بيروت كان أصله كنيسة .

ومن بيروت يتجه إلى طرابلس وهى الغاية من هذه الرحلة كلها . فالطريق به بساتين . والبساتين بها رياحين . والصدر منشرح . والقلب متفتح .والشيخ فى غاية السرور . وهناك نهر اسمه نهر الكلب . ويقال إن هناك تمثالا لكلب . وكان الكلب إذا رأى سفينة قادمة للعدو عوى مرة واحدة .. وإذا رأى اثنتين عوى مرتين . وهكذا يتنبه الناس لملاقاة العدو .. انه صفارة إنذار أو شبكة رادار ومن هنا كان اسم النهر .

ويعلق على ذلك بقوله : وهذا من العجائب والله أعلم بالصواب .

وفى طرابلس لقيه الحاكم والناس جميعا بالترحاب . وكشفوا له عن نفوسهم : قضاياهم وألغازهم الشرعية والفقهية . وهو يعرضها فى رحلته . ولا أعرف كيف استطاع أن يحلها. مثلا إذا كان هناك رجل قد تزوج ثلاثا فقال لكل واحدة منهن على حدة . إذا طلقتك فالأخريان طالقتان ؟ ثم طلق الأولى مرة واحدة ، فما حكم الشرع فى الزوجتين الأخريين ؟ إنها فزورة صعبة جدا ولكنه استطاع أن يحلها وأن يستحق التكريم من كل الناس . ولكننى أعترف بأننى لم أفهم الحل !

معضلة أخرى من طرابلس أيضا :

قال رجل لزوجته وهو على فراش الموت : إن دخلتما هذه الدار فأنتما طالقان فدخلت الإثنتان معا . ومات الزوج فما حكم الشرع فى الميراث وفى الطلاق بعد موت الرجل ؟

واستطاع النابلسى أن يجد الحل .

ولا أجد حرجا فى أن أقول إننى لم أفهمه أيضا . ولكن الناس فى مدينة طرابلس فى شهر سبتمبر سنة ١٧٠١ (١١١٣ هجرية) قد أعجبوا به وحمدوا الله أن جعل من بين عباده أناسا قادرين على معرفة الحق من الباطل مهما التوى الباطل وتحول إلى عقده فى خيط حرير لا يمكن أن تراها العين

المجردة ..ولكن النابلسى استطاع أن يرى العقدة وأن يحلها وأن يريح الناس ، وبعد ذلك تناول طعامه الشهى والفاكهة ونام حتى الصباح ..

ومن القضايا الصعبة التى أفتى فيها أكبر علماء ذلك العصر : هل التدخين حرام أم حلال ؟

وكان جواب الرجل : إذا كان الذى يدخن يشعر منه بتعب فى صدره فهو حرام . وإذا لم يشعر بشئ من ذلك فهو حلال – أى أن الذى يحرمه الدين هو الشئ الضار . والذى يحلله هو الشئ النافع . وهذا الرأى سلاح ذو حدين أيضا . ولكن الناس استراحوا إليه وتمايلوا وتصايحوا وتعانقوا . وكاى لابد أن يشكروا الله على ما أولاهم من فضل وعلم ..

« ثم جئت إلى منزلنا الرحيب والمكان الخصيب .. حتى أسفر الصباح ونادى مؤذن الفلاح » – وهى عبارة يتكرر معناها كل صباح .

ثم هذه القضية : ما هى الضرورة أن يكون للعمامة طرف يتدلى على القفا .. هذا الطرف اسمه « العذبة » .. وله فى ذلك رأى . ويرى هو أنه حسن ولطيف .

ما حكم الشرع إذا قال رجل أن أملاكى موقوفة على جميع ولدى ومات .. فهل ترثه بناته ؟

والجواب أن كلمة : الولد تنطبق على الذكر والأنثى . لأن الولد من الولادة . ومعنى ذلك أن كل أولاده ذكورا وإناثا ، لابد أن يرثوه – معقول !

وفى بعلبك رأى الأحجار الضخمة والأعمدة الفخمة ، واستطاع أن يعرف عددها . وانتهى عند ذلك . ولم يعرف ما الذى فعله العلماء فى القرن العشرين عندما قالوا أن هذه الأحجار لا يمكن أن تكون قد قطعت من جبال لبنان . وإنما لا بد أن تكون قد جاءت من أسوان .. وأن هذه الحجارة قد حملت من أسوان إلى بعلبك بطريق الجو .. وأن ذلك قد حدث من عشرات

الألوف من السنين . فقد كانت هناك كائنات أكثر عقلا وذكاء قد أقامت على هذه الأرض بعض الوقت – ولأسباب لا نعرفها نحن الآن – عادت إلى أماكنها من كواكب أخرى مستخدمة سفن فضاء هائلة – ربما كان القمر إحدى هذه السفن(*) ...

وهذة نظرية سوفيتية حديثة جدا .

وفى نهاية كتاب « التحفة النابلسية فى الرحلة الطرابلسية » يقول المؤلف : « وقد وافق الفراغ من تكملة هذه الرحلة المباركة إن شاء الله تعالى عشية النهار الأحد ثانى عشر من ذى القعدة الحرام سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف على يد ناسخه الفقير إلى رحمة مولاه اسماعيل النابلسى غفر له ولوالديه وللمسلمين آمين » .

وأعجبنى من النابلسى تشجيعه للناس على السفر وعلى الإنتقال من مكان إلى مكان وفى ذلك يقول :

سافر إذا حاولت قـــدرا   سار الهلال ، فصار بدرا
والماء يكسب ما جـــرى   طيبا ويخبث ما استقرا

.. أحسنت يا أستاذ نابلسى !

(*) راجع كتابى (الذين هبطوا من السماء) .

إلى القمر..

سيرًا على الأقدام!

انها مجرد غلطة . فقد كان فى نيته أن يسافر إلى داخل الولايات المتحدة . ولكنه وجد نفسه يحجز تذكرتين إلى مدينة جوهانسبرج فى جنوب أفريقيا . أما زوجته فترى أن هذه أجمل هدية – غير مقصودة – قدمها زوجها فى عيد ميلادها وضحك الاثنان .

وبدأ يجمع معلومات عن أفريقيا التى سوف يسافر إليها . وينتهز هذه الفرصة لكى يعرف هذه القارة السوداء التى لم تعد سوداء .

وكان لابد أن يبدأ رحلته من لندن ذهابا وإيابا . وأمسكت زوجته أحد القواميس ، وتحته كلمة أفريقيا وجدت سطورا تقول : إنها تتسع لخمسة أقمار كالذى ينير لها .. وبلجيكا تملك منها مستعمرات أكبر منها ٨٨ مرة .. وبريطانيا تملك مستعمرات أكبر منها ٣٠ مرة .. والبرتغال أكبر منها ٢٣ مرة . . وفرنسا أكبر منها ٢٠ مرة . . إنها ثانى قارة على الأرض من حيث الضخامة . فآسيا هى الأولى طبعا .. والصحراء الأفريقية أكبر مساحة من الولايات المتحدة ، وإذا قورنت الدول الأوروبية بدول مثل غانا ونيجيريا والكونغو وتنزانيا ، فإنها تعتبر مجموعة من الأقزام ..

ثم أقفلت القاموس ، ومضت تقول لزوجها الرحالة ويلارد برايس : أما الباقى فقد حفظته قبل ذلك . . فالنيل أطول نهر فى العالم . وشلالات فكتوريا أكبر من شلالات نياجرا على حدود أمريكا وكندا .. وقناة السويس ضعف قناة بنما .

ولكن الزوج كان مهموما .. فإن هذه الرحلة ستجدها الزوجة متعة ولا شك ، أما هو فسوف يؤلف عنها كتابا لابد أن يكتب . أى لابد أن ينقد ويصور كل ما يراه ويسمعه .. انه مثل الناقد الرياضى فى مباريات كرة القدم لا يستمتع باللعب وإنما يحسبه ويكتبه ، ويسجله . إنه مثل التلميذ فى السنوات الأولى فى كلية الطب يمضغ الطعام ويتابعه من الفم إلى البلعوم إلى المرئ إلى المعدة .. ويتابعه بعد ذلك فى أمعائه .. إنه بذلك لا يجد متعة فى الطعام ، وأكثر من ذلك أن يتوهم أمراضا لا وجود لها ..

ولما وجدت الزوجة أن زوجها بدأ يرتدى ملابس الرجل الرحالة المهموم قالت : أعود إلى القاموس : وأفريقيا هى الموطن الأصلى للفيل وهو أكبر حيوان فى العالم ، والموطن الأصلى للزرافة ، والكركدن الأبيض ، والأسد ملك الغابة .. والجاموس البرى وهو أكثر حيوانات الغابة شراسة ، وفى أفريقيا أكبر أنواع الزواحف : التمساح الذى عبده الفراعنة ، وقد حدثنا هيرودوت عنه .

هذا المؤرخ هيرودوت — كلامى أنا — قد شوه سمعتنا كما لم يفعل أى زائر إغريقى إلى مصر . فقد كتب أنه لم يستطع أن ينام فى مدينة منف بسبب بكاء التماسيح طوال الليل ، ومنذ ذلك اليوم والعالم كله يتصور حتى أيامنا هذه أن التماسيح ما تزال تلعب فى النيل . بل إن الرئيس جمال عبد الناصر قد سأله أحد الزعماء السوفييت إن كان النيل ما يزال مليئا بالتماسيح ..

ولو قال أى مصرى مهاجر فى أمريكا واستراليا أو كندا أنه عندما جاء إلى القاهرة يزور أهله : لم أنم تلك الليلة — من الفرحة طبعا — لوجد من يقول له : بسبب بكاء التماسيح !

منه لله هذا المؤرخ الأغريقى هيرودوت !

وتعود الزوجة إلى القاموس فى محاولة يائسة للتخفيف عن الزوج المهموم :

وبعض القبائل الأفريقية تعبد نوعا من الثعابين اسمه : الأصله .. وفى أفريقيا أعظم أنواع الغوريلا والشمبانزى .. وهذه الحيوانات موجودة فى أفريقيا وحدها وبكثرة .

وحتى لا يبدو الزوج ويلارد برايس أنه تعيس بسبب هذه الغلطة فقد أقنع نفسه وحاول أن يكون لطيفا مع الزوجة ، وقال لها : ان العلماء كانوا يعتقدون أن آسيا هى الموطن الأصلى للإنسان الأول ، ولكنى أعتقد أن الإنسان الأول كان هنا فى أفريقيا .

وبهذه العبارة بدأ الدخول فى « جو » الرحلة التى سجلها ويلارد برايس فى كتاب عنوانه « أفريقيا — ذلك اللامعقول » وقد جعل ثلث الكتاب صورا ، وبعده جاء الأديب الأمريكى أرثر ميللر فكتب رحلته المشهورة « فى روسيا » وجعل ثلث الكتاب بقلمه والباقى كله من تصوير زوجته ، وقبلهما الكاتب الفرنسى أندريه موروا ألف كتابا فى أربعين صفحة .. أما بقية الكتاب وتبلغ ٢٥٠ صفحة فهى مجموعة من الصور الرائعة ، الكتاب عنوانه « باريس بالليل » وهو تحفة أدبية وفنية معا .

يبدأ الرحالة كتابه بأن يلفت عين القارئ وعقله إلى عبارات حادة جافة كتبها العالم الكبير داروين فى كتابه « أصل الأنواع » ، يقول داروين وأرجو أن تقرأ بعناية جداً هذه الكلمات التى أنقلها بدقة : فى كل منطقة كبيرة من العالم نجد أن الثدييات التى ما تزال باقية . كانت لها صلة وثيقة بالأنواع المنقرضة فى نفس المنطقة .

ويقول داروين بعد ذلك : ولهذا السبب ربما كانت أفريقيا قد عاشت فيها قرود منقرضة كانت لها صلة وثيقة بالغوريلا والشمبانزى ، وهاتان الفصيلتان من القرود أقرب شبها بالإنسان ، فلعل أجدادنا قد عاشوا فى القارة الأفريقية لا فى قارة أخرى ..

ثم هذه العبارة لداروين : ولكن يجب ألا نتزلق إلى الخطأ ونقول إن أجدادنا كانوا مطابقين أو متشابهين تماما لأى قرد من القرود الحية .

هذه العبارة الأخيرة لم يذكرها أحد فى المائة سنة الماضية ، ولكن العلماء يذكرون العبارات السابقة فقط ، ويحاولون أن يربطوا بين الإنسان والقرد . ويحاولون أيضا أن يبحثوا عن المرحلة التى تحول فيها القرد إلى إنسان — هذه المرحلة المفقودة . ولذلك فالعلماء ينبشون الأرض بحثا عن هذه المرحلة المفقودة بين الإنسان والقرد ، ومن الغريب أنهم عثروا على شئ من ذلك فى أفريقيا فى السنوات ١٩٢٥ و ١٩٣٦ وأخيرا فى ١٩٥٩ وجدوا ما يمكن أن يوصف بأنه « الحلقة المفقودة » بين الإنسان والقرد وفى تنزانيا . ولذلك فعدد كبير من العلماء يرى أن آدم عليه السلام نزل من السماء وهبط إلى تنزانيا وليس فوق جبل آدم فى جزيرة سيلان(*) .

وأفريقيا كانت مهدا لأكبر وأول حضارة عرفها الإنسان : فى مصر . وفى مصر أيضا الأهرام واحدة من عجائب الدنيا السبع ، وإذا كان فى أفريقيا الآن ثلاثة آلاف لغة . فالعلماء يتوقعون فى المستقبل أن تتحد هذه اللغات وتصبح ثلاثا فقط ، ولم يحدث فى تاريخ البشرية أن هبت الشعوب إلى الاستقلال والحرية بهذه الكثرة والقوة . كما حدث فى أفريقيا ..

أما الصورة التى تخيلها الفيلسوف الفرنسى جان جاك روسو أن سكان أفريقيا هم « هؤلاء البدائيوان النبلاء السعداء » — فهى صورة جميلة ، فليسوا سعداء إلى هذه الدرجة ، ففى أفريقيا فقر وجهل ومرض وخرافات ، وما تزال فيها قبائل ترى العفاريت تحت كل شجرة .

ولابد أن العالم كله قد شعر بالعار يوم ٥ يناير سنة ١٩٥٩ عندما نقلت صحيفة « نيويورك تيمس » الأمريكية أن ثورة نشبت فى الكونغو . بصراحة : لم يكن فى وزارة الخارجية الأمريكية شخص واحد يعرف شيئا عن هذه المستعمرة البلجيكية ، ولم يستطع أكثر الناس علما أن يتصور أن الكونغو سوف تكون جمهورية مستقلة بعد ١٨ شهرا ..

(*) راجع كتاب « حول العالم فى ٢٠٠ يوم » .

وبدأت الرحلة من لندن ..

وحلقت الطائرة فوق جبل طارق بن زياد ، وهذا الجبل قد نسب إلى القائد العربى الذى حمل الحضارة إلى أوروبا التى خمدت أنفاسها تحت الجهل ، وكان الأغريق يرون أن عند هذا الجبل ينتهى العالم .. وفى الطائرة استمع إلى حوار بين رجل وابنه الصغير . قال الإبن : وسنرى عددا من آكلة لحوم البشر فى بلاد المغرب .

فقال الأب : انهم ليسوا متوحشين ، لقد كانوا مصدر الحضارة الأوروبية . وهنا تدخلت الأم بغضب قائلة : لا تحاول بلبلة أفكار الطفل يا عزيزى .

وكان الأب على صواب ..

وهبطت الطائرة فى مراكش .. ثم ارتفعت وهبطت على الساحل الغربى وفى مدينة داكار ركب سيارة إلى أطراف المدينة .. النساء عاريات .. نصف عاريات . ومن الغريب أن الصدور ليست بارزة رغم أن الفتيات صغيرات . وتساءل : قيل له إن الفتاة تعمل باستمرار على أن يبدو صدرها مترهلا لتوهم الآخرين أنها حملت وأرضعت كثيرا . أى أنها امرأة خصبة .. فالرجل لا يحب أن يتزوج امرأة لا تنجب له الأطفال ..

ومن هذه المنطقة فى بلاد السنغال كان يجرى شحن الزنوج إلى أمريكا أيام تجارة الرقيق ..

غلطة أخرى ارتكبها الرحالة ويلارد برايس .. فقد شكا من صداع شديد وتناول قرصين من الإسبرين ولكن الصداع لم يذهب فعاد يتناول قرصين من الحبوب المنومة وكانت زوجته تعرف أن الصداع إذا ما أصاب زوجها فسوف يشكو من الأرق أياما وبذلك تفسد الرحلة كلها .. وانتهزت الزوجة فرصة أن زوجها قد نام قليلا وأخرجت حقنة مخدرة وأنفذتها

فى ذراعه .. ونام الزوج .. وهبطت الطائرة ولا يزال الزوج نائما وحملوه على نقالة إلى أحد المستشفيات . وظل الزوج نائما ، وتساءلوا : إن كان الزوج قد جاء إلى أفريقيا قبل ذلك . فقالت الزوجة : هذه أول مرة ..

ولما سألت عن السبب قيل ربما لدغته ذبابة تسى تسى التى يظهر مفعولها المرضى بعد ست سنوات .

ولما فتشت الزوجة فى جيوب زوجها اكتشفت أنه – على سبيل الخطأ – ابتلع أكثر من عشرة أقراص منومة .. وحملوه وهو نصف نائم بعد أيام من الصعود والهبوط إلى شلالات فكتوريا لعله يصحو . وبدأ يفيق عندما قالوا له أن أمريكيا مجنونا طلب من حكومته شراء هذه الشلالات ، ولما ضحك ، أدركت الزوجة أن زوجها قد أخذ يفيق ، وأفاق ..

نحن هنا فى قلب القارة الأفريقية .. أعظم غابة على سطح الأرض ، والفرق بين الغابة وبين حديقة الحيوانات أن الإنسان فى الحديقة حر طليق ولكنه فى الغابة لا بد أن يعيش فى أقفاص أو فى سيارات أو فى حراسة مشددة ولذلك فالأفضل أن يشاهد هذه الغابة العظيمة من الجو ، وركب طائرة ذات محركين وراحت تعلو وتهبط وتصل فى هبوطها إلى مستوى الفيلة والزرافات أما الفيلة فلا تهتز كأن شيئا لا يتحرك فوقها أما الزرافات فكانت أسرع الجميع ..

وتزاحم الركاب على أصوات الحيوانات يلتقطون الصور فى سعادة وجنون ولكن شخصا واحدا كان يبعث على القرف – ومعه حق – إنه الطيار نفسه فهو يدخن دون أن ينظر إلى شئ حوله أو تحته فقد رأى ذلك ألوف المرات ، إنه محروم من نعمة الدهشة أو لعله قد ذاق طعمها مرة أوصبحت ذكرى !

والتعليمات فى كل مكان تطلب إلى الزائر ألا يخرج وحده فى الليل .. أو بعد الغروب بصفة خاصة ، والسبب معروف طبعا .

أما صحراء كلهارى ففيهاأعجب أنواع البشر وفيها هؤلاء الأقزام – البوشمان – إنهم يمشون كأنهم مكسحون ولكن إذا جروا فهم كالريح .. ويرون بالعين المجردة ما لا يراه التلسكوب . وهم فى حالة هياج جنسى دائم .. حتى الثمانين من العمر ، وهذا من دواعى فخرهم ، ولذلك فصفاتهم وأسماؤهم مأخوذة من هذه الحالة الجنسية الغريبة .

أما طريقتهم فى صيد الأسود فمجموعة منهم يأتون إلى الأسد بغزالة صغيرة ويطلقونها أمامه ، فإذا هجم عليها أطلقوا عليه سهاما شديدة السم وبعد ذلك يستخدمون نفس الأسد فى صيد حيوانات أخرى .

أما أساليبهم فى الغزل والزواج فهى قريبة من ذلك أيضا ، فهم يصنعون سهاما صغيرة جدا ويغمرونها بالعطر فإذا رأوا الفتاة أطلقوا السهم على ثوبها ، وطبعا سوف تنظر الفتاة بكل خجل مفتعل إلى مصدر السهم ، فإن أعجبها صاحب السهم ، أبقت السهم فى مكانه ومعنى ذلك أنها وافقت على الزواج منه وإذا أخرجت السهم وكسرته فمعنى ذلك أنها رفضته زوجا ولا تنطلق السهام عادة إلا إذا كان الرجال أو الشبان عراة تماما .

وفى الليل جاءت ذبابة ووقعت على ذراع الرحالة برايس . ونفخها أحد الزنوج ، الذبابة اسمها : تسى تسى . وهى تقتل الكثير من الحيوانات ومن المواطنين وذلك بأن تجعلهم ينامون حتى الموت ، أو يموتون أثناء النوم .. وهى لا تصيب الرجل الأبيض .

ومن حين إلى حين يكتب الرحالة برايس مذكراته . وفى إحدى الليالى اكتشفت الزوجة أن زوجها يصلى إلى جوار السرير ويقول : يارب خلصنى من الرحلة السوداء فى القارة الأكثر سوادا .

إذن لقد تعب الرجل ..

وهو معذور ، فالليل مخيف ، والنهار مرهق ، وهوحريص على أن يدخل

الغابة ، وأن يرى عن قرب وأن يسمع ، وأن يسجل بالصورة وبالقلم ، وفى أحد الفنادق الصغيرة أشاروا عليه بأن يختار حارسا يجلس تحت نافذته طوال الليل ، وفى الليل جاء الحارس : رشيق ظريف ، ومعه بندقية وكثير من الطلقات ، ولم يكد ينام الزوجان حتى ففزا من السرير ، لقد سمعا صوت أسد جريح .. ثم صوت نمر .. وإذا صحت درايتهما بالأصوات التى استمعا إليها مسجلة على اسطوانات ، فإن هذا الصوت الأخير صوت ثعبان وهو ينهش طائرا كبيرا .. وفجأة ساد الصمت .. واقترب الاثنان من النافذة ووجدا الحارس فى مكانه هادئا ، وفتحا النافذة وسألاه عن هذه الأصوات ولم يفهما منه أى شئ وفى الصباح عرفا أن الحارس هو مصدر هذه الأصوات ، إنه يخيف الحيوانات المفترسة حتى لا تقترب ..

يقول الرحالة برايس : انه ليس أحسن من الصدفة السعيدة بالنسبة لأى مسافر ..

أما الصدفة السعيدة فإنه قد وجد طائرة يملكها أحد الأمريكان .. هذه الطائرة أقسمت زوجة هذا الأمريكى ألا تكون مع زوجها وحدها فى مكان واحد .. أبدا .. لا غرفة النوم .. طبعا ولا السرير .. ولا الطائرة .. بعض علماء النفس يشخصون مرضها بأنه « جنون صاحبات الملايين » أى أن المطلوب هو أن يكون هناك آخرون وقام الرحالة وزوجته بدور حاجز الصوت ، أو مانع الصواعق بين المليونير صاحب الطائرة والمليونيرة زوجته .

وهى صدفة سعيدة لأن الزوجة أقسمت برحمة أمها فى ذلك اليوم بالذات ألا تنفرد بزوجها وألا يفعل هو ذلك ، وفى نفس اليوم أقسم الرحالة ألا يسافر فى سيارة وحده هو وزوجته وسط الغابة حتى لو مات فى تنجانيقا ..

والغلطة الثالثة التى ارتكبها الرحالة هو أنه لم يسأل صاحب الطائرة أين يذهبان . وإنما فرح بوجود طائرة . وفرح بالاستمتاع المفاجئ بما

يستمتع به أصحاب الملايين الذين يفضلون الزوجة المتعبة على الطلاق السعيد لأن الطلاق معناه أن تنال الزوجة المليونيرة نصف ملايين الزوج !

واتجهت الطائرة إلى جزيرة زنزبار على الشاطئ الشرقى لأفريقيا وانفتح باب الطائرة وكأنه انفتح على أحد معامل العطور فى باريس . فهذه الجزيرة الصغيرة معناها مدينة « القرنفل » وهذا واضح من الرائحة . ومن النسيم الذى يلف الفتيات الجميلات اللائى ارتدين السارى الهندى . وعلى الرغم من أن الجزيرة ملاصقة لقارة أفريقيا ، فإن أكثر أهلها من الهنود . أما العرب فيمكن تمييزهم . فهم الذين يضعون صورة جمال عبد الناصر فى داخل المحلات أو على أبوابها . وهذه الجزيرة تصدر ٨٠٪ من قرنفل العالم كله الذى يستخدم فى العطور وفى منع تسوس الأسنان وتسكين الألم .. وقبل اختراع الإنسان للثلاجة كانت أوروبا تحفظ اللحوم فى القرنفل والقرفة . وهذه الجنة الصغيرة ، ككل جنة لا تخلو من الحيات .. فالخلاف شديد بين الأفارقة والهنود والعرب .. وهذا هو التسوس الوحيد الذى لا يستطيع القرنفل أن يقضى عليه .

وعندما عاد الرحالة برايس إلى تنجانيقا أعجبته أنواع غريبة من الحيات . بعضها يصل إلى ثلاثين قدما . مثل ثعبان الأصلة . وهو غير سام . ويمكن تربيته فى البيت . وهو نادر – لا يلدغ .. والخدمة الوحيدة التى يؤديها لأهل البيت هو أن يأكل الديدان والفئران والطيور . وفى حالة الغضب – وهى نادرة – لا يلدغ أحدا وإنما فقط يلتف حوله ويعتصره – وإذا كان من الصعب عليك أن تفهم هذه الصورة فاذهب إلى أى محل عصير قصب وتخيل نفسك عودا من القصب !

وهناك نوع آخر من الثعابين النفاثة .. هذه الثعابين تستند إلى مؤخرتها وترفع جسمها ورأسها إلى ما يقرب من رأس الإنسان . وهى قادرة على أن تطلق من فمها قذيفة إلى العين . وهى لا تخطئ أبدا . هذه القذيفة الدقيقة

عبارة عن سم مركز يصيب العين بالعمى .. والباقى معروف – فى الليل أو النهار وكل الثعابين تهتدى بالأشعة الحمراء – وكل الثعابين لا ترى . وإنما هناك حول العين توجد خلايا ضوئية . تتأثر بالأشعة تحت الحمراء وتوجه الثعبان إلى حيث يريد – هذه معلوماتى أنا ..

وفى بحيرة فكتوريا وجد عدداً كبيراً من حيوان السيد قشطة .. عيونها جاحظة تحت الماء .. وهذا الحيوان قادر على أن يختفى تحت الماء أربع دقائق ثم يطفو .. هذا الحيوان لا يصيب أحداً بضرر إلا إذا – وعشرات من كلمة « إلا » – أى إلا إذا عاكسته .. إلا إذا عاكست صغاره .. إلا إذا لمست قرنيه .. إلا إذا سلطت عليه الأضواء .. إلا إذا ضربته بأى شئ .. وهو حيوان يحب المداعبة فقد حدث أن طارد سيدة أمريكية شقراء .. فهربت منه فوق إحدى الأشجار فمزق فستانها وقميص نومها .. إلى آخره – وعندما عاد إلى الماء وجدوا السيدة بلا جروح . انه كان يداعبها فقط وعندما ذهبت أنا إلى هذه المنطقة سمعنا هذه النادرة وكانت ترافقنا سيدة أمريكية أطبقت عينيها وشفتيها وانطوت على نفسها .. لا تريد أن ترى أو تسمع أو ترانا أو تسمعنا .. وسألنا إن كان السيد قشطة بالذات موجودا وإن كان ما يزال يحب المداعبة وقيل لنا إنه مات وكان موته حرمانا لنا من رؤية فتاة أمريكية جميلة ..

لم يبق من رحلة الصديق العزيز ويلارد برايس سوى أن يذهب إلى جبال « رونزورى » التى وصفها تشرشل بأنها قطعة من الجنة : النباتات والحيوانات والصعود والهبوط . وهذه الجبال لها خمس قمم : هذه القمم مغطاة بالجليد .. وتحت الجليد ستائر كثيفة من السحب .. وقبل السحب توجد حديقة نباتات .. وألوان وأحجام ومساحات من الأشجار الغريبة العجيبة وفى هذه المنطقة تمنى أمين باشا فى أواخر القرن التاسع أن يدفن هنا ولكن العرب استطاعوا أن يحرموه من هذا الحلم . قتلوه قبل أن يصل إلى السفح .. وأمين

باشا هو طبيب ألمانى كان مرافقا لغوردون باشا واسمه إدوارد اشنتسلر ثم اختار له اسما تركيا . وكان عميلا . وكان معاديا لأهل البلاد .. ولما عرفوا حقيقته قتلوه على باب الجنة ..

هذا الجبل رونزورى له اسم آخر هو « جبال القمر » وربما اختاروا له هذا الاسم لأنه غريب عجيب .. كأنه من كوكب آخر .. أو لأن أهل البلاد يرون أن القمر يظهر منه ويختفى فيه بسبب السحب الكثيفة . أو أنه ينام ويصحو فيه .. ولو عرف أهل اسكتلندا الذين يتفاءلون بنبات الخلنجان كم يوجد من هذا النبات بهذه المنطقة لجعلوا حياتهم هنا .. ان هذه الجبال طولها ستون ميلا وعرضها ثلاثون .. وعشرات الألوف من الأفدنة مزروعة بهذا النبات الجميل .

وكان من نصائح أهل هذه المنطقة أن الذى يصعد جبال القمر على قدميه يطول عمره ولكن من أدرانا أن هذه الخرافة حقيقية . وتلفت الرحالة برايس إلى زوجته وهزت كتفيها أنها لا تستطيع طبعا أن تصعد هذه الألوف من الأقدام .. ولكن أهل هذه البلاد يعرفون هذه الحقيقة ولذلك وجدوا لها حلا : أن يخلع الرحالة برايس حذاءه ويعطيه لأحد الشبان المشهورين بصعود الجبال .. ويرتدى الشاب هذا الحذاء ويصعد به ألفا وألفين .. وثلاثة آلاف .. ثم يعود إليه .. وبعد ذلك عليه أن يرتدى حذاءه إن كان يصلح وسوف يعيش عمرا أطول من حذائه .. أما الحذاء فقد تمزق تماما ولكن الرحاله برايس احتفظ بحذائه فى صندوق زجاجى لعله يعيش أطول من حذائه — ومن النادر أن يحدث ذلك لأى أحد . فأعمارنا أقصر من حياة أحذيتنا !

واحد...

لا يريد أن ينسى نفسه

هذا الرجل يجب أن يعرفك بنفسه . . فهذه عادة عنده كلما التقى بانسان غريب . لأنه من الضرورى أن يرتبط بالناس بصلة ما . . حب . . كره لا مبالاة . . المهم ألا يكون مجهولا لدى أحد من الناس .

سافر كثيراً فى أمريكا وفى الشرق الأقصى وفى إسرائيل وفى بلاده هو : المجر التى تركها وهو دون العاشرة . ثم سافر إلى لندن ليصبح صحفيا بريطانيا . وكاتبا طريفا يحب قراءته الجميع ولا يرضون عنه . . وليس سبب ذلك كرم الضيافة عند الإنجليز . . ولكنهم يرون أن الكاتب الساخر مثل كثير من الحيوانات أو الطيور التى لها مخالب أو أنياب . فهى بطبعها لابد أن تجرح وليس من السهل تغيير طباع الكتاب والحيوانات .

وليس نادراً أن يظهر من الإنجليز إناس مثل برنارد شو واوسكار وايلد وبيربوم . . وهذا الرجل جورج مكش . . والكلمة الأخيرة يفضل أن ينطقها الناس وعندهم زكام أى : جورج بكش . . فهو على صلة مستمرة بالبكش والضحك من الناس وعليهم . وهو حريص على احترام الناس له . ولكن ليس من السهل أن يحترمك كثيراً من تقوم له بدور البهلوان . أى أنه انسان محبوب فقط حاول بكل قوته أن يكون محترما ولكنه لم يفلح . . والمحاولة التى يبذلها ليكون محترما تعادل نفس المحاولة التى يبذلها الكاتب المحترم ليكون محبوبا . كلاهما يبذل أقصى مافى وسعه ولا يفوز إلا بالقليل جداً مما فى وسع الناس . ولكنه لم ييأس رغم أن الناس قد يئسوا تماما .

والكاتب المجرى الأصل الإنجليزى الجنسية جورج مكش له رحلة

مشهورة اسمها « الشرق شرق » وهو فى هذه الرحلة يزور اليابان ولا يزور جزيرة فورموزا ويرى الهند وتايلاند وهونج كونج والفلبين والملايو وتركيا . . أما سبب الزيارة فهو أنه كان عضوا فى مؤتمر القلم الدولى الذى انعقد فى طوكيو .

وجورج مكش يدخل فى موضوعه مباشرة فيقول لك أن قارة آسيا كبيرة واسعة . متعددة الألوان والأجناس والأديان واللغات . ولكن يظهر أن القاعدة فى هذه القارة : يجب أن تحب قارتك وأن تكره جارتك !

وهذه قاعدة لاتخطئ فى كل هذه القارة . فمن النادر أن تجد دولتين متجاورتين متحابتين . .

ويضحك مكش من مثل هذه الكلمات : الروح الآسيوية . . الوعى الآسيوى . . الضمير الآسيوى . . والرجل الآسيوى . .

وهى كلمات لامعنى لها . . لأنه لايوجد أى تشابه بين راعى الأغنام فى طشقند وصاحب البار فى بيروت وكلاهما أسيوى . .أو بين قاطع الطريق الفلبينى وبين صاحب شركة تاتا الهندية . . كما أنه يصعب أن نفرق بين السورى والتركى والايرانى . . وليست بينهم جميعا أى شبه بالصياد الأندونيسى وهم جميعا آسيويون . .

وبعد ذلك تجئ تعبيرات : الشرق الأقصى والأوسط والأدنى . . وهى كلمات ليس لها أى معنى عند الرجل الآسيوى . . فنى أوروبا يقولون عن اليابان إنها الشرق الأقصى . . ولكن كيف يقول الرجل اليابانى عن نفسه : نحن هنا نعيش فى الشرق الأقصى . .

إن كلمات : الأقصى والأوسط والأدنى . . هى كلمات تعتمد على

وجهة النظر الأوروبية . . فى حين أن الشرق الأقصى بالنسبة للرجل اليابانى هو الولايات المتحدة .

ثم إن اليابان تعتبر من وجهة نظر سكان استراليا : الشمال الأقصى . . واستراليا من وجهة نظر الرجل الصينى تعتبر الجنوب الأقصى .

ولا أعرف من الذى قال إن الانسان يستطيع أن يؤلف عن آسيا كتابا فى ثلاثة أيام أو فى ثلاثة أعوام – وهو على حق . فمن السهل أن تقول كل شئ – وبسرعة . ومن الصعب أن تقول كل شئ وعلى مهل . فكل ما تستطيعه هو أن تنقل ما يفعله طفل تمدد على شاطئ البحر : أن يرمى البحر بالطوب وأن يرى صورته وأن يرفع رجليه . . وأن يتلفت حوله يمينا وشمالا وينفرد بنفسه فى كوخ ويقول شيئا على ورق أثناء انتظاره لاحدى عابرات المحيط .

ويحاول الكاتب المجرى جورج مكش أن يفسر لنا من أين جاءت روح السخرية هذه . يقول إنه ولد فى ظروف جعلته يتشكك فى كثير مما يسمع من الناس . مثلا : فى الحرب العالمية الأولى انضمت القرية التى ولد فيها إلى يوغوسلافيا وبعد ذلك أعيدت إلى المجر . ففى المرة الأولى كان يكره المجر التى فرطت فى شعبها . وفى المرة الثانية كان يحب يوغوسلافيا التى لم تشأ أن تغتصب أرضا لاتستحقها وبعد ذلك سمع وهو طفل أن الشاب اليوغسلافى الذى أطلق الرصاص على الأمير النمساوى فأدى ذلك إلى اشتعال الحرب الأولى ؛ كان مجرما لأنه أدى إلى خراب العالم . وفى المرة الثانية اعتبره بطلا لأنه أدى إلى تساقط حكومات فاسدة وعروش ظالمة . وكان عليه منذ البداية أن يختار لنفسه موقفا خاصا . وجاء اختياره : أن يسخر من الجميع . فلا شئ بين الناس أو عندهم ألا يبعث على الضحك ولكن الناس لايدركون ذلك .

فعندما ذهب إلى اليابان لأول مرة لقيه شاب فى المطار . فى يده ورقة

وقلم وسأله عن انطباعه عن هذه البلاد وقال : رائعة . وكتب الشاب ذلك . ولكن مكش سأل أحد أصدقائه : كيف يمكن أن يسألنى انسان عن بلاده بهذه السرعة مع أننى لم أر إلا المطار . وقال صاحبه : ولايهمك . . إنه لم يفهم كلمة واحدة مما قلت .

وكان رد مكشن : ولكنه سألنى بالإنجليزية . . ؟

وقال صاحبه : الأسئلة بالإنجليزية فقط هى التى يعرفها . .

وكانت هذه أول نكتة صادفت مكش فى اليابان . فالشاب يعرف الأسئلة ولا يفهم الأجوبة . . ولكنه سوف ينشر على لسان مكش : أن اليابان قد أعجبته وأن شعبها عظيم . وأنه صانع المعجزات . وأن اليابان أكبر دولة صناعية فى آسيا . وأكبر منافسة لأمريكا وألمانيا وأنها قادرة على التفوق على الجميع . وأنها لم تهزم فى أية حرب دخلتها إلا سنة ١٩٤٥ فقط . عندما ضربها الأمريكان بالقنابل الذرية . وعندما أقام مكش فى اليابان بعض الوقت جاءه شاب يابانى يسأله عن رأيه فى اليابان . كان رده : الشعب عظيم والبلاد جميلة . ولكن ينقصهم شئ من المرح . .

وأخرج الشاب ورقة من جيبه وكتب عليها : إذن لابد من زيادة الاهتمام بالمرح . .

وبعد ذلك يمكن أن يقال عن اليابان إنهم شعب قادر على التقليد . وليس التقليد سهلا . فالمهم أن يختار الانسان ما الذى يجب أن يقلده وكيف يضيف إليه ، وكثيراً ماجاء التقليد أروع من الأصل — هذه القاعدة تنطبق على ما يفعله اليابانيون فى كل شئ . .

ولكى يصبح الرجل اليابانى قادراً على الإبداع يجب أن يكون قادراً على التركيز . أن الواحـــد منهم يستمع إلى محاضرة أربع ساعات دون أن يتحرك له جفن لكى يخرج منها بشئ ما . وقد يكون هذا الشئ تافها جداً . ولكن اليابانى هو الوحيد على هذه الأرض القادر على أن يجعل التافه جوهريا وبتركيز وطول نفس .

وليس الانسان محتاجا إلى قوة ملاحظة ليدرك أن الرجل اليابانى مهذب جداً . لاشك فى هذا . فأنت دائما — أو مطالب أيضا — أمام إنحناءات على اليمين وعلى الشمال . . ولا تعرف ماهو السبب الحقيقى فالماشى ينحنى وراكب العربة ينحنى . والانحناءات درجات . من السجود إلى الانحناء . وهم قادرون على توزيع هذه الدرجات على مدى الاحترام والامتنان بين الناس .. وإذا أخطأت فى مراعاة النسب فأنت مادة للضحك . .

وفى اليابان لايفهمون كثيراً مما تقوله بالإنجليزية أو بأية لغة أخرى . ولكنك أمام أناس على استعداد لأن يخدموك فأنت تطلب اللحم المشوى فيجىء السمك . وترفض السمك فينحنى الجرسون ويأتى لك بالشاى . وترفض الشاى فيأتى لك بقائمة الطعام . وإذا ذهبت بك العصبية إلى أقصى درجة وألقيت بها من النافذة فإنه يهبط إلى الشارع ويأتى بها مرة أخرى ومعها صاحب المحل والحساب وانحناءة عميقة !

فما الذى تستطيع أن تفعله فى اليابان ؟

لاتفعل أى شىء : تفرج وابسط نفسك وليس المهم أن يفهمك الناس . وإنما حاول أنت أن تفهمهم . مع ملاحظة أن الناس مهذبون جداً . وأن بلادهم غنية ونشيطة ويمكنها أن تعيش من غيرك . ولكن لو عرف وزير السياحة اليابانى شخصيا أنك غير راض عن بلاده لجاء لوداعك فى المطار واعتذر لك هو وجميع أفراد أسرته . . ولدعاك إلى فنجان شاى فى أقرب مطعم على حسابك .

وإذا أنت حاولت أن تسمع نكتة من أحد اليابانيين فيجب أن تتحمل أنت النتائج وحدك . . هذه النكتة مثلا : يقول أحد اليابانيين أنه كان يقيم فى بيت وشبت النار فى البيت . أكلت كل شىء وأحرقت والده وانتقل إلى بيت آخر واحترق البيت كله وأكلت النار والدته . وانتهت النكتة !

والذى لايمكن وصفه عادة هو أن الذى يروى النكتة يضحك طول

الوقت على الصدفة العجيبة كيف أن النار تختار أباه فى المرة الأولى وتختار أمه فى المرة الثانية . . ومن الواجب أن تجامله وتضحك على خيبته . .

نصيحة : إذا أردت أن تكون يابانيا فكن رجلا . ولا تكن امرأة . إن اليابان هو مجتمع الرجال . والمرأة هى المسئولة عن ذلك . فالمرأة اليابانية مخلصة جداً لزوجها وهى تعلم أنه يلعب مع فتيات الجيشا .. وهى نظرية قديمة . فقد كان ذلك فيما مضى أيام لم تكن عند المرأة فرصة لكى تلعب . ولكن بتكافؤ فرص العمل واللعب ، أصبحت المرأة اليابانية أوربية كالرجل تماما . وأصبح اللعب من نصيب الجميع . .

ونسبة الانتحار فى اليابان عالية جداً . وعندما قال جورج مكش لأحد اليابانيين أن نسبة الانتحار فى السويد أعلى ، حزن اليابانى على ذلك . فقد كان يفضل أن تكون اليابان أعلى فى كل شىء .

وعندما سافر جورج مكش إلى الملايو لم يعجبه من هذه البلاد التى أحبها الأديب الإنجليزى سومرست موم .. لا كيف يعيش الناس ولكن كيف يموتون . ففيها بيوت اسمها بيوت الانتظار . تجد فيها الناس العواجيز وقد انعزلوا عن الحياة ينتظرون السنوات القليلة الباقية حتى إذا جاءهم الموت كان هينا . إنهم ينتظرونه على المقاعد وفى الحدائق الصغيرة . . والناس فى هذه البلاد يرون أن الموت — ولعلهم متأثرون بالفلسفة الصينية — فرصة للمرح ، وليس مناسبة للهم والغم . فهم يرتدون الملابس البيضاء ويعزفون الموسيقى . وحكمتهم أن السماء قد ضحكت عليهم بالحياة وبالموت . فلماذا لا يشاركون فى هذه النكتة !

وإذا أردت أن تعرف كيف يمكن أن يكون الانسان بعيد النظر وفى نفس الوقت منبوذا فى عصره فإليك هذه القصة :

فى سنة ١٨٨٨ اقترح مدير حدائق جزيرة سنغافورة أن ينقل أشجار

المطاط من أمريكا الجنوبية ويزرعها فى الملايو . وبذلك يمكن الاستغناء عن أمريكا الجنوبية . وضحك الناس . ولكن فى سنة ١٩١٩ عندما مات هذا الرجل كانت أشجار المطاط هى مصدر الثروة الحقيقية لهذه البلاد . . إن هذا الرجل قد غير وجه التاريخ .

ومن المناسب هنا أن نذكر عبارة للفيلسوف برتراند رسل . . يقول الفيلسوف : إن جزيرة كورسيكا التى ولد فيها نابليون إذا لم تكن قد ضمت إلى فرنسا وإذا لم يكن نابليون فرنسى الجنسية لتغير وجه التاريخ كله . .

أما مدينة بانكوك عاصمة سيام أو تايلاند كما تسمى الآن . فهى غريبة عجيبة مسحورة . لاتعرف بالضبط إذا كانت متحضرة أو متخلفة . ولكن فيها جميع عناصر الحضارة والتخلف معا . والناس هنا يضحكون على الفاضى وعلى المليان . وهى الدولة الوحيدة فى كل آسيا التى لم يستعمرها الرجل الأبيض . ولقد حاول اليابانيون عندما احتلوها أن يضيفوا إليها الشىء الكثير من الأرض المجاورة ولكن بقى أهل هذه البلاد يضحكون . وحكمتهم أن المنتصر لن يأخذ من المهزوم شيئا إنه يريق دمه . ويبقى الناس كما هم — نموذجا للاستخفاف أو البلادة . ولكن الناس يضحكون على كل حال . . وفى هذه البلاد يناديك كل إنسان باسمك الصغير . لدرجة أن أكثر الأصدقاء لايعرفون بقية اسمك . . ومن النادر أن يقبل إنسان ذلك . أو حتى يجد مبررا لهذا السلوك الغريب .

والبلاد غنية والشعب فقير . ولكنهم يؤكدون لك : أن الأرز فى الحقول والسمك فى البحر . ولا شىء من ذلك فى البيت — وهى حقيقة . ولكنهم يضحكون لذلك . .

ومن الممكن أن يكون للرجل زوجة واحدة وعدد من العشيقات ومن الممكن أن توجد النساء جميعا فى بيت واحد . إلى أن يتمكن الزوج من البحث عن شقة مناسبة . وقد يكذب الزوج على زوجته فيقول لها : إنه

كان عند عشيقته فى الليلة الماضية مع أنه فى الحقيقة لم يكن عندها . وإنما كان يلعب القمار — وهذه كبرى الخطايا عندهم !

* * *

وأهم ما فى رحلات جورج مكش أنه ينتهز هذه الفرصة ليدور حول نفسه يقف أمام المرآة ويصف لك بطل هذه الرحلات : رجل . أكيد رجل . زوج وعنده أولاد . لاشك فى ذلك . ووسائل التأكيد من ذلك سهلة ومعروفة ورأسه مستدير كان المفروض أن يكون كرة تتدحرج على الأرض لولا أن الله شاء أن يجعلها تخص شخصا واحدا وأن تستقر على كتفيه بدلا من أن تدوخ بين أقدام الآخرين . عيناه ضيقتان . ولو خلق الله عينيه أوسع من ذلك قليلا لكان من الضرورى — إنها مسألة فنية — أن يكون رأسه أكبر إذن فليس فى الإمكان أبدع مما كان . فيما عدا شفتيه فهما نحيفتان ، متآكلتان وليس السبب فى ذلك أية صفة وراثية ، وإنما هو كثيراً ما جلس يأكل فى نفسه. وأقرب ما يأكله هو شفتاه . إذن فشفتاه قد أكلهما على مراحل ولابد أن الشفتين قد استقرتا على مكان من المصران الأعور .. وهذا اللمعان فى العينين معروف . تجده كثيراً عند سماسرة البورصة . . إنه ذكاء انتهازى ولكنه لم يعط الفرصة المناسبة لكى يظهر . ولذلك فهو الذى يتيح لنفسه هذه الفرصة كلما سافر إلى بلد . إنه يساوم على سمعة هذا البلد : هل تريد بلدا حسن السمعة أو سيء السمعة . ثم لايجد أحدا يساومه . . وتكون النتيجة أنه هو وحده الذى يختار أن يجعله سيء السمعة !

أما إن رأسه أصلع فقد اختلفت الآراء فى ذلك . إناس يقولون : رجولة مفرطة . . ونظريات تقول : إنها وراثة . . وكل هذه النظريات صحيحة ولكنها جميعا لاتنطبق عليه . لأنه أصيب بمرض جلدى وهو صغير . . وظل يهرش رأسه حتى سقط شعره . . وليست كتابته إلا نوعا من هرش جلد أناس وشعوب لعل شعورها ومشاعرها أن تتساقط عليه . . أو ضده . .

إنها فى جميع الحالات ضده .. فهم يستمعون به ويحبونه ، ولكن الاحترام مسألة أخرى .

بقى سؤال واحد لماذا يشترى الناس كل كتبه ، ملايين المرات ؟

والجواب — وهذا رأيه أيضا — أن الناس يحبون الذى يهرشهم ويضحكهم مهما كانت الآلة الحادة التى يستخدمها !

وفى الليل ...
هرب آدم من حواء
إلى الجنة !

الرياح تعصف بكل شيء خارج البيت الصغير . . وأصوات النوافذ والأبواب تتضارب . . والصفافير تنفذ من فتحات في الجدران وبين أوراق الأشجار ونباح الكلاب وعواء القطط . . وأصوات أخرى لعلها أفكار الناس أو همومهم . . أو لعلها أصداء مثل هذا الحوار الغريب بين رجل وزوجته . . الزوجة قد ارتدت قميص النوم . . ووضعت فوقه روبا ولا تستطيع أن تفتح عينها . . والرجل قد ارتدى ملابسه كاملة ، وفي يده زجاجة خمر لم يبق فيها شيء . . وفي استطاعته -- وكثيراً مافعل -- أن يجعلها سلاحا قاتلا لهذه الزوجة إذا عارضته . . أو اعترضته . .

قالت له : إلى أين . .

هو : إلى الشارع . .

— وفي هذه الساعة . .

— إن الشارع مفتوح ليلا ونهاراً .

— وبعد الشارع ؟

— إلى شارع آخر . .

— وفي النهاية . .

— إلى أي بيت لا أجدك فيه . .

— في استطاعتك ألا تجدني في هذا البيت . . ابق أنت . وأنا سوف أخرج . .

– ليس هذا . .

– إذن ماذا . .

– أريد أن أهرب من الأسئلة الباردة . . أريد أن أهرب من الأسئلة الباردة . . وأرحم نفسى من الإجابات التى تحرق أحشائى . . هل فهمت الآن . .

– إلى أين . .

– قلت لك . .

– ليس عندك ما تقوله أكثر من ذلك .

– عندى . .

– ماذا . . ؟

– أريد أن أقبل الأطفال . .

ودخل . . وكشف الغطاء عن أطفاله الثلاثة . . وقبلهم واحدا واحدا . . ثم عند الباب تردد وقبل زوجته . .

وقالت الزوجة : إلى اللقاء . .

وقال الزوج : وداعا إلى غير لقاء . .

ثم عاد الزوج ليقول لها : هذا قرارى الأخير . . لا أصلح لأى عمل آخر . . هذه هى حياتى . . وقد دفنتها بيدى هنا . . لكى أعثر عليها هناك . .

وقالت الزوجة : أين . .

قال : هناك . . فى أى مكان آخر . . كلمة هناك معناها . . أى مكان ليس هنا !

وانطلق إلى الشارع يغنى لحنا نشازا ضمن موسيقى الشتاء فى شوارع باريس

ولكنه لايدرى ما الذى صنعه ، ولا ما الذى فعلتـه زوجته أو أولاده . . كل ما يعرفه أنه قرر أن يترك فرنسا . . أن يترك العمل فى أحد البنوك ، لأنه لا يصلح لعمليات الضرب والطرح . .إنه يصلح لشىء واحد هو أن : يرسم فقط !

هذا هو الفنان الفرنسى بول جوجان . . أبوه صحفى وأمه من بيرو بأمريكا الجنوبية . . بدأ حياته بحارا وبعد ذلك اشتغل فى البورصة . . ثم عمل فى إحدى البنوك . . وفى منتصف إحدى الليالى قفز من السرير لأن صوتا فى السقف يناديه : اهرب وتعال هناك . . ارسم . . فأنت عبقرى ولكنك لا تعرف !

ولم يكن بول جوجان هذا كاتبا . ولا صناعته الكتابة ، ولكن كتابه الذى أصدره ابنه اميل فى سنة ١٩٢٣ أى بعد وفاته بعشرين عاما يؤكد لنا أن الأب كاتب وناقد موهوب أيضا ، والكتاب اسمه « مذكراتى الشخصية » وقد انتهى بول جوجان من كتابتها فى السنة التى مات فيها . .

يقول جوجان : ولدت هاربا . . لاأعتقد أننى من أصل إنسانى . . لابد أن بين أجدادى عددا كبيراً من الطيور المهاجرة . . فأنا لا أقوى على البقاء كثيراً فى مكان واحد . . لا أعرف ماذا يحدث . . إن المكان نفسه يرفضنى . . ينكرنى . . يستنكرنى !

هرب بول جوجان إلى جزيرة نائية فى المحيط الهـادى . . جزر تاهيتى . . ثم جزر المركيز . . عاش فيها . . وهرب منها . . ثم عاد إليها ومات فيها — أى أحبها حتى الموت !

يقول فى بداية كتابه هذا : لا أعرف الكتابة ، ولكن أحب أن أكتب كما أرسم ، فأنا أرسم صورة القمر . . وبعد ذلك أبحث لهـا عن اسم . .

ويقول أيضا : أحسن شىء فى هذه الدنيا إن كان فيها أى شىء حسن

أن يمسك الإنسان لسانه ، وهذا شيء صعب ، فأحيانا نجد اللسان مثل سمكة القرش قاتلا ساما ، وأحيانا نجده كالسراب . وهناك أناس كثيرون إذا أمسكت لسانهم اختنقوا إنهم يتنفسون أثناء الكلام . . وأنا واحد من هؤلاء .. لولا أن الله قد خلق لسانى فى أصابعى . . فأنا من ذوى الألسنة العشرة . .

إنه يعرف كيف يكتب ، وكيف يقول . .

وكأنه يريد أن يؤكد لنا أنه قادر على الكتابة يقول : فى يوم من الأيام كانت الحيوانات قادرة على الصراخ بصوت هائل . . أما اليوم فلم تعد قادرة على ذلك ، وكم تمنيت أن أكون حيوانا قوياً طبيعيا . . أما اليوم فلم أعد أتمنى ذلك . . إن الحيوانات أصبحت تعرف القراءة والكتابة — كما ترى !

ويقول أيضا : كم أنا مدين للمجتمع . . مدين بالكثير . . وكم يدين لى هذا المجتمع . . يدين بالكثير جداً ، فمتى يدفع ؟ إنه لن يفعل !

ومثل هذه اللقاءات واللمحات كثيرة جداً فى كتابه هذا وفى روايته الوحيدة التى اسمها « نوا . . نوا » . . وهو فى الحقيقة يكتب كما يرسم . . بقعة من هنا . . وبقعة من هناك . . موضوع من هنا . . ومسرحية من هناك.. قصة من جزر تاهيتى . . وفضيحة من الدانمرك التى لايحبها . . وهو لايعتذر عن الفوضى فى كتابه . . هذه هى طبيعة الأشياء . . وهذا هو الفرق بين الحديقة والغابة . . إنه يفضل أن يكون كتابه غابة من الأشجار والحيوانات والصيحات والعطور . . فهو إنسان بدائى أو يريد أن يكون كذلك ، وكان كذلك وهرب من أجل ذلك .. وعاش ومات على النحو الذى أراد .. بل إنه عندما مات اختار لنفسه المكان الذى يموت فيه . . . اختار البحيرة الحمراء والأغصان الزرقاء . . وعظام الذئاب . . وريش النعام . . ثم جعل دخوله إلى القبر مع ضوء القمر . . إنه هو الذى رسم هذه اللوحة . . . ووقع عليها بجسمه كله . .

كانت رحلته عادية إلى هذه الجزر النائية فى المحيط الهادى . . فقد عرف البحر قبل ذلك كثيراً وهو طفل ، وهو يقدس الأمواج والعواصف ، وكثيراً ما فكر فى أن يرمى بنفسه فى أحضان الموج .. أو الموت .. مبهورا بالألوان الزرقاء السوداء الخضراء الهوجاء ولكن زملاءه كانوا يربطونه بالحبال .. وفى إحدى الليالى تعالت أصوات البحارة : إن واحدا من الفرنسيين قد سقط فى المحيط .. وفوجئ الجميع بأن شابا فى لون الليل قد ألقى بنفسه فى المحيط وراءه.. ثم سحبه وأنقذه .. هذا الشاب زنجى .. هذا الشاب لم يفكر فى حياته .. وإنما فكر فى انقاذ حياة إنسان . . وتصادف أنه إنسان أبيض ، هنا اهتزت مبادئ جوجان . . وأحس أن هناك قيما أخلاقية يعرفها السود ولا يعرفها البيض ، مهما كثرت كتبهم ورواياتهم عن الفضيلة وملكوت السماء .

وعندما رست السفينة فى جزيرة تاهيتى ، أحس جوجان بخيبة أمل . . إن الجزيرة هادئة غنية بالألوان . . كل شئ فيها كما خلقه الله . . أى كما هو منذ خلقه الله . . ولكن لا يعيب هذه الجزر إلا الفرنسيون الذين استعمروها وإلا ثلاثة من الفرنسيين : الحاكم والقسيس والرجل الذى يبيع الدخان وطوابع البريد ، ولما قرر جوجان أن يشترى قطعة أرض قالوا له :

— تريد أن تشترى أرضا ؟ . .

قال : نعم . .

قالوا : إذن يجب أن تذهب إلى القسيس . .

قال : وأين هو ؟

قالوا : يجب أن تنتظره حتى يعود . .

— من أين . .

— من فرنسا . .

— ومتى يعود . .

— فى العام القادم . .

لا أرض يشتريها أحد أو يبيعها إلا إذا وافق القسيس على ذلك ، والقسيس لايوافق إلا إذا تأكد من رؤية راغبي الشراء عشرات المرات فى الكنيسة . . وجوجان لا يذهب إلى الكنيسة ، فلن يشترى أرضا ،ولن يجد من يبيعها له . .

وقرر أن يبنى لنفسه كوخا . .

واختار جبلا صغيراً مشرفا على إحدى الغابات ، وأقام لنفسه كوخا وجعل باب الكوخ مفتوحا ، فليس هناك ما يخاف عليه . . ولا أحد يعرف السرقة بعد .. وعرف بعد ذلك أن أشياء كثيرة تدخل من الباب المفتوح : العطور والطيور وبنات تاهيتى . .

ولم يسأل فتاة واحدة عن سبب مجيئها .. ولا هى قالت .. وهو يقارن دائماً بين ما تفعله فتاة تاهيتى وفتاة باريس . . فالمرأة فى تاهيتى تقول : لا أعرف إن كنت أحب هذا الرجل فأنا لم أعانقه بعد . .

ولكن الفتاة الفرنسية تقول : لقد اعتدت أن أحبه ، ولكن بعد أن عانقته كثيراً لم أعد أحبه . .

إن المرأة فى تاهيتى نموذج نادر بين النساء . .

كل شئ فيها وحولها ومعها جميل . . الله خلقها كذلك . . أى أنها ما تزال كما خلقها الله . .

وأمام المرأة فى تاهيتى يقول ذلك الرجل الهارب من زوجته :

أن يعرف الانسان كيف يعطى ، هذا رائع . . أن يعرف الانسان كيف يأخذ هذا أروع . . ويقول : إذا كان أبى حمارا ، فلا ذنب لى ، أن أمى هى التى اختارت لنا ذلك . .

وفى إحدى الليالى طلب إلى إحدى فتيات تاهيتى أن تقف بينه وبين

الشمس عند الغروب . . ولما صرخ من نشوة الألوان لم تخف الفتاة . . وإنما راحت تضحك .. فإن صوت إنسان لا يخيف فتاة اعتادت على صوت الوحوش . .

وانحنى جوجان عند قدميها القذرتين وساقيها اللامعتين وراح يصرخ ويقول : مولاى . . آلهتى . . فقد تعلمت أن هناك ثلاثة أنواع من الحب : الحب المعنوى . . والحب الجسدى . . والحب اليدوى . . الأول هو : الأخلاق . . والثانى هو : السفالة . . والثالث هو : البخل . . وأنت صورة من كرم الله !

وجعل الكوخ بغير باب .. فالباب الذى يجئ منه الريح من يقفله ، لا يستريح . ودخلت مع الريح فتاة جميلة . . أنقل لك صورتها : ذهبية البشرة . . صفراء ذهبية . شعرها أسود . . عيناها سوداوان .. الأسنان بيضاء . . الكتفان ناعمتان مستديرتان . . والعنق مصبوب من رخام . . ونهداها مستديران . . وهذه النظرة فى عينيها لاتدعو إلى شئ . . إنها مائدة ممدودة . . إنها دعوات بلا بطاقات . . أما ساقاها فأجمل ما خلق الله فى هذه المنطقة من العالم . . ويقارن جوجان بين ساقى الأوربيات وساقى فتيات جزر تاهيتى والمركيز . وكل شئ يحذفه من حساب بنات أوروبا يضيفه إلى حساب بنات هذه الجزر مع الفوائد الضرورية إنه لم ينس وظيفته الأصلية فى أحد بنوك باريس . .

أما رائحة الفتاة فصارخة بكل عطور الغابة . . وفى شعرها تعلقت الورود. وفى أظافرها وبين أصابعها . . وفى نهديها . . وفى جسمها العارى وضعت عطورا وألصقت أوراق الشجر . وخلع جوجان ملابسه . . وفى الليل طلب إليها أن تسحبه . . قرر أن يمشى مغمض العينين . فى أنفه وفى أذنيه وفى جسمه كله ألوف العيون وألوف الصور . . وسحبته الفتاة . . عاريا . . أعمى . . ونزلت الجبل . . وتسللت بين الأشجار . . وهو يتخيل نفسه

هوميروس الشاعر الأعمى العظيم . . وكل المعانى تنصب فى أذنيه . . وبعد ساعة من السير فى الغابات توقفت الفتاة فجأة ، وسألها . . وقالت شيئا لم يفهمه ، وفتح عينيه ليجد نفسه أمام بيت القسيس الذى عاد فجأة من باريس ونظر إليه القسيس . . وبسرعة خلع ردائه وغطاه وطلب إليه أن يحتشم وأن يفعل ما يليق بشرف فرنسا . . وقرر القسيس أن يهديه قطعة أرض بشرط أن يجعل لها سورا عاليا حتى لايراه أحد إذا قرر أن يمشى عاريا . .

وتزوج جوجان هذه الفتاة . . وأنجب منها أطفالا . . أما اللغة التى بينهم فإشارات . . فإن الفتاة إذا أرادت أن تتكلم فصوتها خليط من نقيق الضفادع وموج المحيط . . أما هذا الذى يقوله الله فى جسمها فكل الألوان والموازين والمقاييس.. هو البلاغة نفسها . يقول جوجان : إذا أردت أن تبحث عن دليل على عظمة الله وعلى أنه هو الجمال فتعال هنا . . ألف دليل . . فى ألف جسم . . فى كل لحظة آمنت بالله مليون مرة كل يوم . .

ولكن فى هذه الجزيرة النائية يعود جوجان بخياله إلى ليالى باريس . . وإلى أصدقائه من الفنانين العظام مثل فان جوخ ثم يتذكر الأوبرا والمسرح .. يتذكر مسرحية « عدو الشعب » للكاتب النرويجى ابسن . . يقول أن بطلة المسرحية تحولت فى لحظة واحدة إلى كتلة من النار يذوب لها الجليد وبعد ذلك قررت أن تعيش فى وادى الذئاب . .

ويقول جوجان : إننى أعرف عدوا آخر للشعب .. هذا العدو لم تمش وراءه زوجته . . ولكنها استطاعت أن تربى أولاده على أن ينكروه . . . علمت أولادها كيف يقولون يا ماما . . بعشرين طريقة . . ولم تعلمهم أن يقولوا يابابا ولو مرة واحدة .. جعلت حرف « الميم » واحدة من أسنانهم .. أما حرف « الباء » فقد جعلته شيئاً يسقط من بين أسنانهم . . جعلت زوجها عدوا لشعبه . . عدوا لأبنائه أو جعلت أبناءه أعداءه . . آه . . آه . . ليس أسهل من اسقاط امرأة ، ولكن . . آه .. ما أصعب أن يرفعها إنسان !

وعلى الرغم من أنه حاول أن يكون بدائيا . . يعيش مثلهم ويرسمهم كما هم ، مخالفا بذلك كل المدارس الفنية المعاصرة ، فإنه كان يحن إلى الحياة فى أوروبا . . وعلى الرغم من هذه الحياة الهادئة ، فإنه كان يحن إلى الفزع .. إلى الرعب . . كان يصطنعه . . يفتعله . . كان يخيف الناس . . وكان يستدرج الناس إلى أن يخيفوه أيضا . . وكان يقول : أن الخوف يبعث على الخوف . .

ويتذكر كيف أنه هو وزوجته فى إحدى الليالى.. كان كل منهما يقرأ قصة للكاتب الأمريكى ادجارالن بو . . القصة على مايذكر ، كان اسمها « القطة السوداء » . . وكان ذلك فى الشتاء . . واحتاجا إلى مزيد من الفحم يضعانه فى المدفأة ، ونزلت الزوجة تبحث عن الفحم عندما اصطدمت بقطة سوداء فصرخ الاثنان فى وقت واحد . . وعندما مدت الجاروف لتملأه بالفحم تدحرجت جمجمة إنسان . . فصرخت الزوجة . . وعندما نزل هو لينقذها ويترك قصته « الهيكل العظمى » التى كان يقلب فيها . . وأمسك الجاروف من يدها . . وسحب الفحم . . تدحرج هيكل عظمى كامل . . لقد كانا يسكنان فى بيت صديق فنان كان يرسم الجماجم البشرية !

ويقول جوجان فى « مذكراته الشخصية » آه . . آه ياسيدى . . أريد أن أحب ولا أستطيع . . أريد ألا أحب ولا أستطيع . . إننى أحمل فى داخلى هذا العذاب المستمر . .

ويقول أيضا : أن تعرف كيف تعطى ليس معناه أن تعرف كيف تأخذ لأن الذى يعرف كيف يعطى هو الذى يعرف كيف يأخذ . . وهنا كل شىء حولك يعطيك ولكن هذه الطبيعة لم تتعلم بعد كيف تعطيك بحساب . . . إنها تفيض عليك . . إنها تغرقك . . إنها تخدرك . . إنها تفقدك وعيك . . عقلك . . ولذلك فأنا على يقين من أننى لن أخرج منها عاقلا . . لن أخرج منها . . إنها أروع وأعظم وأخلد مؤامرة على عقلى التافه . .

يقول أيضا : إذا قال لى إنسان يجب أن تفعل كذا وكذا ، فإننى أرفض. وإذا قالت لى طبيعتى يجب أن تفعل كذا وكذا ، فإننى أستسلم .

ورسم جوجان لوحات كثيرة . . وبعث بها إلى باريس . . واشترك بها فى المعارض الدولية . . ولم يكسب إلا القليل . . وأروع لوحاته هى التى ألقى بها من النافذة . . وكذلك فعل صديقه الفنان المجنون فان جوخ . .

وهرب من جزر تاهيتى إلى باريس . . ثم عاد إلى هذه الجزر . . وهرب منها إلى جزر المركيز . . ثم هرب منها . . واختفى شهوراً فى إحدى الغابات .. حبس نفسه فى أحد الكهوف . . ثم غطى جسمه بالوشم . . وراح يرسم . . راح يغمس فرشاته فى عين الشمس . . فى قلب الجحيم ويرسم وهجا من الألوان وسعيراً من العطور . لقد كانت لوحاته صرخات مكتومة دامية من أقصى الشرق إلى الغرب تنبه إلى أن الحياة ماتزال بخيرها هنا . . فى هذه الأماكن النائية من العالم . . البعيدة عن أكاذيب الحضارة الغربية . . لم يعبأ كثيراً بما يقوله الناس إنه يرسم .

يقول : الفن للفن . . ولم لا ؟
الفن للحياة ؟ . . ولم لا ؟
الفن للذة ؟ . . ولم لا ؟
لا يهم أبداً مادام هناك فن . .

وكان جوجان يعلم مقدما ما سوف يقوله عنه المؤرخون والكتاب ورجال الأخلاق والسياسة والدبلوماسية : إن الفنان يجد كثيراً من يقوله له : هذا هو الجنون . . ثم بعد ذلك يمزقونه — أقصد يمزقون الفنان ويحطمونه — ولهذا فإننى أوفر عليهم هذا العناء لقد مزقت نفسى وحطمتها . .

ويقول جوجان وكأنه يريد أن يفسر لنا سر هذه الرحلة الغريبة : ما الذى أحتاج إليه . . أو يحتاج إليه أى إنسان . . أن يعرف نفسه . . كثيرون يرون وجوههم فى الماء . . كثيرون يرونها فى بحيرات من الدم . . وأنا أردت

أن أتمسح بوجدانى على كل ورقة . . وأن أخوض فى كل عطر . . وأن أرمى نفسى عند كل غريزة . . لقد كنت فريسة للطبيعة . . وفى نفس الوقت افترستها . . عرفت نفسى . . والذى عرفته دوخنى . . فهذه هى الطريقة : لكى تعترف بوعى يجب أن تفقد الوعى .

وفى نهاية مذكراته يقول : كثيرون يعرفون كيف يكتبون ، وقليلون يعرفون فن الكتابة ، ولكن من حق أى إنسان أن يحاول ، ولا أجد أى حياء أو خجل فى أن أكتب وأن أرسم ، هذا حقى وليس من حق أى ناقد أن يمنعنى مهما كانت عباراتى عارية . .

وقال جوجان ما أراد ورسم ما شاء . . ولكن كان على أولاده من بعده أن يتستروا على هذه الفضيحة العائلية كيف أن والدهم هجر أمهم فى الليل وهرب منها إلى آخر الدنيا . .

الابن دافع عن أمه . . وقال إن والده عندما تزوج فى سنة ١٨٧٣ كان قد رسم لها لوحة تؤكد هيامه بها . .
أما الأديب الكبير سومرست موم فقد أعجبته الفضيحة فصورها فى روايته المشهورة « القمر وست بنسات » . .

وعاد أولاده يدافعون عن أمهم . . ويتبرأون من جنون الأب . .
وكذلك فعل ابن اوسكار وايلد وأخت الفيلسوف الألمانى نيتشه وزوجة الأديب الانجليزى د . ه . لورانس . وزوجة تولستوى . .

حاول أولاده وأحفاده أيضا أن يدافعوا عن سمعة رجل كان موظفا عاديا منسيا ، ثم أصبح فنانا يعرفه كل الناس . .

أو لعله أول آدم يهرب من حواء إلى الجنة ، لا من الجنة . . . وحده وليس معها ، وإنما مصحوبا بجنونه وعبقريته ! . .

تحت القنابل

في الوحل ..

على شواطئ جهنم

اعتادت أن تكون طعاما لعيون كثيرة .. وهدفا لأضواء باهرة من عدسات التصوير .. وأن يراها الناس ولا ترى أحدا .. وأن تمشى فى رشاقة على جسر خشبي تتثنى يمينا وشمالا . . ثم تدور .. وينظر الناس إلى ساقيها وصدرها .. وكل خيط فى فستانها .. إنها عارضة أزياء .

وقبل يوم العرض تمشى على هذا الطريق الخشبي وحدها مرة بعد مرة .. وتتعالى الصرخات تؤكد أنها لم تحسن عرض الفستان أو المايوه .. وأن ذراعيها لم تكونا فى حركة موسيقية مع ساقيها .. وأنه يحسن بها أن تنقص ولو نصف كيلو .. ومعنى ذلك أنها لن تظهر فى العرض القادم لفساتين شانيل إحدى ملكات الأزياء فى فرنسا .. ومن السهل على أى إنسان أن ينقص وزنه نصف كيلو فى أى يوم .. ولكن عندما يكون الإنسان فى وزن هذه الفتاة وطولها .. لم يبق إلا أن يقطعوا لسانها ونهديها وشفتيها .. فليس فى جسمها إلا جلد وعظم !

وفى إحدى المرات — وكانت هذه نقطة التحول — كانت تعرض أحدث فساتين الشتاء .. وكان الفستان لعروس. ولسبب لا نعرفه الآن تعثرت ووقعت وهناك قاعدة عند ملكات الأناقة إذا تعثرت واحدة ، فإنها تتشاءم . ولذلك يجب أن تعتزل عارضة الأزياء هذا العمل فوراً وإلا كانت نحسا على الجميع !

وبعد عرض الفستان اعتزلت عارضة الأزياء « ميشيل رى » العمل فى مؤسسة شانيل ..

وقررت أن تمشى على جسر خشبي آخر .. وعلى جانبيه أنوار باهرة

وعيون إنسانية وعيون إلكترونية .. وكل شئ يبهر ويقتل .. وإذا سقطت فإن ألوف الأيدى سوف تمتد إليها .. ووجودها بين هؤلاء جميعا لن يكون مصدرا للتعاسة ، وإنما سوف تسعد الجميع ..

قررت أن تذهب إلى فيتنام مراسلة لمجلة « لونوفيل أوبسير فاتور » ثم وكالة الأنباء الفرنسية ، وكان ذلك فى سنة ١٩٦٤ ، وميشيل فتاة مغامرة فقد اشتركت فى سباق السيارات قبل ذلك وكادت أن تموت ، ولكنها فى آخر لحظة أنقذتها إحدى الأشجار . وأيقنت منذ تلك اللحظة أن هذه الشجرة ليست إلا إصبعا من أصابع العناية الإلهية .. إذن فالسماء قد ادخرتها لمهمة أخرى ، فلا خوف عليها من شئ .. وعاشت فى فيتنام ستة شهور .. وسافرت بعد ذلك إلى كوبا وقابلت كاسترو .. وقبل ذلك سافرت إلى بوليفيا وقابلت جيفارا قبل مصرعه .

وأهم من ذلك أنها وقعت أسيرة لقوات فيتنام الشمالية . أما مغامراتها الممتعة المثيرة فقد روتها فى كتاب لها بعنوان « على شاطئ الجحيم » ..

والرحلة بدأت طبعا بأن ذهبت إلى سايجون عاصمة فيتنام الجنوبية . . القوات الأمريكية فى كل مكان . . والبضائع الأمريكية على الأرصفة ، هذا واضح..وسايجون هى قلب العالم الذى ينزف بالأخبار وكل العيون تتجه إلى هنا ، وكل العيون قد أوجعها النظر إلى هنا أيضا ..

الجندى الأمريكى يقول : بعد ستة أشهر سوف ينتهى كل شئ ..

التاجر الأمريكى : يجب ألا ينتهى أى شئ ..

أهل فيتنام يقولون : نحن تعساء على كل حال ..

هنا فى مطار سايجون ضوضاء لا نظير لها فى الدنيا .. طائرات تعلو وتهبط ، ودخان ، ذئير ، صفير ، صراخ ، ضباب ، سحاب ، رطوبة ، نار ، عرق ، وأرق ..

النعومة تجدها فقط فى وجوه وحركات المضيفات الأرضيات ، قد ارتدين الأزرق التركوازى والبنطلونات البيضاء ، حركاتهن رقيقة . . ابتسامتهن ناعمة ، أما الأمريكان فهم فى كل مكان قد وضعوا أيديهم على مسدساتهم يمضغون اللبان الأبدى الذى لا ينتهى . والذى كأن الأفواه تفرزه! .وعيونهم المتشككة على كل الهابطين من الطائرات .. وهذه النظرات التى لم يختف أثرها حتى بعد أن هبطت ميشيل رى فى الشارع ..

أول ما فعلته طبعا هو أن تبحث عن غرفة ، وجدوا لها غرفة بخمسة أسرة ،ولا تعرف إذا كانت ستشغلها وحدها أو ستفاجأ بضيوف آخرين . على كل حال أمضت الليلة بصعوبة ، فلا هدوء .. الطائرات تهز كل شئ وطلقات المدافع أو القنابل هى الطعام اليومى لكل الناس هنا ..

والأمريكان يعقدون مؤتمرا صحفيا فى الساعة الخامسة مساء ، الصحفيون يسمونه جنون الساعة الخامسة ، يتلقون المعلومات والإجابات عن كل سؤال وأمامهم جميعا يجدون خريطة عليها علامات زرقاء للأهداف التى أصابتها البحرية ، وعلامات سوداء لأهداف القوات الجوية .. ورجال البحرية والطيران لا يعرفون من هذه البلاد التى يضربونها بالقنابل سوى هذه العلامات ، يضغطون على الزراير ويمضغون اللبان ويضحكون ويصيبون الأهداف ويعودون .

الشئ الذى يلفت العين فى سايجون من أول لحظة هو وجود عدد كبير جداً من الأطفال .. أين أمهاتهم ، لماذا تركنهم ؟ لا إجابة عن هذا السؤال فهى حالة حرب ، وقد يكون الأب قد مات ، والأم أيضا ، وقد يكون الإبن لقيطا ، هذه الأسئلة لا قيمة لها ، ومن الأفضل أن يبتلعها الإنسان ، وقد ابتلعت ميشيل مع هذه الأسئلة الكثير من المشاهد المؤلمة .

ولم تضحك لمن قال لها : تصورى أيام الاستعمار الفرنسى لهذه البلاد

كانت النساء أصح ، وأجمل ، كانت لهن نهود وأرداف . أما الآن فإن النهود الصناعية والأرداف الصناعية معروضة فى الأسواق . لعل الفتاة الفيتنامية تعجب الجندى الأمريكى ..

أما الفتيات فجميلات ، فى غاية الرشاقة ، وهن غاليات الثمن ، إن جلوس فتاة جميلة مع جندى أمريكى لشرب الشاى يكلفه الكثير ، لايهم الشاى ، إنه مثل الشمبانيا ، فالثمن واحد .

وفى الشارع تجد من يقول لك : عندى أختى درجة أولى ..

أو من يقول : أختى فى العشرين من عمرها ممتازة فى كل شئ !

الكباريهات فى كل مكان ، وفتيات فيتنام من كل مقاس ولون وسعر . والبارات لا تغلق أبوابها ليلا أو نهارا والأضواء الحمراء تدعو كل أمريكى لـكى يجرب حظه .. سيجد الفتاة التى تعجبه ..

والناس فى فيتنام يلعبون القمار ، حتى آخر قرش — والعملة هناك بالقرش أيضا ، حتى رئيس الدولة يقضى ساعات من نهاره فى مشاهدة مصارعة الديوك .. وهو يحتفظ لنفسه بحظيرة للدواجن ويتولى بنفسه أيضا صنفرة أصابع الديوك وجعلها حادة .. وكذلك مناقيرها حتى إذا اشتبكت مع ديوك أخرى قتلتها فى الجولة الأولى ..

اللغة السائدة هى الإنجليزية طبعا ولكن الوزراء لأن ثقافتهم فرنسية يكتبون خطبهم وأحاديثهم بالفرنسية ، ثم تترجم لهم بعد ذلك .

وصدرت لها التعليمات بأن تستعد للذهاب إلى الجبهة ، قالوا لها : لا تنسى أنك الفتاة الوحيدة بين عشرات الألوف لم يروا امرأة من ستة شهور .. ولا داعى لأن تستخدمى أدوات الزينة . فالأعصاب لا تتحمل ذلك .. وعليها أن ترتدى ملابس عسكرية خشنة وأن تضع ما هو ضرورى فقط .. فرشاة

أسنان .. مرآة والكاميرا وبعض الأوراق .. ثم ترتدى حذاء عسكريا .. أما الخوذة فيمكن استخدامها لشرب الماء وأحيانا للاستحمام أيضا ..

وعليها ألا تفقد صبرها مهما طال انتظارها ، فليست هى الكائن الوحيد الذى يستحق العناية من الدرجة الأولى ، وأكدوا لها أن الاهتمام بها سوف يكون من الدرجة الثالثة .. إنها حالة حرب ..

ورأت أحد الجنود وقبل أن تفتح فمها قال لها : أريد أن أموت .. لأن الموت انتقال من الجحيم إلى الجنة ..

وضحكت هى ، ولم يضحك ..

وفى الليل تحدد موعد الخروج ، لا سيارات ، وإنما يجب أن تمشى على قدميها ، فى حقول الأرز ، صحراء خضراء ، أو محيط من الوحل ، لاشئ إلا صوت الماء والضفادع والصراصير .. ورصاص يجئ من بعيد .. ومن قريب ، وإلى جوارها سقط أحد الجنود .. وعندما حاولت أن تقترب منه فقد يكون قد اصطدم بشئ فتعثر ، سحبها الجاويش قائلا : لا شئ .. أنه قد مات .

لا شئ إنه قد مات ؟ .. إنها نسيت أن الذى تخوض فيه هو ميدان قتال ..

وفى ليلة أخرى طلبوا إليها أن تذهب إلى أحد الموانىء فسوف ترى شيئا جميلا ، وفى الساعة الواحدة اصطف الجنود ، وتقدمت فتيات يحملن باقات الورد ،وامتد شريط أبيض ، وجاء صف من الضباط واقتربت الفتيات ولففن الورود حول أعناق الشبان .. لقد عادوا منتصرين من غاراتهم على العدو .. أما عادة الورود هذه فقد نقلها الأمريكان من جزر هاواى إلى هذه البلاد .. أما هؤلاء الشبان المنتصرون فهم لا يعرفون بالضبط ما الذى

فعلوه ، أن أمامهم خريطة ، وتحت أصابعهم زرايز .. وفى لحظات ينتهى كل شئ ويعودون للورود .. عشرات المرات من كل يوم ! ..

ولكن واحداً منهم لا يدرى ما الذى فعلته القنابل ، ولا أن إنسانا مثله مات .. وقبل أن يموت شعر بشئ من الفزع .. ولعله سأل : ولماذا الموت ؟ ولكن الذى قتلوه لا يتساءلون : و لماذا القتل ؟

ودعيت إلى السفر فى إحدى حاملات الطائرات « كورال سى » إنها مطار متحرك .. ملئ بالوحوش الحديدية الصارخة المخيفة .. وزنها ٦٣ ألف طن وطولها ٩٧٣ قدما .. أى ثلاثة ملاعب كرة قدم .. بها ألفان من الموتورات الكهربائية وبها ٢٥٠٠ غرفة .. وتستطيع أن تبخر من ماء البحر مليون لتر فى اليوم .. وأن تقدم ١٤ ألف فنجان قهوة فى وقت واحد ، وعشرة آلاف وجبة .. وقوة محركاتها تعادل قوة ١٤٠ قاطرة كهربائية .. وتحت سقفها زواحف من الحديد النفاث السام .. عددها ٧٥ طائرة: قاذفات قنابل ومقاتلات واستطلاع . وكل عشرين دقيقة ينطلق عدد من الطائرات .. وبعد ربع ساعة تعود الطائرات ويتجه طياروها إلى غرفة العمليات مباشرة لرؤية مسار الطائرة فى صعودها وهبوطها وإصابتها للأهداف على شاشة التليفزيون .. وبعد ذلك شهيق وزفير وصفير .. وزقزقة .. وجلجلة .. وسحب ورعد .. وبرق .. والناس يمضغون اللبان كأن شيئا لم يحدث لا هنا ولا هناك .

وبعد ذلك كان لابد أن تتجه ميشيل رى إلى الهدف الذى جاءت من أجله ، لقد عرفت الأمريكان وانبهرت بعددهم ونظامهم . وكيف غيروا معالم فيتنام ، وروعتها آلات الدمار الضخمة الفخمة ، إنها تريد أن تذهب إلى الجبهة على مسئوليتها هى وعلى حسابها ، وذهبت تبحث عن سيارة تستأجرها ، رفضت كل محلات السيارات ، لأن شركات التأمين ترفض التأمين على أية سيارة تدمرها الحرب : القنابل أو الألغام ، وأخيراً عثرت

على سيارة صغيرة ، وجعلت لهذه السيارة صفائح من الصلب لا ينفذ منها الرصاص وجعلت ذلك تحت مقعدها ، أما فى مقدمة السيارة فقد وضعت خمسة جوالات من الرمل ، وهى لا تخاف لأنها فرنسية ، وليست أمريكية ، وفيتنام الشمالية ترى أن فرنسا دولة صديقة ويكفى أن تقول لأى جندى من فيتنام الشمالية : إنها صحفية فرنسية ، وجواز سفرها يؤكد ذلك بوضوح تام . وحاول زملاؤها الصحفيون أن يقولوا لها : كان غيرك أشطر .. أقعدى .. أقعدى ..

ولكنها أصرت ، وأمامها طريق طوله ١٨٠ كيلو متراً ، وبعده تجد نفسها وجها لوجه أمام قوات فيتنام الشمالية ، وعليها بعد ذلك أن تحترس من الألغام فهناك نوعان من الألغام : ألغام تنفجر باللمس المباشر ، كأن تدوسها السيارة أو تصطدم بها .. وهناك ألغام تنفجر لاسلكيا ، وهذه الألغام لا تنطلق عادة إلا على الأهداف العسكرية وليس المعقول أن يطلقوها على سيارة صغيرة بها سيدة ترتدى ملابس عسكرية بسيطة .. ثم إنها صحفية .

لقد اعتادت على القنابل ، ولكن الشئ الذى لا تستطيع أن تعتاد عليه ليلا أو نهاراً هو : هؤلاء الأطفال .. صغار .. إن أمهاتهم قد تركتهم ، فلا وقت للرضاعة أو الحضانة ، إن الأمهات يحملن السلاح ويتركن الأطفال .. وكلما تقدمت نحو خط ١٧ —أى الخط الفاصل بين فيتنام الشمالية والجنوبية— زاد عدد الأطفال ..

وأصبح عدد القوات الأمريكية قليلا ..

إن الأمريكان يظهرون نهاراً ويختفون ليلا .. وعند إحدى نقط الحدود قال لها الأمريكان : الآن .. أنت فرنسية .. وعليك حماية نفسك ..

ومضت فى الطريق ، وقابلت أحد الأمريكان ، واستوقفها . وعرف منها أنها متجهة إلى الجانب الآخر .. وأشار الأمريكى إلى براميل مصنوعة

من الخيزران وعرفت منه أن هذه البراميل قد أعدت للأسرى الأمريكان ، إذا وقع الواحد أسيراً نقلوه فى هذه البراميل من قرية إلى قرية ، وفى كل قرية يحاكمونه ويدينونه ويحكمون عليه بالإعدام ثم يعفون عنه .. وينقلونه إلى قرية أخرى يعترف فيها بأنه مجرم وأنه سفاح وأنه مصاص دماء البشر ، وإنه عدو للحياة ويحكمون عليه بالإعدام ، ويصدر العفو عنه ، ويدحرجونه هو والبرميل إلى قرية أخرى .. وهكذا .

وهزت كتفيها قائلة: هذا يخص الجنود الأمريكان..أما أنا فامرأة فرنسية صحفية .

وقابلت فتيات فى الطريق ، كثيرات يعرفن الفرنسية ، جلست إليهن ، قالت واحدة : أتمنى أن أكون مضيفة .

وهنا قالت لها ميشيل رى : ولكن فى العاصمة فتيات يعملن مضيفات إنهن فتيات الليل ويكسبن أكثر !

وردت عليها إحدى الفتيات : بدلا من أن تستنكرى هؤلاء الفتيات يجب أن تفهمى لماذا حدث ما حدث .. إن لى أختا من فتيات الليل وأنا فخورة بها .. إنها تنفق على أسرة من تسعة من الأطفال .. وأبى مات .. وأمى أيضا .. فهل عندك حل آخر لإطعام الجميع ؟

وسمعت من فتاة أخرى أنه فى المناطق الجبلية لابد أن تكون الفتاة عذراء عند الزواج وإذا اكتشف العريس غير ذلك ، فعلى الأسرة أن تدفع له تعويضا من الجواميس ..

ونزلت فى بيت ، أحد البيوت على الطريق ، وآداب الضيافة تقتضى منها أن تترك باب غرفتها مفتوحا وإلا كان معنى ذلك أنها لا تأتمن أهل البيت على نفسها أو متاعها ، ولم تنم طبعا ..

وما يزال الأطفال يملأون الطرقات ويطاردون السيارة الصغيرة ..

وانفجرت إحدى عجلات السيارة وتطوع اثنان من الطلبة لمساعدتها .. وهما يعرفان القليل من الفرنسية ، وأول شئ قالته لهما : باو .. شي .. فاب — أي صحفية فرنسية — وابتهج الشابان ، وهز كل منهما رأسه ودار بينهم حديث طويل ، وأكد لها أنه لا خوف بعد ذلك ما دامت صحفية فرنسية ..

وركب الإثنان إلى جوارها ..

وبعد لحظات قفز من حقول الأرز جندى من قوات فيتنام الشمالية وصرخ : بسرعة .. انزلوا .. بسرعة ..

وحاول الشابان فتح الباب فلم يفلحا ، فساعدتهما ، وأخرجت جواز السفر الفرنسى ، وقدمها أحد الشابين إلى الجندى وهو يرتجف .

ولكن الجندى مد سلاحه حتى التصق السونكى بملابسها ولحمها — أقصد عظمها — ونزلوا جميعا ، وأخرج الجندى حبلا من جيبه ولف ذراعيها وراءها ، أما الجندى فشكله رهيب يرتدى بيجاما سوداء وبنطلونا ملفوفا حول ساقيه ، وعلى وسطه حزام ملئ بالقنابل اليدوية ، ولابد أن هذين الشابين قد أصيبا برعب لأنهما يركبان السيارة مع إنسان أوروبى . وهذا واضح من الخوف الشديد على ملامحهما ..

وتكاثر الجنود .. من هنا وهناك ودار الكلام بينهم ، ولابد أنهم حائرون ما الذى يصنعونه بفتاة فرنسية إنها مشكلة ، لو كانت أمريكية لهان أمرها ، ولكنها فرنسية وصحفية ، وأخيرا فكوا الحبل ، وربطوا ذراعها اليمنى بذراع واحد من الشبان وطلبوا إليها أن تقود سيارتها على مهل .. وساروا وراءها .. ولم تستطع أن ترى عينى أى جندى ، ولا واحد من الجنود حاول أن ينظر إلى عينيها أو إلى ابتسامتها وقد حاولت بصورة عصبية أن تؤكد لهم أنها هادئة وأنها لم تخف ، ولا تتوقع منهم أى أذى ، ولكن أحدا لم يلتفت إليها ..

ولكن أحد الطالبين تشجع وقال لها : اهدئى .. اهدئى .. اصبرى !

وأشاروا إليها أن تتجه إلى طريق جانبى ضيق .. فتركت الطريق الواسع المرصوف ، وبدأت سيارتها تخوض فى حقول الأرز ، وفى الحقول قنوات صغيرة ، عليها ألواح خشبية ، إنها الآن لا شك أسيرة ، ومنذ هذه اللحظة لا تعرف لها مستقبلا ، كل شئ راح فجأة، إنها الآن فى الجانب الآخر : فى المعسكر الآخر ..

ومن السيارة رأت فتاة صغيرة تمص عودا من القصب ، فمدت يدها إليها تداعبها وظنت الفتاة أنها تريد عقلة من عود القصب فأعطتها واحدة .. وضحك الجنود .. أخيرا شعرت هى بشئ من الأمان وضحكت . لقد انفرجت الأزمة الحادة بين الجميع ..

وأشاروا إليها أن تنزل فالدنيا ليل،ووقفت السيارة أمام أحد الأكواخ .. الكوخ به سريران وكلاهما مصنوع من الخشب ، والمخدات خشب أيضا ، وطلبوا إليها أن تنقل أمتعتها إلى أحد السريرين وجلست على السرير ، والعيون كلها تتجه إلى حذائها العسكرى المتين .. وعلى السرير الآخر نامت ثلاث سيدات .. وبين السريرين عدد كبير من الأطفال ، والحركة لا تتوقف ..

سألها أحد الجنود : كوكا .. بيرة ..

ونظرت بما يدل على إن كان هذا صحيحا ، فأكدوا لها أن الذى استولوا عليه من الأطعمة الأمريكية كثير جدا .

وطبعا فتشوا حقائبها كثيرا ، ولكنها تخاف من الأوراق الأخرى التى تدل على أنها مراسلة أمريكية ، وابتلعت هذه الورقة ، وأوراقا أخرى ، ولو ضبطوها لتغيرت المعاملة فورا ، وكان مصيرها أقسى وأسوأ ..

ثم جاء الطالبان وتمنيا لها حظا سعيدا وودعاها قائلين : هذه هى الحرب وهذا هو حال الدنيا .. وكان عليها أن تواصل السير .. إلى أين ؟ إنها لا تعرف

وأخيرا ظهر «مدرس الشيوعية »وكان يتكلم الفرنسية،وكان يرتدى الملابس السوداء ، ويضع على كتفه جوالا صغيرا وصافحها بشدة وحرارة ، وقال لها : أنا فى حاجة إلى أن أتناقش معك فى مكان آخر ..

ثم جاءت سيدة وجلست إلى جوارها واقتربت منها أكثر ، وهزتها بقوة ، وشدت على يديها وبحرارة هنأتها أو هكذا يبدو أنها تفعل ذلك ، وتأثرت ميشيل رى من هذه الحفاوة وهذه الرقة ..

ورأت شابا فى غاية الرشاقة والقوة والجمال ، إنه جندى ، لم تستطع أن ترفع عينيها عنه ، وراح يداعب الأطفال ، إنهم بشر حقيقيون يضحكون ويلعبون وقبل أن يذهبوا إلى القتال .. أو وهم فى ميدان القتال .

أما طعام الإفطار فمثل الغذاء والعشاء : سمك وأرز ، وليس أمامهما أن تختار .

وطلب إليها أستاذ الشيوعية أن تنزل إلى أحد المخابىء قبل أن تقع أية غارة جوية ، والمخبأ عبارة عن فتحة فى الأرض ، لها سلم ، والإنسان ينزل واقفا رافعا ذراعيه إلى أعلى .. وبعد ذلك يمشى حانى الظهر ، ثم يجلس .. أما تهوية هذا المخبأ فعن طريق عصى من الخيزران مفتوحة يدخل منها الهواء ..

وبعد لحظات اقتربت الطائرات واندفعت الصواريخ والقنابل . نار.. جهنم لا يمكن أن توصف .. وبسرعة تسلل الناس جميعا إلى مخابىء تحت الأرض . ساعة .. ساعتين .. خمس ساعات .. عشر ساعات ..

وكان مدرس الشيوعية يلمسها برفق وهى تكاد تختنق .. وبعد ذلك خرجت من المخبأ واقفة .. إلى الهواء الطلق .. ولاحظت أن ملابسه قد اختفت . إنه الآن يرتدى الملابس البيضاء .. الآن فقط عرفت لماذا كان يتنفس بصوت مسموع .. إنه كان يغير ملابسه العسكرية ويرتدى ملابس الفلاحين ، حتى لا يقع فى الأسر .

وعندما خرجت من المخبأ وجدت النساء والأطفال على سطح الأرض . كأن شيئا لم يقع .. لا موتى ولا جرحى .. وإنما تحولت حقول الأرز إلى مغارات بسبب الصواريخ والقنابل .. وقدموا لها طعاما آخر من الأرز والسمك ..

وجاء شاب وراح يروى لمدرس الشيوعية كيف أنه نجا من ٢٠٠ غارة قبل ذلك . فقالت ميشيل رى لمدرس الشيوعية : كيف تصدق مثل هذا الفشر ؟ فكان رده : يجب أن تكون عند الناس أحلام .. لعله نجا من عشرين غارة من خمسين غارة . لماذا لا يكون عنده أمل فى أن ينجو من مائة أو من مائتين ؟

ثم طلب منها مدرس الشيوعية أن تغنى .. وراحت تغنى بأعلى صوتها على الأقل إنها على سطح الأرض . لم تمت . وتشم هواء صحيا ..

وقال لها مدرس الشيوعية سوف تصعدين إلى الجبل هذه الليلة . الجبل أكثر أمانا . ويجب أن يتأكدوا من شخصيتك ، وإذا ذهبت إلى العاصمة فسوف تجدين أختى هناك أنها مدرسة للغة الروسية . ولما سألته ولماذا تذهب إلى العاصمة ..

فأجاب : إن الناس جميعا يعلمون أنك قررت السفر إلى العاصمة مشيا على الأقدام .

أى ١٨٠ كيلو مترا مشيا على الأقدام ولذلك كان الجميع يهنئونها على شجاعتها . الرجال والنساء . مع أنها لم تقرر شيئا من ذلك . ولكن لا بد أن الشابين قد ترجما عباراتها خطأ !

وقرر أحد الضباط أن تغير ملابسها وأن ترتدى ملابس نساء فيتنام . وجاء الترزى وفصل لها الملابس . وتغيرت ملامحها . ووضعت القبعة

الفيتنامية التى تشبه القمع . ولكنها احتفظت بالحذاء الأمريكى .. وحاولت أن تدفع ثمن هذه الملابس ولكنهم قالوا : إنها هدية لك !

وكان عليها أن تصعد الجبل . الجميع يفعلون ذلك . وقبل أن يتركها مدرس الشيوعية أعطاها بعض الفيتامينات : ب ١٢ واتروبين للعينين ومورفين للتخدير وكانت تحتفظ فى جيبها بأربع حبوب ضد الملاريا .. واحدة كل أسبوع ..

سألت : متى يطلقون سراحى

قيل لها : لا أعرف

سألت : أنا لا أفهم لماذا أنا أسيرة ؟

قيل لها : يا سيدتى سوف نسأل بعض الراهبات الفرنسيات عنك . وسوف نقول لهن إنك فى الحفظ والصون .. لا تنظرى إلى ملابسنا وحالنا يا سيدتى .. نحن فقراء ولكن عندنا كبرياء ..

ومدت يدها إلى جيبها وأخرجت رواية أسمها « الجزيرة » من تأليف روبير ميرل . تقول الرواية فى إحدى صفحاتها : لا تفكر فى غدك . ارض بيومك . تخلص من مخاوفك . فالخوف هو هذا المرض الذى أصيب به الرجل الأبيض . وهذ الخوف هو ذلك الذى جعل الرجل الأبيض يصاب بمرض أكثر خطورة اسمه : المستقبل .. نحن أحياء .. وهذا يكفى وحده !

وقبلت الصفحة .. وضمت الكتاب إلى صدرها وهى تقول : لا داعى للتفكير فى الغد .. فاليوم كالغد . فأنا أعيش فى حاضر بلا مستقبل ! وليكن ما يكون !

مضت أيام .. عشرون يوما .. تمشى فى حقول الأرز وتختفى من الغارات

الأمريكية وتتنفس من خيزرانة مثقوبة وتخرج من الطين لتجد الوجوه المشرقة للجميع : انهم انتصروا على الأمريكان لم يمت أحد .

وأخيرا جاءها أحد الضباط وقال لها : عندى لك خبر هام . سوف نطلق سراحك !

لم تعرف هل تبكى . هل تشكره ؟ تشكره على ماذا ؟ على الأسر ؟ على الخوف ؟ على الطين ؟ على المخابئ .. إنها الحرب . وطلب إليها أن تكتب وثيقة تقول فيها : إن الأمريكان يقتلون النساء والأطفال .

ورفضت . ولكنهم لم يعارضوا .

ثم أعدوا لها طعاما من الأرز والدجاج والموز . وأما محتويات حقائبها جميعا فقد أعيدت لها . وتأكدوا من أن شيئا لم يضع . واعترفت بذلك .. وبكت .

واعتذروا أنهم لم يستطيعوا أن يبعثوا بها إلى إحدى المدن فى طائرة .. ولذلك ليس أمامهم إلا أن يضعوها على إحدى العربات .. وهى منذ هذه اللحظة لا خوف عليها ..

وعند إحدى النقط تركوها .. وكان عليها أن تمشى على قدميها . وفجأة اعترضها أحد الأمريكان .. وبكت .. وعرفت أنها انتقلت إلى الضفة الأخرى من الجحيم ..

وفى إحدى المعسكرات التف حولها جنود المخابرات الأمريكان يسألونها عن كل شئ . والذى أدهشهم أن جنود فيتنام الشمالية لم يسألوها عن أى شئ ولا طلبوا إليها أن تذكر اسم ضابط واحد أو موقع واحد .. أو عدد الطائرات لا شئ .. ولم يصدق ضابط المخابرات الأمريكان ما قالت ميشيل رى .

وبعد أن عرضوا عليها عددا من الخرائط وأسماء المدن والقرى والمواقع

والخنادق والمخابئ . أكدت لهم أنها فى طين دائم وتحت الأرض بسبب الغارات الأمريكية ..

وتقدم منها أحد كبار الضباط ليسألها :

ـ آخر سؤال يا آنسة ..

ـ تفضل .

ـ هل اعتدى عليك واحد من هؤلاء الوحوش ؟..

ـ وضحكت وهى تقول : كانوا فى غاية الرقة .. ولم أر أحدا فى حياتى فى مثل وحشيتك هذه !

ثم خلعت قبعتها وقميصها وحذاءها وراحت تتثنى بين ضباط المخابرات لقد تذكرت أنها عارضة أزياء !

الذين ينطحون السحاب
وحيوانات أخرى... !

مهما عرفت عن أمريكا فمعلوماتك قليلة عنها . لأن هناك أكثر من أمريكا .. أمريكا التي يعرفها الأمريكان . وأمريكا التي يعرفها العالم عن أمريكا .. وأمريكا البيض . وأمريكا السود .. والولايات المتحدة ضد بعضها البعض .. ثم إنك في أمريكا لا تجد إنسانا « أمريكيا » كل واحد من أصل إنجليزي أو ألماني أو إيطالي أو سويدي أو إيرلندي .. والزنوج من أصل أفريقي . والهنود الحمر من أصل هندي أو مغولي . . لا أحد في الولايات المتحدة الأمريكية يجرؤ على القول بأنه أمريكي — فيما عدا الذين حصلوا على الجنسية الأمريكية أخيرا جدا منذ أيام مثلا .

وملاحظات كثيرة مثل هذه جعلت أحد الناشرين الأمريكيين يطلب إلى الكاتب الظريف جورج مكش— أنطقها جورج بكش بناء على رغبته وللدلالة على طبيعته أن يكتب هذه الملاحظات ووعده . ولكن الناشر الأمريكي أصر على أن يستعير المؤلف بعض أساليب الأمريكان الغريبة في كل شئ . فطلب إليه أن يدخل الغرفة المكيفة الهواء المجاورة ويمسك القلم ولا يدق الجرس إلا بعد أن يكون قد فرغ من الكتابة في جلسة واحدة أو يوم واحد ، أما الفلوس فقبل ذلك بساعات ، وسأله إن كان يريد شيئا قبل أن يكتب وكان رد الكاتب الإنجليزي جورج مكش . المجري الأصل : أن أموت بين أهلي وأسرتي ، وأن يعلقوا على قبري هذه العبارة ، لا أحب أن أعيش على الطريقة الأمريكية وأفضل أن أموت على الطريقة اليابانية فأضع القلم في قلبي وأصرخ مرة واحدة وينتهي كل شئ ..

وجلس جورج مكش رغم ذلك يؤلف كتابه الساخر بعنوان « كيف تنطح السحاب ـ الولايات المتحدة بعد ارتيادها وإعادة اكتشافها وتفسيرها » وهى محاولة لنطح الذين ينطحون السحاب ، والكواكب الأخرى ..

أما من هو الأمريكى أو « الجدع » الأمريكى فهو أى إنسان يرتدى بدلة مكوية تماما ، فالبنطلون له حد مثل حد الموسى وكذلك الجاكتة ، وله كرافته وقميص نظيف وسيجار ضخم يتناسب تناسبا طرديا مع المكانة الاجتماعية لك ولابد من وجود قبعة ، بشرط ألا يخلعها الإنسان عندما يدخل أى مكان عام ـ فقط فى الأسانسيرات ، وكذلك التدخين ممنوع فى المصاعد الكهربية ، وكن فى استطاعتك أن تخرق عين أى إنسان آخر دون أن تعتذر ، وإذا اعتذرت اعتبروك من الأمريكان الجدد ..

وإذا ارتديت ملابسك ، فعليك أن تكملها فى الطريق ، عليك أن تجرى إلى سيارتك ، وبسيارتك تزاحم الناس . . وانفعل جـدا عند إشارات المرور ، ويجب أن يكون دخان السيجار دليلا على حالتك العصبية ، ولا تسأل نفسك إلى أين أنت ذاهب ، فكل الذين حولك يندفعون دون أن يكون هناك سبب واضح ، اندفع ، انطلق دون سبب واضح ، فكل شئ هنا يتم بسرعة ، الغذاء يقدمونه لك فى دقيقة والعشاء فى نصف دقيقة .. ولابد أن إنتاج الأطفال فى أقل من ذلك ـ أقرأ فى المجلات النسائية باب شكوى اللاتى تزوجن حديثا !

وبعد أيام فى أمريكا يعتاد الإنسان على أشياء كثيرة غريبة فكل الشوارع واسعة ومستقيمة على عكس انجلترا : كل الشوارع منحنية مكسورة وقصيرة .. وهناك عمارات أكثر من مائة دور ، وكل ما يقدم لك من طعام ضخم فالدجاجة يقدمونها لك ولا تصدق أنها دجاجة ، لابد أنها أوزة أو قفص دجاج ..

وفى استطاعتك أن تندهش ، ولكن من الأفضل أن تضحك فكل الناس

يضحكون بسبب ومن غير سبب . ان التعليمات الصحيحة تقول : أن الضحك صحة ، ولذلك فهم حريصون على أن يكونوا فى صحة جيدة ، وإلا كان ذلك إهانة لأمريكا ، كيف يكون الإنسان أمريكيا ومريضا ، ان المرض من أهم صفات الشعوب الأخرى .

ذهب فنان أوروبى إلى أحد رؤساء مجالس الشركات ورسم له لوحة ، وسأله رئيس مجلس الإدارة : كم تريد فيها ؟ فقال الفنان بكل حسن نية وتواضع : ٢٠٠ دولار .

وهز رئيس مجلس الإدارة رأسه : ولكن إذا أردت منها ٥٠٠ نسخة فكم تأخذ ؟

ولم يفهم الفنان معنى هذا الطلب .. لأنه لا يستطيع أن يرسم ٥٠٠ مرة .. ولكن رئيس مجلس الإدارة قال له : أريد أن أعلق لوحة فى كل فروع الشركة لن أعطيك أكثر من ٢٠٠ دولار على كل نسخة !

ولابد أن الفنان الأوروبى قد ذهل من هذا الرقم الذى لا يحلم به .. ولما رأى الرجل الأمريكى دهشته قال له : إذا كنت فنانا فابدأ فورا فى عمل ٥٠٠ صورة أخرى !

وكل شئ فى أمريكا تقوم به الآلات الحديثة .. أو هم يحاولون ذلك .. فأنت تضغط على زرار وتجد نفسك فى حالة حب ، وزرار آخر تجد نفسك قد تزوجت ، وثالث وتكون قد أعطيت حريتك من الزواج ، وتضغط زرار وتجد نفسك قد أخذت دشا أما الكتب القديمة كلها فيمكن استحضارها بزرار .. وهكذا ..

وأتعس الناس فى أمريكا هو سائق الأتوبيس لأنه يقوم بعدة أعمال : يقطع التذاكر ويعطيك الباقى ، ويقفل ويفتح الأبواب ويراعى عدد الركاب وفى نفس الوقت ساعات عمله ثم أنه و الذى يسوق الأتوبيس ، ولابد أن

أمريكا فى حاجة إلى من يدلها على اختراع قديم اهتدى إليه العالم كله ، ولا عيب عليها إذا اقتبسته وهو أن يكون هناك شخص آخر إلى جانب .. السائق .. شخص أسمه الكمسارى ..

وفى أمريكا يرفعون الكلفة بينك وبينهم بسرعة ، ولا يهم من أنت ، فإذا كنت مثل البرت إينشتين العالم الألمانى صاحب نظرية النسبية فإن المذيع سوف يقدمك للجمهور هذا : معنا الليلة الجدع الشهير جدا البرت إينشتين : هالو البرت .. انها فرصة سعيدة جدا أن نراك .. أريد أن أوجه لك بعض الأسئلة .. أولا قل لى يا ألبى ما هذه النسبية ؟ لا تنزعج يا برتى .. لا تخجل ..

ولا أحد يندهش لما يقوله المذيع فإنهم يفعلون ذلك مع أى إنسان آخر أصغر أو أكبر من هذا العالم الكبير .. وإذا علم أحد سكان العمارة أن زوجتك مريضة ، ورأى من واجبه أن يسألك عنها ، وقابلك فى أى مكان ، فإنه يقول لك : هالو .. مستر .. كيف حال السيدة ؟ ..

فإذا ظهر عليك الحرج بسبب هذه الجريمة الغريبة — الوقاحة أيضا خصوصا أن علاقتك به لا تعطيه هذا الحق — فإنه يظن أنك حزين جدا على ما أصاب زوجتك ولذلك يبادر بقوله : ولا يهمك .. كل شئ يمشى فى طريقه الطبيعى .. فى العام الماضى ماتت زوجتى .. وأنا الآن أعيش حياتى العادية .. كن طبيعيا ..

والأمريكان لا يحبون الهمس .. انهم يتكلمون بصوت مرتفع ، ولذلك إذا سألت إنسان عن شئ فإنه يقول لك : أضرب .. شوط .. كأنه يطلب أن تطلق عيارا ناريا .. أو تشوط كرة فى مرمى مفتوح .. ولا يحبون مثل هذه العبارة : أظن ذلك .. لعله ذلك .. ربما .. لا أدرى يمكن .. ان هذه العبارات تضايقهم ويفضلون عليها عبارات أخرى أكثر وضوحا وصراحة عبارات قاطعة مثل : زبالة .. قرف .. كلام فارغ .

والأمريكان لهم علاقة غريبة بالأشياء التى يستخدمونها ، أو بالعالم المادى فالرجل الإنجليزى يقول لك بمنتهى الفخر : سيارتى هذه عمرها عشر سنوات، وقد قطعت مائة ألف كيلو متر ، ولكن الأمريكى يغير السيارة كل سنة ، وأحيانا مرتين فى السنة وينسى ماركة السيارة القديمة ، وإذا أمطرت السماء فإنه يدخل أى محل ويشترى لنفسه بالطو واقيا من المطر بدولار .. فإذا توقفت الأمطار ألقى بالبالطو فى أى صندوق زبالة وكذلك الشمسية إذا اشتراها ، وإذا باع بيته فإنه لا يفكر فى أن يأخذ معه بعض أثاث البيت ، انه يتركه كله ، وفى الصحف تجد إعلانات تقول : من أراد أن يحصل على بيانو ماركة كذا ، فليذهب إلى بيت رقم كذا شارع كذا .. انهم لايشغلون أنفسهم كثيرا بهذه الأشياء القديمة .. والذى يفعلونه فى أثاث البيوت ، يفعلونه أيضا فى المدن .. فهم يبنون مدينة بالقرب من أحد مناجم الذهب .. فإذا انتهى العمل من المنجم هجروا المدينة كلها .. فليست عندهم هذه التقاليد الأوروبية أو الآسيوية أو الأفريقية القديمة التى تربط الإنسان بالماضى أو بالحنين إليه فيقول : هذه الساعه تركها لنا جدى العظيم .. أو هذه الجزمة هى آخر مخلفات المرحوم والدى .. وهذه السكين هى التى اشترتها جدتى لأول مرة .. إلى آخر هذه السخافات التى لا يقرها الأمريكان فالتقاليد عندهم هو ترك القديم والبحث عن شئ جديد أو الهرب من أشباح الماضى أيا كان هذا الماضى .

وفى أمريكا كل إنسان يريد أن يضحك أو على الأصح أن يمرح ، وهم يجدون ذلك بسهولة ، فقد يقول الشاب مثلا : أمس جلست أنا وصديقتى نضحك معا ساعات .. دون أن يكون هناك أى سبب لذلك ..

وإذا كان لدى السائح الأوروبى رغبة فى العذاب أو التسلية فعليه أن يركب القطارات تحت الأرض .. لا ينفع معها أى علم أو أية تجربة .. وإذا شئت أن تقضى حياتها كلها تبحث عن شارع أو محطة فإن هذا يمكن أن

يتحقق لك بسهولة فسوف تجد نفسك فى أى مكان إلا المكان الذى تريده . وقد تصل إلى بيتك عن طريق الخطأ ومن الغريب أنهم يعرفون التفرقة بين الأرقام والحروف التى لا نهاية لها فى كل محطات المترو .

والمجتمع الأمريكى خليط من كل الأجناس ، وهم يكنون لبعضهم البعض أنواعا من التعالى. فالمخلطون يتعالون على الزنوج ، والزنوج يتعالون على المخلطين السمر والذين من أصل سويدى يتعالون على الألمان، والألمان يتعالون على أبناء أوروبا الوسطى ، وأبناء أوروبا الوسطى يحتقرون الإيطاليين ، والإيطاليون يحتقرون الأسبان والأرمن والإيرانيين ، والأسبان والإيطاليون معا يحتقرون أبناء أوروبا الوسطى .. والجميع يحتقرون اليهود ، واليهود يتعالون على كل الناس ، والأمريكان يكرهون أهل نيويورك ، وأهل نيويورك يكرهون أهل الغرب ، وأهل الشمال يكرهون أهل الجنوب ، والمهاجرون يحتقرون اللاجئين إلى أمريكا من كل مكان فى العالم .. واللاجئون يحتقرون الذين وصلوا أخيرا .. والذى وطئت قدمه أمريكا يحتقر الذى يجئ بعده بدقيقة واحدة .. وهكذا تجد العلاقات التى تربط بين كل سكان أمريكا : انهم جميعا ينظرون إلى بعضهم البعض من فوق .. وإلى العالم كله كذلك ! .

وتحتار أنت أين هو الإنسان وأين هو الحيوان .. ثم من هو الأمريكى ؟!

أما المحلات التجارية فى أمريكا فهى من عجائب الدنيا ، فإنك تجد فى كل محل ما تريد ، ويجب ألا تندهش ، فإذا أردت سجائر فاذهب إلى البقال ، وإذا أردت أن تمسح حذاءك فاذهب إلى الحلاق ، وإذا أردت شراء راديو فاذهب إلى المكتبة وإذا أردت حقيبة فاشترها من الأجزاخانة ، وإذا أردت أن تبعث برقية لأحد فلا تذهب إلى مكتب البريد لأن مكاتب التلغراف قطاع خاص .

ومن الأشياء المضحكة حقا صفحة الوفيات فى الصحف الأمريكية .. إعلانات غريبة لشركات دفن الموتى ..

فهناك مثلا : جنازة تجعلك مستريحا مدى الحياة .. جنازة لن تضيق بها جنازة مريحة .. جنازة تسعد أسرتك شهورا بعد ذلك .. جنازة لا تنسى لن تتكلف أكثر من ١٥٠ دولار .. قبر تحت أشجار جوز الهند .. تعال عندنا ونحن ندفنك أفضل !

ومن العجيب أن الأمريكان يذهبون إلى هذه الشركات ويختارون قطعة الأرض ونوع الأشجار ، ويجئ الحانوتى ويقيس أجسامهم ، ويعرض عليهم أنواع القماش ، وكذلك الأغانى والتراتيل التى تذاع أثناء الجنازة أو أثناء الدفن .. ويخرج الناس من شركات الدفن وهم سعداء منتظرون دلك اليوم العظيم ..

ولا شك أن الحانوتى هو الرجل الوحيد فى العالم الذى له مستقبل .. والذى ينظر إلى كل إنسان على أنه زبون حتما ، اليوم أو غدا .

ولابد أن الذى يزعج فى أمريكا هو محطات الإذاعة والتليفزيون ، فلا أحد يعرف ما هذا الذى يقال ، ولا كيف وإلى من يقال ، إن هذه المحطات كلها تحطم الأعصاب وتحول المستمع إلى قطع من العجينة تأخذ الأشكال التى تريدها الشركات التى تعلن عن السلع . الجبنة مثلا ، وعلى أساس هذه الإعلانات يمكن معرفة الثقافة الأمريكية كلها ، فالهدف الثقافى من وراء هذه الإعلانات هو أن يشترى المواطن مزيدا من الجبن أكثر مما يحتاج وحرية الكلام معناها حرية كل شركة فى أن تعلن عن السلعة التى تريد ، وأن تنزل بمستواها إلى مستوى الجماهير ، فهذا هو النزول إلى مستوى الجماهير ، أما الأخبار فمجانا ولكن الإعلانات مقدسة .. مكدسة .. ملايين مكدسة ..

وإذا سافرت بين الولايات المختلفة فى أمريكا فإنك ستجد خلافات صارخة فى تطبيق القوانين .. أو فى القوانين الولايات نفسها .

فى ولاية منسوتا ممنوع نشر الملابس الداخلية للرجال والنساء على حبل واحد .

وفى أنديانا ممنوع أن يهدد الحلاق الأطفال الصغار بقطع آذانهم .. وفى ميسورى ممنوع على رجال المطافئ أن يمشوا فى الشارع بملابسهم الداخلية . مهما كانت الأسباب ، وممنوع أن يركب الإنسان الترام ورائحته ثوم .. وفى نفس الوقت من الممكن أن تجد الإعلانات تمتدح إحدى جزر المحيط الهادى لأنهم يأكلون الثوم .. ومن الغريب أنهم يأكلونه على شكل عصير .. وهذا ما تفعله إحدى الشركات الأمريكية ، وهذا الثوم هو العامل الأول فى جمال البشرة وقوة الإنسان .. وفى النجاح فى العمل . لأن الإنسان إذا أكل الثوم فلن يقترب منه أحد ، وهى فرصة عظيمة لكى يعمل أو يفكر أو ينتحر ..

أما حكام أمريكا فهم أعجب الكائنات على الأرض .. على الأرض الأمريكية أو غيرها ..

يقول جورج مكش فى مقال إذاعى :

حضرت أكثر من مؤتمر سياسى .. أو حزبى .. وظهر المرشح .. ولم يقل أى شئ .. ولكن قدموه على أنه أحسن لاعب تنس .. أو كاد يغرق مرتين فى اليابان .. وفى المرة الثالثة تعلق بلوح خشبى .. وكان اللوح مغطى بالزيت .. ولكنه كان حريصا على ألا تتسخ ملابسه .. كأنه كان يفكر فى زوجته المريضة وفى نفس الوقت فى خادمته الزنجية .. وكأنه كان يعلم بالضبط أن يوم الغرق قد صادف يوم أجازتها الأسبوعية .. انه إلى هذه الدرجة حاضر البديهة .. انه يفكر فى كل شئ .. فكيف لا يكون مرشحكم لرياسة الجمهورية ..

ومن مؤهلات المرشح لا شئ :

زوجته وأولاده وسيجاره وسيارته وكلابه وخيوله والكنيسة التي يتردد عليها .. وجيرانه أيضا إذا كان جيرانه سعداء ، فهو قادر على إسعاد الملايين غيرهم من جيرانه الذين يبعدون عنه ألوفا وعشرات الألوف من الأميال إنها مقدرة غريبة عند المرشحين الأمريكان فى فترة الحملات الإنتخابية .

وعلى الرغم من أن الأمريكان يدعون للرحمة والسلام فى كل مكان ، فإنهم لا يفعلون ذلك مع الزنوج : ولا رحمة ولا إحساس بأنهم مواطنون من أى درجة ، ولكن بين الحين والحين تظهر خادمة زنجية فى صور المرشح أو يظهر المرشح وهو يهدى لإبنته صورة للمثل الزنجى سيدنى بو تييه .. مثلا .

ولكن الزوجة مهمة جدا .. خصوصا ملابسها وإناقتها وابتسامتها العريضة ووقوفها إلى جواره أمام الناس طول الوقت .. ولا يهم بعد ذلك رأيها فى الزوج أو فى البيت أو فى كل هؤلاء الناس، وقد يعرف الناس الكثير عن التعاسة الزوجية للمرشح ، ولكن يرون أن هذا شئ طبيعى ، أن يكون سعيدا فى الصور ، تعيسا فى الحقيقة فهو إنسان طبيعى واقعى ، ومن أجل ذلك فهو خير من يمثلهم .

* * *

وبعد ساعات فرغ الكاتب الإنجليزى المجرى الأصل جورج مكش من كتابه عن « كيف تنطح السحاب » وأعطى الكتاب للناشر الأمريكى وعينه على الشيك ذى الأربعة الأرقام .. وهو يقدم له خطابا يقول فيه : لى رغبة أخيرة قبل أن أموت .. أن ينشر هذا الكتاب بعد الوفاة ..

وكانت نبوءة فقد صدر الكتاب فى نفس الأسبوع .. بعد وفاة الناشر الأمريكى ..

إذا لدغني البرغوث مات ..
فأنا مسموم !

إن الإنسان فقد القدرة على أن يرى أبعد ، ويسمع أرق ، ويشم أعمق ، ولذلك فسوف يموت دون أن يدرى ذلك – عبارة قالها الطبيب الإنسان أشفيتسر الفائز بجائزة نوبل ..

إن الإنسان يدق الآن باب جهنم بعنف وبعد لحظات يصحو الموت ليحصد الجميع – قالها العالم الكبير إينشتين عندما اخترعت القنبلة الذرية .

إن إنسانا ما قد جاء إلى هذا البيت ولم يجدنى على مكتبى فأطلق رصاصة على كلبى ، انه إنسان فى غاية القسوة لقد أراد أن يوجعنى مرتين .. مرة على فقد هذا الحيوان المسكين الأمين ،ومرة على ما وصل إليه حال الإنسان .. انه يقتل لمجرد القتل – قالتها الكاتبة الأمريكية راشيل كارسون التى فازت بعشر جوائز دولية عن كتابها « الربيع الصامت » الذى وصفت فيه أعجب رحلة للموت .. أو للسم الأبيض الشفاف الذى ينتقل من أى شئ .. من الماء والهواء والتراب إلى خلايا الإنسان والحيوان والنبات ومن الإنسان إلى الماء والهواء والتراب إلى النبات والحيوان ثم إلى الإنسان .. إن الجميع يحملون السموم للجميع .. انها أقسى معركة صمت عرفها الإنسان والحيوان والنبات فى التاريخ . . فنحن نموت أما الفاعل الحقيقى فهو الإنسان . . ولنبدأ الرحلة ، رحلة السم ، والحزن معا .. أو رحلة السموم الحزينة ، أو الأحزان السامة .

كان ياما كان قرية صغيرة جميلة .. الشوارع واسعة والأشجار خضراء وارفة ، الأزهار كثيرة باسمة .. وكانت الفراشات حائرات .. كالأوراق

تناثرت من الشجرة ، أو كأوراق التصقت بالشجر . وكانت العصافير تلاحق شعاعات الشمس .. وعليها وفى ضوئها تلتقط الحبوب والديدان .. وكانت القنوات فى لون الذهب .. وكانت الأسماك تسبح تحت الماء فى رشاقة تأكل الأعشاب .. أو لا تأكل شيئا : إنها فرحة الحياة .. أو هى الحياة .. وفى الوديان الخضر قطعان الأغنام .. ان مجرد النظر إلى وجوهها وصوفها يؤكد أنها فى صحة جيدة .. أما ذلك الطفل الذى جلس على قطعة من الحجر يأكل السندوتش ، فهو صورة لكل ما أنعم الله على الإنسان : العقل والصحة والحرص عليهما . أما هذه الأجراس التى نسمعها من بعيد فهى لأبقار امتلأت باللحم واللبن .. وفجأة ..

وفجأة ، ولسبب غير واضح تماما ، تغير لون السماء .. على أثر ضوضاء من طائرة عابرة .. وشئ أبيض كأن مليون إنسان يدخنون سيجارة واحدة وينفثونها فى وقت واحد .. انها سحابة بيضاء .. مرت .. عبرت .. استغرقت المكان وأغرقته .. فتساقطت الطيور .. ودبلت الأزهار .. وتراخت الأغنام.. ورفعت الأبقار رؤوسها عن الأعشاب .. أما الأسماك فلم تقاوم فقط الماء .. وإنما طفت على وجهه .. ان الأسماك قد أغرقها الماء .. حتى الطفل الصغير أحمرت عيناه ودمعتا .. وراح يعطس ويسعل وبعد ساعات ماتت الأغنام والأبقار أيضا .. أما الزهور فذبلت وسقطت .. ولسبب غير واضح لم تقتلع الأشجار جذورها وتترك وراءها فتحة فى الأرض كمقبرة .. كفم فاغر على استعداد لدفن كل شئ وظهر عدد كبير من الأطباء فى القرية وسيارات الإسعاف !

ان هذه القرية الجميلة لا وجود لها .. ولكن هذا الذى حدث ، يحدث كل يوم .. وسوف يحدث غدا وبعد غد ..

ماذا جرى ؟ لا شئ .. ان الإنسان قام « بتلويث » الهواء .. وتلويث الماء .. وتلويث التربة .. ويمكن أن تستخدم كلمة « تسميم » إذا لم تكن

هذه الكلمة واضحة .. ان هذا الذى حدث هو نتيجة طبيعية للصناعة .. فالمصانع تترك مخلفاتها فى الأنهار والبحار ، وتطلق فى الهواء سمومها السوداء . أما السموم البيضاء التى تجئ من بعيد فهى مخلفات الإنفجارات النووية فى كل مكان .. مثلا مادة « سترونتيوم ٩٠ » التى تنطلق مع الإنفجارات النووية تبقى فى الهواء وتسقط على الأرض وتبقى هناك لتصل إلى النباتات إلى الحيوانات ومن ألبان الحيوانات إلى الإنسان .. أو من النباتات إلى ثمارها إلى الإنسان .. إلى جسم الأم إلى طفلها .. إلى القمح إلى الأرز إلى الإنسان .. إلى عظام الإنسان وكل خلاياه .. إلى غدده وإلى اضطراب وظائف هذه الغدد .. حدث هذا بصورة مباشرة ولا يزال يحدث فى مدينتى نجاساكى وهيروشيما فى اليابان – رأيت ذلك بعينى أنا كاتب هذه السطور ..

وقبل القنابل النووية عرفنا رحلة السموم هذه ، ففى الحرب العالمية الثانية استخدم العلماء مادة الددت (اختصار للكلمات : ديكلورو – ديفنيل – تريكلورو – ايثين) فى رش ملابس الجنود واللاجئين والمهاجرين وأسرى الحرب للقضاء على القمل والبراغيث وكانت نتائجها باهرة .. ولكن فائدة الددت قد اهتدى إليها عالم سويسرى أسمه باول ميللر سنة ١٩٣٩ واستحق على هذا الاختراع جائزة نوبل ، فقد استخدمت هذه المادة فى القضاء على الحشرات ناقلة الميكروبات ، وهذه المادة اكتشفها عالم كيميائى ألمانى قبل ذلك سنة ١٨٧٤ .

وبعد أن عرفنا الددت أسرفنا فى استخدامه من أجل القضاء على أعداء الإنسان .. وأعداء الإنسانية بملايين الملايين : هذه الحشرات لا يمكن حصرها ويبدو أنه لا يمكن القضاء عليها ، ولو كان داروين على قيد الحياة لشعر بشئ من السعادة والعار فى نفس الوقت ، فعبارته التى تقول : ان البقاء للأصلح صحيحة ، وكان يقصد بها الإنسان الذى استطاع رغم كل ظروف البيئة القاسية أن يرفع ظهره ورأسه وأن يجعله عقله فى أسمى مكان

من جسمه وحياته . ولكن صراع الإنسان مع البيئة ومحاولته السيطرة المستمرة عليها يبدو أن الإنسان ليس هو السيد .. فالحشرات أقوى منه وأبقى منه ، والبقاء لها ، فكما أن الحشرات كانت أسبق على ظهر الأرض .. فسوف تبقى بعد انقراض الإنسان ، أن حربا عنيفة يشنها الإنسان على الحشرات ، ولكنها تنتصر دائما ، ان هذه الحشرات تحاول أن تجعل الإنسان نوعا من الديناصور : قويا هائلا وفى نفس الوقت عاجزا لينقرض بعد ذلك !

وهذه الحشرات تصارع الإنسان فى مجالين : تأكل طعامه .. أو تحمل تحمل إليه الميكروبات ، وهو يحارب فى المجالين ، فعندما يقتلها الإنسان يقتل نفسه أيضا ، فهو يضع لها السم لكى تموت .. ولكنه يضع السم فى الطعام الذى تعيش عليه الحشرات ويعيش هو عليه .. يضع السم فى القمح والأرز والفاكهة والماء والهواء .. هذا هو طعام الحشرات وطعامه أيضا وكل المبيدات الحشرية التى يستخدمها لقتل الحشرات فى الدرجة الأولى ، وتقتله وهو فى الدرجة الثانية .. ثم أن هذه الحشرات بعد ذلك تتكيف وتصبح قادرة على أن تعيش رغم هذه السموم ..

ولم تعد هذه المبيدات الحشرية التى يستخدمها مجرد سموم لأنها تعتمد فى الدرجة الأولى على الزرنيخ والزنك والنحاس والرصاص وغيرها من المعادن ولكنها تتدخل فى وظائف الجسم الإنسانى .. فتجعله ضعيف المقاومة أو تخنق أنفاسه أو تغير جنسه ، أو تبلد عقله .. انها تقتل الإنسان بأشكال جديدة . ولكنها لم تقتل الحشرات ، فالحشرات تقاوم وتتكيف وتعاود الاستعداد لقتل الإنسان .. وعليه هو أن يفكر فى سم جديد وهو الزرنيخ كان المادة المفضلة فى قتل الملوك والأمراء من قديم العصور ، لأنه بلا طعم ، فإذا وضع فى طعام أو شراب لم يدرك الضحية أن شيئا غريبا قد سقط فى طعامه .. وقد شاهدنا ذلك كثيرا فى الأفلام .. عندما كان السم يخرج من الخواتم ومن الأقراط ومن علب صغيرة تحفظها الزوجة أو العشيقة فى

صدرها .. وبعد لحظات ترى أثر السم الذى لا علاج له .. ان أسرة بورجيا الإيطالية قد استهلكت نصف سموم إيطاليا ليقضى بعضهم على بعض — وربما كانت *الرائحة الكريهة التى تشمها لأنابيب البوتاجاز* مقصودة لكى يتنبه الناس أن هناك تسربا للغاز فلا يشعل أحد عود كبريت وإلا اشتعل البيت !

وفى سنة ١٩٤٣ استخدمت قوات الحلفاء مادة الددت فى إيطاليا للوقاية من التيفوس والملاريا — أى ضد الذباب والبعوض ، ومات الذباب والبعوض وأنقذ مئات الألوف من الناس ، ولكن بعد سنة واحدة بالضبط عاد ذباب البيت أقوى ما يكون ونشط البعوض بصورة مذهلة ، كأن هذا المبيدات فيتامينات لتقوية الحشرات ، ماذا حدث ؟ ماذا جرى ؟ أين ذهبت هذه السموم ؟

الجواب : أن عالم الحشرات هو عالم المستحيل ، فمن الممكن أن يحدث أى شئ ، من الممكن أن تؤدى السموم إلى تقوية الحشرات ، ومن الممكن أن تعطيها أسلحة جديدة غير متوقعة لمهاجمة الإنسان من جديد . فكأن الإنسان يساعدها على نفسه ! وكأن أحسن وسيلة للهجوم على الحشرات هو يستسلم لها ، وأن يترك لها نفسه وجسده وما يملكه بلا حراسة .. وعليها أن تأخذ ما تريد وتترك ما تشاء — وهذا كرم منها ، لأن الحياة لا تريد الإنسان ، لأنه الأضعف ، وتريد الحشرات لأنها الأقوى والأبقى ؟ !

وفى سنة ١٩٥٠ رشت إحدى قرى مصر بالددت ، فنقص عدد الوفيات إلى النصف ، وبعد سنة تماما عاد الذباب والبعوض وارتفعت الوفيات ، ماذا حدث ؟ انها نفس القصة الحزينة .. ونفس الرحلة القصيرة على جناحى ذبابة أو بعوضة من عالم الأحياء إلى عالم الأموات !

وفى سنة ١٧٨٧ ذهب الكابتن آرثر فيليب إلى استراليا ومعه بعض أشجار الصبار ليجعل منها سياجا لمدينته حتى لا تدخل الحيوانات وحتى لا تهرب الأغنام ، وفى سنة ١٩٢٥ لوحظ أن شجيرات الصبار التى أتى بها الكابتن

فيليب قد أصبحت تغطى ٢٥ مليون فدان فى استراليا الآن .. وليس نوعا واحدا من الصبار ولكن أكثر من ٢٨ نوعا ، كيف ؟ أسأل شجيرات الصبار !

ان فى العالم كله الآن ما يقرب من ٢٠٠ ألف نوع من النبات .. والصبار واحد منها ؟

وفى سنة ١٩٥٩ استخدم الأمريكان المبيد الحشرى المعروف باسم الألدرين أخطر المبيدات جميعا — فى القضاء على الخنافس اليابانية ، وقضى المبيد على كثير منها ، وتوارى أكثر الخنافس فى البيوت وفى بطن الأرض وفى الأشجار .. وماتت كل الطيور الصديقة والمعادية للإنسان وكذلك الكلاب والقطط . وبعد سنة عادت الخنافس بعد أن تغير لونها ، وزاد عددها ، انها توارت لتستعد فى صمت وتعاود الهجوم على الإنسان دون أن تعطيه وقتا كافيا للتفكير فى سلاح جديد ..

وفى سنة ١٩٤٤ استوردت أمريكا من فرنسا عددا من الخنافس للقضاء على بعض الأعشاب المتطفلة فى الحقل هذه الخنافس تأكل هذه الأعشاب أو تقضى عليها وقضت على هذه الأعشاب وراحت أمريكا تصدر ملايين الخنافس إلى بلاد أخرى .. ولكن الخنافس نفسها ضارة ، أصبحت ضارة ، ولذلك كان من الضرورى البحث عن حشرات أخرى تفرز مادة سامة على هذه الأعشاب لتقتل الخنافس .. وماتت الخنافس وبقيت الأعشاب ..

انها القصة القديمة ـ انها قصة الدب الذى يقتل ذبابة على وجه سيده .. انه بحجر واحد يصيب الإثنين وبمنتهى حسن النية !

ان العالم يجب أن يشعر بالضآلة أمام هذا الذى يراه .. اننا لا نعرف بالضبط ما هذه الحياة .. ما حياة الذبابة والبعوضة .. اننا أمام معجزات وألغاز حرنا فيها ، ان العالم يجب أن يكون متواضعا ، هذه ضرورة لأن الذى

يعرفه قليل ، لأن يده أقصر من ذراعه .. وأن عقله أقصر من أصابعه .. والكون واسع ملئ بالمجهول ..

اننا ننظر إلى العالم من خلال نافذة ضيقة .. ولكن إذا بعدنا عن النافذة فالذى نراه من خلالها قليل صغير ضئيل .. وكلما اقتربنا من النافذة كان مجال الرؤية أوسع وأكبر فنحن نرى الدنيا من خلال نافذة صغيرة أسمها « الخلية الحية .. خلية الإنسان والحشرات والنباتات .. من هذه الفتحة الضيقة جدا نرى قدرة الله ، تبارك الله ، وجل جلاله ، ولا نعرف ما هذا الذى نستخدمه ، وضد من .. ضد الحشرات أو ضدنا .. اننا نشبه الفيل الذى يمشى على ملايين من الفناجين ونطلب إليه ألا يكسرها .. كيف !؟ هذا ما نتصوراننا نفعله : أن نقتـــل الحشرات ولا نقتل الطيور .. أن نقتل الطيور ولا نقتل الزهور ..

اننا الآن نعيش فى عالم غريب .. كل من يأكل ورقة أو يشم زهرة أو يقضم ثمرة ، يموت ..

نحن فى عصر إذا لدغ برغوث كلبا ، فإن البرغوت يموت لأن الكلب مسموم .

نحن فى عصر تجد النحلة تحمل رحيق السم وأكسير الموت وتضعها بمنتهى الصبر والمثابرة فى خليتها ..

اننا فى عصر إذا حامت فيه الفراشة فوق الزهور فإنها تموت ، لأن أنفاس الزهرة تقتلها ..

ان كل الرعب والفزع الذى صورته الأساطير اليونانية هو ما نراه حقيقة الآن .. فى أساطير اليونان كائنات إذا نظرت إلى أى شئ صار حجرا أى مات .. أو صار مسحوقا من الملح .. أو صار مهلكا .. كل ذلك قد حصل ، ونحن القاتل والقتيل .. والمجرم والضحية ..

ولن نتوقف عن ابتكار أسلحة جديدة لمعاودة الحرب على ملايين الملايين من أعدائنا الصغار .. ولا هذه الملايين ستوقف عن تنظيم أطرافها الضئيلة وأجنحتها الهزيلة فى القضاء علينا من جديد .. إلى الأبد ..

وفى أساطير اليونان أن الفتاة ميديا أحبت الفتى جاسون .. وكانت ميديا هذه ساحرة ، وكانت قادرة على فعل الكثير ، واتفقت مع الفتى على أن تساعده ضد أعدائه واستطاعت ، ولكنه تركها وأحب فتاة أخرى .. وهنا فقط قررت أن تقضى على الجميع .. وصنعت للعروس ثوبا من الحرير الأبيض ، وقدمته لها ، فلم يكد الثوب يستقر على كتفى العروس حتى سقط .. لقد تحولت العروس إلى كتلة من الرماد .

ان هذا الثوب الأبيض الحريرى الرقيق ننشره فى كل مكان — باليد .. وبالطائرات .. إننا نلقيه على الحشرات فتموت الطيور ، وننصبه للطيور فتموت الحشرات .. ونضعه للأشجار فتموت الأبقار .. ويموت الإنسان ..

ان فستان ميديا الحريرى الشفاف هو الذى نسجته من السحب البيضاء سحب الددت وغيرها من المبيدات الإنسانية — أى التى صنعها الإنسان على أعداء الإنسان — والإنسان هو أعدى أعداء الإنسان ..

٧ رجال وبطة وقرد
يبحثون عن مصر في أمريكا!

الناس فى غاية الرقة ، ولكن الأرض ليست كذلك .. الرمال ناعمة ولكنها فى نفس الوقت لا مبالية ، والصحراء بحر لا موج له ولا أعماق .. والأهرامات أنياب ثلاثة تلتهم السحب أو تنتظر ظهور القمر لتخيفه فيتوارى بعيدا . والزورق الصغير المصنوع من القش أو من ورق البردى ملقى على الرمال .. كأنه سفينة نوح التى بناها على الأرض قبل الطوفان .

فإلى هذا المكان جاء النبى موسى وخرج . وفى هذا المكان وضعته أمه فى إحدى السلال ثم ألقت بها إلى النهر . وكانت السلة مصنوعة من ورق البردى وإلى جوار الزورق يوجد جمل يأكل بعض أوراق البردى ويرفع رأسه فى نفس اللحظة التى هز أحد أبناء بورسعيد كتفيه ليقول : « أنه لا يمكن بناء زورق من هذا الورق » ثم ركب الأتوبيس عائدا إلى بلده ..

ويمضى الرحالة النرويجى تورهايردال يروى قصة مغامرته بالزورقين رع الأول ورع الثانى فى كتابه « رحلات رع » وقد نشرت صحف العالم ووكالات الأنباء والشاشة والميكرفون الكثير « عن » هذه الرحلة .. ولكن الجوانب الإنسانية الشخصية الداخلية لم ينشرها أحد .. وقد أخفاها هايردال حتى نشرها فى كتابه . وهو رجل ليس مغامرا .. وإنما هو صاحب نظرية ، اقتنع بها ويحاول أن يقنع الناس بها . إذن هو ليس صاحب رأى وواثق منه فقط ولكنه صاحب دعوة .. على مسافة قصيرة من الأنبياء !

أما قضيته فقد اختلف حولها العلماء .

أناس يقولون أن الحضارة الأمريكية قد نمت منعزلة تماما عن أفريقيا . وأناس يقولون أن هذه الحضارة إنما هى نتيجة لهجرة أهل أفريقيا إليها . الفراعنة بصفة خاصة .. أما كيف جاء الفراعنة إلى أمريكا ، فهناك رأى يقول أنهم ركبوا الزوارق المصنوعة من ورق البردى وعبروا المحيط . بعض علماء المصريات يقولون أن الفراعنة لم يبرحوا بزوارقهم المصنوعة من البردى نهر النيل .. فهذا الورق يذوب فى الماء .. ولذلك فهذه النظرية أيضا يجب أن تذوب فى الماء ومن الأفضل للرحالة النرويجى أن يستريح . ولكنه لن يستريح حتى يثبت أنه على خطأ أو على صواب .. لابد من التجربة.

فمن أين جاءت حضارة أهل بيرو القدماء أهل المكسيك ؟ عندما جاء خريستوف كولمبوس إلى أمريكا اكتشف أن هناك حضارة متقدمة . وأن هناك فنونا متطورة أكثر تقدما من الفنون الأوروبية .. من أين جاءت ؟

يقول العلماء أن الإنسان الذى جاء إلى أمريكا قد انتقل إليها من سيبيريا .. من آسيا .. ثم عبر المضيق بين آسيا وأمريكا . وفى ظروف غير معروفة لدينا ظهر فى أمريكا وزحف إلى الجنوب . إنسان جاهل . إنسان العصر الحجرى . لا يعرف الزراعة . ولا استخدام المعادن . لا يعرف الزمن ولا الكتابة . وعن طريق الهجرة والاختلاط جاء الهنود إلى أمريكا . وهؤلاء الهنود مختلفون عن بعضهم البعض . أشكالهم مختلفة . لغاتهم مختلفة . ولغاتهم غير مكتوبة . ولكنهم جميعا بغير ذقون طويلة ..

وعندما جاء الأوروبيون إلى أمريكا لم يندهش هؤلاء الهنود الحمر . فهم لا يتصوروا أن هؤلاء الأوروبيين مكتشفون ولا غزاة . وإنما هم أناس على سفر .. جاؤا قبل ذلك ولأسباب غير معروفة اختفوا . كان لونهم أبيض .. وكانت لهم ذقون طويلة .. علموهم كل فنون الحضارة : الخسوف وخطوط الطول والعرض . وعلموهم فن التحنيط . بل أكثر من ذلك علموهم إجراء العمليات الجراحية قبل أن يعرفها الأوروبيين .

وكان لهم تقويم أدق من الذى يستخدمه الأوربيون . فسنة الصفر ، أو البداية عندهم ، هى سنة ٣١١٣ قبل الميلاد . وهى نفس السنة التى ظهرت فيها الأسرة الأولى المالكة فى مصر وفى العراق . وكانوا يصنعون بيوتا من طابقين مثل أهل مصر وأهل العراق . واستخدموا الأنوال والمغازل . بل أنهم صنعوا أنواعا من السجاجيد أذهلت الأسبان عندما رأوها . .

ثم أنهم فى بيرو والمكسيك قد أقاموا الأهرامات المدرجة والأعمدة الرخامية من قطعة واحدة . ورصفوا الطرق وشقوا القنوات وأقاموا الكبارى المعلقة . وكانت لهم زوارق من البردى من طابقين . وكانوا يصنعون تمثالا لإله الشمس فوق هذه الزوارق . تماما كالفراعنة الذين يقف ملوكهم ، وهم آلهة الشمس ، على هذه الزوارق .

ولكن إذا كانت حضارة بيرو والمكسيك مستوردة ، فلماذا لم يتعلموا صناعة الزوارق عابرة المحيطات ؟ !

سؤال وجيه لا توجد عنه إجابة واضحة عند أحد . ولكن لماذا لا يقال إن الذين يرفضون الزوارق المصنوعة من ورق البردى لم يجربوا هذا الورق ؟ من المؤكد أنهم يشكون فى قدرته على عبور البحر أو المحيط .

ومن عشرات المقابر والمعابد التقط الرحالة النرويجى صورة مناسبة لزورق من البردى فقد رأى زوارق الصيد . وزوارق المسافرين . والزوارق الملكية . والزوارق التى جلست عليها فتيات يرضعن أطفالهن . وصنع زورقا طوله ٤٥ قدما وعرضه ١٥ قدما . أما أعواد البردى فقد لفوها على شكل حبال ثم ضموها بعضها إلى بعض . والزورق قد تكون من عشرين لفة ، وعلى ظهر الزورق توجد غرفة صغيرة يأوى إليها هايردال ورجاله طولها ١٢ قدما وعرضها ٩ أقدام . .

وبدأ العمل يوم ١٨ أبريل سنة ١٩٦٩ أى فى نفس اليوم الذى بدأ

فيه هايردال رحلته المشهورة من بيرو إلى جزر البحر الهادى منذ ٢٢ عاما !

وبعد أن تم صنع الزورق حملوه إلى الطريق الصحراوى ثم إلى الإسكندرية إلى ميناء صافى بمراكش على شاطئ المحيط الأطلسى . واختار له اسم رع – إله الشمس . ويوم ١٧ مايو سحبوه إلى خارج الميناء . وهذا الميناء قديم .استخدمه البربر قبل مجئ البرتغاليين إليه بألف سنة . وقد جاء البرتغاليون فى القرن الخامس عشر . وقد تردد على هذا الميناء البحارة الفينيقيون . والميناء صغير ومناسب ولا توجد خارجه تلك الأمواج التى تسحب الزوارق إلى حيث يصبح الإنسان عاجزا عن السيطرة عليها .. ولكن هناك تيارا هادئا ثم هناك الرياح الجارية ، وليس على الإنسان إلا أن يركب قطعة خشبية ليجد نفسه بعد أسابيع فى أمريكا !

وقبل أن يهبط رع إلى البحر صرخ أحد المصورين قائلا : ما رأيك لوغرق هذا الزورق .. انها صورة رائعة !

ولكن هايردال لم يتشاءم . وإنما رأى فى ذلك نوعا من الحماس المهنى . انه مصور صحفى يريد صورة مثيرة ، وليغرق الزورق والنظرية وكل العالم !

وقيل له أيضا إن أعواد البردى تغوص عادة بعد أسبوعين ولكن لماذا ؟؟

واستقر رع على الماء كما تستقر أوزة سمينة . ولكنها طافية رغم ذلك مثل عشرات الزوارق المصنوعة من ورق البردى والتى ما تزال طافية فى بحيرات بيرو . رغم وجود الأوروبيين منذ أربعة قرون !

نظر هايردال إلى الأوزة العائمة فوجدها متوازنة تماما . والناس قد تزاحموا على الشاطئ . وكذلك الزوارق والسفن . كل شئ يصرخ ويصفر ويهلل ويدعو لهؤلاء المغامرين بالنجاح . وجاء زورق ليسحب رع إلى خارج الميناء . لاشك أن الزورق قد امتص بعض الماء ! لقد تركوه فى البحر أسبوعا وزاد وزنه . ان هذا الزورق المصنوع من القش هو إحدى

المعجزات وأحد أحلام الإنسانية : أن يعمل الإنسان من أجل معرفة الحقيقة مهما كان الثمن . وأن يعامل الناس على اختلاف لغاتهم وألوانهم وأديانهم .. انها رحلة إلى الوراء .. إلى فجر التاريخ .

إنهم سبعة من الرجال .. واحد من أقصى الشمال من النرويج والآخر من أقصى الجنوب من أفريقيا .. وواحد من أبناء الحضارة القديمة : مصرى والآخر من أبناء الحضارة الجديدة مكسيكى .. ثم واحد رأسمالى أمريكى وواحد شيوعى روسى .. أما الروسى فهو طبيب وأسمه يورى ومن المهتمين بصحة رواد الفضاء ومشاكل انعدام الوزن . والإيطالى كارلو مورى هو مصور الرحلة . والمكسيكى أستاذ جامعى واسمه سانتياجو والإفريقى عبد الله جبرين من تشاد .. والمصرى جورج سوريال مهندس كيميائى وله بطولات فى الجودو .. وكان يسلى زملاءه بأن يكسر ستة قوالب من الطوب بضربة واحدة من يده .. وفى إحدى ساقيه آثار أنياب سمك القرش . . وليس بحارا ولكنه سباح فقط . وهو يفضل أن يكون تحت سطح الماء لا فوق ظهر الزورق .. أما الأمريكى فهو الوحيد الذى يعرف الملاحة اسمه نورمان.. وهم من ديانات مختلفة .فالأمريكى يهودى والمصرى أرثوذكسى والإيطالى والمكسيكى كاثوليكان ، وهايردال بروتسانتى والروسى ملحد والأفريقى مسلم . أنها تجربة إنسانية مثيرة . أسرة صغيرة من الممكن أن تتعايش . وأمكن ذلك رغم كل الصعوبات . .

وفى ميناء صافى جاء ١٦ بحارا وسحبوا الزورق إلى خارج الميناء ، أما زوجة الباشا حاكم الميناء ، فلم تستطع أن تنفذ من ذلك الستار المنيع من المتفرجين . وأخيراً أفلحت . ولم تجد سوى نسناس قدمته هدية لهم . وكان هذا القرد قد اصطاده الباشا منذ أيام . ونشروا شراع الزورق . ولون الشراع أحمر كالنبيذ . وعليه علامة إله الشمس رع . والمحيط يعلو ويهبط .

ولكنه هادئ . . والصرخات تتعالى . وانسحب الرجال وتركوا الزورق برجاله السبعة . . يواجهون المحيط وحدهم . . وكلمة « وحدهم » هذه لاتفزعك . ولكن إذا وجدت نفسك تطفو على كوم قش وتحتك تيار يستدرجك وأمامك ألوف أميال وحدك وفى أول تجربة من نوعها ، وقف شعر رأسك وانقطعت أنفاسك !

وإلى جانب الرجال السبعة والنسناس توجد بطة مربوطة من إحدى ساقيها . .

وكان تور هايردال مشغولا جداً بالعلاقات الإنسانية بين رجاله السبعة . أنهم لايعرفون بعضهم البعض . لقد التقوا فى ميناء صافى لأول مرة . . والروسى لايعرف إلا لغته والأفريقى لايعرف إلا العربية . . ولكنهم رغم ذلك كانوا مثل التوائم السبعة . وكانت الشكوى من المهندس جورج سوريال أنه « دلوعة » الرحلة فهو ابن ذوات ولم يعتد أن يغسل الأطباق ولا الملابس . ولذلك كان يتركها لغيره . وهنا يصرخ الإيطالى ، ويتدخل هايردال ليقول له : لاتؤاخذه لقد اعتاد أن يخدمه الناس . .

ثم قال لجورج سوريال : ليس من المفروض أن يخدمك واحد منا . .

أما عبد الله جبرين فلا يعرف القراءة . وقد رفض أن يعاون فى أى شئ وقال للرجل المكسيكى : أنت أبيض وأنا أسود . . وأنا لااحترمك . .

وغضب المكسيكى ثم قال له : أننى أمضيت سنوات من عمرى فى خدمة الزنوج وقد فزت بجائزة السلام البابوية من أجل ذلك !

وتصالح الإثنان ومضى الزورق بطيئا فى موج هادئ . . ولكن بقيت مشكلة الوضوء عند عبد الله جبرين . أنه يتوضأ خمس مرات فى اليوم . ويستخدم المـاء العذب الموجود فى الزورق وقد نبهه هايردال إلى أنه سوف يستهلك كل المـاء . . وفى استطاعته أن يتوضأ من ماء المحيط فهو أنظف ماء

فى العالم . واتجه عبد الله جبرين إلى ماء المحيط وكانت دهشته هائلة عندما أكتشف أنه ماء مالح !

وعلى الرغم من اختلاف الديانات على ظهر الزورق فإن الجميع قد احترموا صلوات عبد الله جبرين . إنهم ينظرون إليه فى دهشة وهو يركع ويسجد مستغرقا تماما !

ويوم ١٠ يونيو فوجئ الجميع بأن المحيط فى غاية القذارة . وأنه يصعب على واحد منهم أن يغمس فرشاة أسنانه فى الماء . لقد تحول ماء المحيط من أزرق إلى أخضر رمادى . إنها مخلفات الإنسان . . إنها إحدى جرائم العصر الحديث : تلويث قنوات الملاحة . . فى المحيط زجاجات عائمة وبقايا طعام وبقايا خشب وعلب . . وبقع من الزيت وكرات سوداء . . إنه شئ لم ير له هايردال مثيلا فى رحلته على الزورق « كون تيكى » سنة ١٩٤٧ والتى استغرقت مائة يوم ويوما !

وكان دور عبد الله جبرين فى إعداد الطعام فذبح آخر دجاجة . أما البطة فقد تركوها وأطلقوا عليها اسم سندباد . .

وبعد ٢٥ يوما من الرحلة كان الزورق قد قطع مسافة ١٢٤٠ ميلا . وهذه المسافة لو قطعها الفراعنة من ميناء الاسكندرية لذهبوا إلى ما بعد جبل طارق . . أو لوصلوا إلى نهر الدون فى روسيا . . أو إلى أبعد من ذلك فالبحر الأبيض أهدأ كثيراً من المحيط . .

أما قصة الأمواج فهى لاتنتهى . إن كل موجة تهز الزوارق . وكل رذاذ الموج يدخل فى الغرفة التى أوى إليها الجميع . . وكثيراً ما دخلت الأمواج إلى داخل الزورق ووصل الماء إلى ركبهم . . وكثيراً ما نزل جورج سوريال إلى ما تحت الزورق ليتأكد من سلامة الحبال — أنها مسألة حبال . إذا انقطعت انفرط الزورق كله !

وكانت هناك بعض الحبال من البلاستيك . . وكانوا يشعرون بشيء من الخجل لاستخدام هذه الحبال الحديثة . وكأنهم يستمعون إلى صوت نبتون إله البحر وهو يقول : هذا غش فى اللعب . . إن الفراعنة لم يستخدموا البلاستيك !

وفى ٢٦ يونيو تجاوزوا خط طول ٤٠ غربا . . أى أنهم أصبحوا فى النصف الأمريكى من المحيط . وانتهزوا هذه الفرصة وأقاموا حفلا . فتح جورج سوريال زجاجة شمبانيا وقدم المشهيات من الزيتون والجبنة والملوحة المصرية . . وكانت موسيقى وضحك حتى غابت الشمس فى المحيط . .

وفى أوقات الفراغ كان جورج سوريال يعلم عبد الله جبرين القراءة والكتابة . .

وفى الليل تعالت صرخات . . وكان الموج عاليا والريح شديدة . . وفجأة قفز الجميع : أن الأمريكى قد سقط فى الماء . وارتطم بشيء وتسلخ تماماً . وراح الدم ينزف من ساقيه . . وسحبوه . . ووقف الدكتور يورى يقول : أن الموقف خطير . . هل توجد عندنا أملاح الأمونيا .

وقال الزملاء : لا . . طبعا . . فأنت الطبيب !

وكان رده صحيح : نسيت هذه الأمونيا .

ثم عاد يقول : أن الأمونيا هى وحدها التى تعالج هذه الحموضة التى دخلت جسمه . . الموقف خطير جداً . . أن الأمونيا لاتوجد إلا فى البول . . ولذلك يجب أن تتبولوا فوراً . .

وتبولوا جميعا فى نصف جوزة هند . .

ثم راح هو يدلك جسم زميله الأمريكى بالبول ساعتين . والأمريكى يتألم . . وبعد ذلك استغرق فى نوم عميق . . صحا من نومه فى حالة هذيان . فأعاد له يورى التدليك مرة أخرى . .

وكانت الأسماك تتطاير من المحيط إلى ظهر الزورق . . وكانت بعض الأسماك تسبح إلى جوار الزورق فتأكل الأسماك الجافة المعلقة على الجانبين ..

والآن مضت ستة أسابيع على هؤلاء الرجال فى طريقهم إلى أمريكا . . فى نفس الطريق الذى سلكه الفراعنة ناقلين حضارتهم إلى هذا العالم الجديد الذى ليس جديداً . . واتصل تور هايردال بزوجته يطلب إليها أن تدبر لهم زورقا ينشلهم فالأمواج عنيفة والرياح أعنف ... والزورق تتطاير محتوياته من كل ناحية . . والرجال يشد بعضهم بعضا . وبعضهم سقط فى الماء ثم سحبوه . .

ومع أول يوليو أصبحت الأمطار غزيرة . . وواضح أن الزورق سوف ينشطر إلى نصفين . ولسبب غير مفهوم لم يحدث له ذلك . . ولم يبق فى الزورق كثير بعد أن سحبت الأمواج الصناديق والعقاقير والملابس الداخلية والخارجية . . حتى شراع الزورق اندفع إلى الأمام كأن حيوانا من حيوانات السيرك قد هرب منه من كرابيج المدربين . . إنهم الآن وحدهم بلا أية مساعدة وبلا أمل فى ذلك . . ولكن الأمل الوحيد عندهم هو ذلك الزورق الذى طلبه تور هايردال من زوجته فى إيطاليا أن تدبره له بقرب الشاطىء الأمريكى وجاء الزورق البخارى . . واتصلوا به لاسلكيا عدة مرات . ولكنهم لايرونه ولايراهم . طلب إليهم الزورق البخارى أن يطلقوا بعض الصواريخ ليحدد مكانهم . . أعلنوا أن كل الصواريخ وفتائلها مبللة وأنهم عاجزون عن إشعالها. وطلبوا إلى الزورق البخارى أن يفعل ذلك فاعتذر القبطان لنفس السبب . . ثم طلب إليهم القبطان أن يوالوا الاتصال له ليعرف مكانهم . . أما كيف عثر عليهم هذا الزورق بعد ذلك فتلك معجزة !

واستعاروا من الزورق عوامة صغيرة وركبوها وأنقذوا كل مابقى لهم فى الزورق رع . . وتركوه وحده للموج . . يفعل به ما يشاء . . يصل إلى أمريكا أو لايصل . . وانتهت مغامرة الزورق رع الأول . .

انتهت رحلة طولها ٢٧٠٠ ميل على زورق من القش . إنها نفس المسافة بين أفريقيا وكندا . .

أما ما تبقى من رع الأول فكان على مدى ٦٠٠ ميل بحرى من جزر باربادوس

ولم ييأس تور هايردال وإنما أنشأ زورقا آخر واسمه « رع الثانى » وبدأ من نفس الطريق .

وكان أكثر ثقة من ذى قبل . وكان بناء الزورق هذه المرة مختلفا . كان من ثلاث كتل من ورق البردى : واحدة إلى اليمين والثانية إلى اليسار أما الثالثة فهى التى بين الاثنتين والثلاث كتل مشدودة بعضها إلى بعض تماماً .

أما عبد الله جبرين فقد قرر العودة إلى زوجاته الثلاث . . وجاء رجل يابانى بدلا منه واسمه كاما اوهارا . . أما أوراق البردى هذه المرة فقد جاءت من بيرو . والذى صنع الزورق رجل من البربر اسمه مدنى . . وفى يوم ١٨ يونيو بدأت الرحلة الثانية وبعد ثمانية أسابيع كان الزورق على مدى ٢٠٠ ميل من جزر باربادوس وأرسلت الحكومة سفينة لتحيتهم . وعلى ظهر السفينة السيدة ايفون زوجة تور هايردال .

وفى اليوم السابع والخمسين لهذه الرحلة وصلوا إلى الشاطىء الأمريكى .. لقد نجحت المغامرة أو الرحلة . . من أجل إثبات نظرية أن الفراعنة قد وصلوا إلى هذه البلاد . . أو أن جماعة من البيض لهم ذقون طويلة جاءوا يحملون إليها الحضارة قبل أن تعرفها أوروبا !

أقزام..
يشربون الماء
في بيض النعام

كان ذلك فى إحدى ليالى الشتاء . . . الطفل يجلس على ساقى والدته . . وأمامه النار تشتعل . . النار تأكل الحشب . ويتحول الحشب إلى قطع سوداء قصيرة ومن هذه الأخشاب يتصاعد دخان أبيض طويل عملاق . . ويجئ رجل زنجى ويضع المزيد من الأخشاب ويختفى كأنه دخان .

ولسبب غير واضح يهرب الطفل من حضن أمه إلى غرفة ويصرخ ويبكى . . وأمه لا تفهم ماذا حدث ؟ وتحاول أن تفهم . ولكنه لايقول شيئاً . . وتقفل الأم باب الغرفة على الطفل الصغير ، وتضع الغطاء على وجهه وتتركه ينام . . ولا تكاد الأم تدفع وراءها الباب حتى ينهض الطفل من فراشه ويقف فى ركن من أركان الحجرة ويقسم : لابد أن أعثر عليهم . لابد أن أنقذهم أقسم بالله أننى سوف أفعل ذلك عندما أكبر ثم يسحب كراسة صغيرة ويكتب فيها هذه العبارة : أنا فان دربوست عمرى ثمانى سنوات أقسمت أننى سوف أنقذ هؤلاء الأقزام عندما أكبر . والله على ما أقول شهيد . !

ولا بد أن الطفل الصغير عندما رأى النار ، ورأى فيها الأخشاب السوداء القصيرة أدرك بإحساسه المرهف أن هذه الأخشاب القصيرة هى هؤلاء الأقزام السود — البوشمان الذين حرص الزنوج والبيض فى جنوب أفريقيا على القضاء عليهم باستمرار . . أنهم يضعونهم على النار أو يطلقون عليهم النار حتى لم يعد أحد يسمع عنهم شيئا . .

وكل ما سمعه الطفل الصغير عن هؤلاء البوشمان — أو الأقزام — هو أن

أحجامهم صغيرة جداً . وأن ملامحهم جميلة . ولكنهم وحوش . ومعقدون بسبب قصر القامة أما لون بشرتهم فهو فى لون الذهب الأسود . . أو لون المشمش . . وهم صيادون فقط . لايملكون أية قطعان ولا يزرعون الأرض . وإنما يحملون السهام والنبال والسنانير ثم ينصبون المصايد والفخاخ للحيوانات المفترسة . . ثم إن هؤلاء الأقزام ينظرون إلى السماء من حين إلى حين . . مرة إلى السحب لعل السماء تمطر ، ومرة بحثا عن ذلك العصفور الذى ينقض على أعشاش النحل . . فهم يأكلون عسل النحل . ومن الغريب أن لهؤلاء الأقزام رائحة خاصة إذا شمها النحل هرب ؟

وسمع الطفل أن هؤلاء الأقزام بارعون فى الرسم بالألوان . وفى النقش على الحجر ولا أحد يعرف من أين يأتون بهذه الألوان الحية . . الصارخة .. فالأحمر فى لون الدم ، والأصفر فى لون الذهب ، والأخضر فى لون الغابات والأبيض فى لون أسنانهم .. من أين ؟ لا أحد يعرف بالضبط . ولكنهم إذا ما ذهبوا إلى أى مكان فإنهم يتركون آثارهم التى تدل عليهم . . على أنهم كانوا هنا . . وقالوا شيئا على جدران الكهوف ومضوا . إلى أين ؟ لا أحد يعرف ! هل رآهم أحد ؟ كل الناس يدعون ذلك . ولكن أحد لم يقترب من هؤلاء الأقزام . ولذلك فالقصص والنوادر والخرافات عنهم تملأ الكتب !

وهذا الطفل فان دربوست قد أحس أن أجداده من البيض الذين جاءوا إلى جنوب أفريقيا حوالى ١٦٥٢ قد أبادوا الألوف من هؤلاء الأقزام . . وهو يريد أن يكفر عن خطيئة ورثها ولا دخل له فيها !

وعندما بلغ العشرين من عمره قرر أن يذهب للبحث عن هؤلاء الأقزام . وفشلت محاولته الأولى . وحاول مرة أخرى وكاد يموت وهو يعبر صحراء كلهارى بحثا عن هؤلاء البوشمان . . فالطريق ليس صحراويا فقط . . ولكن هناك مئات الأميال من المستنقعات والغابات . . والحرارة قاسية والرطوبة خانقة . . والوحوش ضارية والذباب مميت : . وقبل ذلك ليست لديه

معلومات كافية ولا وسائل للدفاع عن النفس ضد الوحوش والميكروبات .

والتهبت الحرب العالمية الثانية . . وانتقل إلى العمل فى الجيش البريطانى فى الحبشة . . ثم فى الشرق الأقصى . وسقط أسيراً فى أيدى اليابان . . وانضم إلى هيئة أركان حرب اللورد مونتباين . وعاد إلى بلاده . وعاوده الحلم القديم . وأحس أنه من الواجب أن يبرر بوعده وأن يفى بقسمه . . والآن هناك قوة عنيفة غريبة فى داخله تدفعه إلى البحث عن ضحايا أجداده من مئات السنين . .

ولكنه هذه المرة قرر أن يمشى خطوة خطوة وبحساب . الخطوة الأولى أنه سوف يعبر الصحراء كلها فى النصف الجنوبى لأفريقيا . . ولن يستخدم السيارات وإنما سوف يستعين بالجرارات فهى أقدر على خوض الرمال . وسوف يستعين بكل الأسلحة للدفاع عن النفس وكل العقاقير الطبية . وقد عاونته الإذاعة البريطانية بعدد من أجهزة التسجيل . . فقد يصادف هذه القبائل المنقرضة ويسجل لها من بعيد . فقد يتعذر عليه أن يقترب منها .

واهتدى إلى عدد من الأصدقاء الذين تخصصوا فى عبور الصحارى والصيد فى الغابات والذين يعرفون لغة البروشمان . .

أما الوقت المناسب للبحث عن هؤلاء الأقزام فهو موسم الهجرة . . موسم الأمطار . . ففى موسم الأمطار يهربون من المناطق الحارة الحارقة ويتجهون إلى حيث تزهر الأشجار وتنمو . . هذا الوقت من كل عام تهاجر الحيوانات أيضا . . وأمامها ووراءها يهاجر الأقزام . . ويكفى أن يقتفى آثار وحوش الغابة ليعرف اتجاهها . وفى هذا الاتجاه لابد أن يتوازى الأقزام .

قال له بعض الناس « الواقعيين » والذين يحسبون الأمور بدقة : لاداعى فالمسافة مهلكة والأخطار لاحدود لها .

والذين هم أكثر واقعية نصحوه بأن يعدل عن السير فى الصحراء ويتجه إلى الأنهار أو إلى الغابات .

والذين يتوقعون كل الاحتمالات نصحوه بأن يقطع الصحراء ويتجه إلى الغابات . . وفى داخل الغابات يركب الزوارق ويتابع الأنهار . . وأن يكون عبورها نهارا فقط . . فهؤلاء البوشمان لايرون فى الليل بوضوح . . وإنما يعيشون على ضوء الشمس وإن كانت أشعة الشمس تقضى عليهم أولا بأول . .

وبدأت الرحلة بعد ظهر أول سبتمبر سنة ١٩٥٢ . . الجرارات الأربعة تزحف على الرمال . لا تحمل الكثير . . ولكنها الوسيلة الوحيدة لاجتياز الرمال . ومضى يوم ويوم . وفى اليوم الثالث وصل إلى شلالات فكتوريا . . لاجديد . . لا شئ قد لفت نظره . فهو ابن هذه البلاد . وهو يعرف أرضها وشجرها وحيواناتها . . ولكن ربما استوقفه قليلا أنه رأى قطيعا ضخما من الأفيال يجتاز نهرا « مجاورا » إذن لقد بدأت الهجرة فهو لم يخطئ فى اختيار الوقت الأفضل من العام . الحرارة تسحق اللحم و الشحم . والرطوبة ستائر كثيفة على الأنوف . والملابس كأنها تسبح من النار . والضوء يفقأ العيون . . ولكن منظر الفيلة والجواميس الوحشية والزراف والطيور الجارحة وقد احتشدت جميعا فى اتجاه واحد . . هو الشئ الوحيد الذى أراحه . . وأراح رجال قافلته . . لقد بدأ الموسم الذى تهرب فيه الحيوانات إلى حيث تكون خضرة الأرض وكثرة المياه . . ومعها وفى أرجلها يتوازى الأقزام . .

ونصحه خبراء الطرق يمشى مع نهر زمبيرى . ومن هناك ركبوا عشرات الزوارق الصغيرة وقد وضعوا عليها كل أمتعتهم وأسلحتهم . وأدار فان دربوست أجهزة التسجيل . . فى النهر والماء والهواء الذى شنقته الرطوبة وعلقته على غصون الشجر ، تتردد أصوات صارخة عارية باكية . . وهمس وهسيس وفحيح ونعيق . . كل ذلك فى وقت واحد . . مئات اللغات . .

ألوف الأصوات متداخلة . . وكلها تصنع سيمفونية الفزع من المجهول . . أما هؤلاء الذين جاءوا فى زوارقهم فهم يخوضون فى ملايين العازفين . . وعند إحدى الجزر ربطوا زوارقهم . وجاء الليل وتناثروا وناموا . . وكان النوم متقطعا فلا أمان لشئ هنا . . وفى سكون الليل . . الكون النسبى . . سمع هو ما يشبه الطلق النارى ففزع . . ونهض من فراشه ، أو من الأرض التى هى فراشة . . وراح يعوى لينبه الذين حوله . . فقد رأى ظلالا سوداء تقترب . . كانت قطيعا من الفيلة . . أما الطلق النارى الذى سمعه فلم يكن سوى فرع شجرة قد وطئته أقدام فيل فكان لهذا الوطء هذا الدوى . . وبسرعة قفز الرجال إلى النار فألقوا عليها بمزيد من الخشب والبنزين . . فزاد لهيبها وتناثرت شظاياها .. فخافت الفيلة وفرت إلى أطراف الجزيرة . . ولو اقتربت هذه الفيلة دون أن يدرى بها أحد لحطمت كل ما معه من أدوات وحاجيات وقضت عليهم تماظاً . .

وفى الصباح عادوا إلى الزوارق . ثم تركوها على شاطئ النهر . واتجهوا إلى أحد المستنقعات . . بعد أن سحبوا الزوارق على الأرض . . وحملوها على أكتافهم . . ووسط دقات الطبول العنيفة التى تمزق قماشا من نوع عجيب . . هـذا القماش هو أحيانا اسمه : الصمت . . وأحيانا اسمه : الرطوبة . وأحيانا تمزق : الشعور بالأمان . يقول فان دربوست فى مذكراته هذه الطبول هى قلوب جبارة تخفق بجنون . ووجوه الذين يدقون الطبول لاتدل على شئ . . كأنهم اعتادوا على تشييع أو توديع الناس إلى مقرهم الأخير كل يوم .

ويقول فان دربوست : لم أشعر قط أننى سوف أفشل . . إننى مشدود إلى هؤلاء الأقزام بخيط سحرى . . قوة سحرية تدفعنى إليهم . . وأننى لابد أن أجدهم . . أنهم هم الذين نادونى منذ طفولتى . . صدق أو لا تصدق .

الآن قد انفردوا بكل شئ . . أو على الأصح قد انفرد بهم كل شئ . .

البعوض جيوش لا عدد لها . . أزيزه . .طنينه مخيف . . إنه ينقض على كل شئ . . على أفراد القافلة . . على طعامهم وشرابهم . . إنه أعلى من صوت الأبقار الوحشية والسيد قشطة . وفى المستنقعات وجد قنوات من الطين . . هذه القنوات الغائرة تدل على أن قطيعا من السيد قشطة قد مر من هنا واختفى هناك . . والقنوات لها شكل جامد . . ومعنى ذلك أن هذا القطيع قد اعتاد أن يمر فى هذه القنوات منذ وقت طويل . . فلماذا لا يمر فيها الأقزام أيضا .

ويبدو أن هذا الاستنتاج خاطئ فقد نبهه واحد من رجاله إلى أن الأقزام لايمشون فى الوحل . أنهم قصار القامة ويخافون أن يبتلعهم الطين . . أنهم يفضلون الأرض الأكثر جفافا . . وهذا كلام معقول ولذلك تحول برجاله إلى ناحية أخرى . . وفى الناحية الأخرى من المستنقعات عشرات من التماسيح الجبارة تمطت فى الشمس . . تفاجئ أفواهها من بقايا لحوم وديدان . . ولم تهتز هذه التماسيح لصوت الزوارق . . وكأن التماسيح مرسومة على الطين .. وكأن هذه الطيور تعبث بهذه اللوحات :

يقول فان دربوست فى مذكراته .

أننى أعتمد على إحساسى . . على شئ فى داخلى . . هذا الشئ ليس له معنى واضح . . ولكنه شئ قريب . . حاسة سادسة . . صوت الماضى . . عذاب الضمير وعلى هذا الاحساس الغريب أعتمد كثيراً . . وفجأة أحسست برغبة فى أن أنظر إلى الوراء ونظرت ولمحت بين الأوراق قزماً صغيراً ينظر ناحيتنا . . أنه واحد منهم . . وجهه . . رأسه . . لونه المشمشى . . لاشك فى ذلك !

وروى ما شاهده لزملائه من البيض والسود فى القافلة . . وضحكوا .. وامتدت بعض الأيدى إلى رأسه لعله محموم . . أو لعلة يهذى . . ولكنه

كان على يقين مما أحس ومما رأى . . وقال له أحد خبراء اقتفاء الأثر : لايمكن أن يعيش الأقزام فى هذه المنطقة ففيها الكثير من ذباب تسى تسى ..

ذلك الذباب الذى يلسع ضحاياه فيظل الضحية نائما حتى الموت !

وكانت فى طريقهم جزيرة .. الجزيرة صخرية . عالية . صعدوا إلى أعالى الجزيرة فيها كهوف كثيرة . . وعندما انعكست أشعة الشمس على مدخل أحد الكهوف برقت ولمعت بعض الألوان . . إنها إحدى اللوحات البدائية .. رسوم لحيوانات وطيور . . الألوان فى غاية الحيوية . . أما هذه الأكف الصغيرة على جوانب هذه الرسومات فلا بد أنها إمضاء الفنان البدائى . وهذه الأكف الصغيرة لابد أنها توقيعات الفنانين . حتى البدائى لايستطيع أن يفعل شيئاً دون أن يقول : أنا فعلت . . وهذا الامضاء ليس إلا هذا المعنى . مع أنه لايدرى ذلك . ربما قصد أن الأرواح هى التى سوف تراقب أعماله وهجراته من مكان إلى مكان . . الأرواح ؟ نعم هذه أرواح ؟ !

ودارت مناقشة حول إمكان أن تكون هناك أرواح طيبة أو شريرة . . وتعالت الأصوات وقال أحد خبراء اقتفاء الأثر : نعم هنا . . وسوف ترون !

ولم يكد يكمل هذه الجملة حتى سمعوا صراخا من الرجل الأبيض الذى جاء يصور الرحلة بالأفلام . إن الكاميرا لاتعمل مطلقا . يحاول فتح العدسة أو توسيعها أو تضييقها . . إنها لاتتحرك إطلاقا . وتعالت صرخات الزنوج فى نفس واحد وقالوا : إنها الأرواح !

ولم يجد فان دربوست إلا وسيلة واحدة لاسترضاء الأرواح . فقد أنذر أعضاء القافلة بألا يرفعوا أصواتهم وألا يتشاجروا . . ولكن واحداً من الزنوج أنذره مرة أخرى : أن هذا لايكفى !

وامتدت يد فان دربوست إلى قلم وورقة وكتب اعتذارا للأرواح

عن هذه الضوضاء التى أفسدت جمال وجلال الكهوف . ثم وضع الورقة تحت شجرة حددوها له . .

وتعالت صرخة مصور القافلة : إن الكاميرا تتحرك . . وتحركوا جميعا وهم لايفهمون ماذا حدث . ولا كيف حدث . .

ومن النظر إلى بقايا الطعام على الأرض .. وآثار الأقدام والأعشاب أعلن واحد من الزنوج أن الأقزام كانوا فى هذه المنطقة ثم رحلوا منذ أسبوع على الأقل . . ولكنهم بعيدون من هذا المكان . . ثم رأوا آثار أقدامهم على الأرض . . الأقدام صغيرة جداً . وهم إذا ساروا فإنهم يمشون على أطراف أصابعهم . . ولذلك فأصابع القـــدمين غائرة فى الأرض . . أما الكعب فلا أثر له !

وفجأة . . رأوا قزماً صغيراً جداً وقد لف جلد أسد حول خصره . إنه قزم فى لون المشمش . تمام . وعيناه واسعتان . مضبوط . وفى يده سهم . يصيد أرنبا بريا فى براعة . ثم يمسكه من أذنيه . ويتوارى به بين الأشجار . ثم يعود بسرعة إلى مكان الأرنب ويضع الطين على دمائه التى سالت حتى لاتهتدى الحيوانات إلى الأرنب . . واقتربوا من القزم . ولم يخف . ولم يهرب وإنما ظل واقفا كأنه على موعد . والتفوا حوله . . ووقف الرجل القزم وتحدثوا إليه إنه فى غاية الرقة . ليست فى نظرته أية رغبات عدوانية . لاشىء مما تقول الكتب وأحس فان دربوست أنه من الضرورى أن يعترف بشىء . يقول فى مذكراته : مجرمون جميعا أجدادنا . مجرمون سفاحون . إن هذا الإنسان الذى يقف أمامى فى غاية الرقة . إنه أرق بكثير جداً من الأوروبيين الذين التقوا على الحدود . . الألمان والفرنسيون مثلا . . الإيطاليون والنمسويون مثلا . . إنهم فى منتهى الوحشية . . أنتم وحوش أيها البيض ؟ !

وعندما سألوه عن بقية الأقزام قال إنه سوف يعود غداً . . وانصرف !

وكاد بعض الزنوج والبيض أن يطلقوا النار على إحدى ساقيه ليعطلوه ، أو يأخذوه رهينة لأنهم لايضمنون صدق ما يقول . .

ولما انصرف القزم كانت العدسات تلاحقه . . وكذلك آلات التسجيل . . وقرروا المبيت فى نفس المكان . وفى الصباح جاء الرجل القزم ومعه زميل له . . ولا يزال الهدوء والبساطة والسماحة هى طابع كل منهما . . واقترب الاثنان . . وسئل القزمان أين توجد بقية القبيلة . .

فأشار الاثنان إلى مكان وراء هـــذه الغابة . وتحرك الجميع معا . . واخترقوا الغابة . . ومن فوق أحد التلال رأوا قبيلة بأكملها . . يبلغ عددها ثلاثين من الرجال والنساء والأطفال . والرجال قد صادوا بعض الحيوانات والنساء يعملن على تسوية هذا اللحم الطازج والأطفال الصغار يلعبون . . ونزل المطر من السماء . . وبسرعة اختفت اللحوم . . واختفى الجميع . وفى لحظات عادوا يرقصون للمطر ، رقصة الشكر . وبعد ذلك . تعالت الطبول . إنهم يصلون للشمس عند الغروب . . وقبل غروب الشمس بقليل عادوا يقفون متجاورين . ثم يرفعون أيديهم . . ويختفون بين الأشجار فى بيوت مصنوعة من أغصان الشجر ومن الأعشاب . إن هذه البيوت أشبه ببيوت النحل . وكان كل شئ قد تم فى هدوء وسلام .

لم يكن فان دربوست يريد شيئاً . فقط أن يرى هؤلاء الناس وأن ينقل للرجل الأبيض تصحيحا لهذه الصـــورة القاتمة الكاذبة عن أناس مثلنا لهم حياة خاصة .. يعيشون فى سلام . لاهم وحوش..ولاهم قساة ولاهم كاذبون . يأكلون من ثمار الشجر وأعشاب الغابة وحيوانات البر والبحر وهم ضحايا الشمس والمطر والمرض والبعوض والذباب وهم ليسوا فى حاجة إلى أسلحة الرجل الأبيض لكى يموتوا . . إنهم ينقرضون من تلقاء أنفسهم !

وتلفت فان دربوست إلى الجميع وقال : الآن يجب أن نعود ، انتهت رسالتى . وتحققت أمنيتى . ووفيت بما وعدت . وأرحت ضميرى !

وقبل أن يعود فان دربوست قرر أن يودع هؤلاء الأقزام . . فدعاهم . . ووزع السكاكين على الرجال والمناديل على النساء . . والطعام على الجميع .. وتعالت دقات الطبول لوداعه . .

وقرر هو أن يودعهم على طريقتهم . . فنزع ملابسه ووقف عاريا وارتدى جلد الأسد حول خصره . ورفع يديه إلى السماء ليصلى . . وقبل أن يعتدل فى وقفته كانت سهام الزنوج ونبالهم قد اتجهت إليه . . وبسرعة ألقى بنفسه على الأرض رمزا للاستسلام وارتدت السهام والنبال . وسأل عن الذى أغضبهم وآثارهم عليه فقالوا : إنهم يخافون أن يجلب النحس عليهم فقد لبس جلد الأسد بالمقلوب !

من عينيها ..
خرج آخر سباق
دولي للقمح!

هل تؤمن بالصدفة ! من المؤكد أنك تؤمن بها . وهل الحياة من أولها لآخرها إلا مجموعة من الصدف ؟ اختلفت الآراء حول الإجابة عن مثل هذا السؤال ولكن الذى يقول إن كل شيء صدفة ، يجعل وجودنا تافها ، ويجعل الوجود كله بلا حكمة أرادها الله . ولكننا فى مثل هذه المرحلة الصغيرة الضئيلة من حياتنا ، لانعرف حكمة حياتنا ولا حكمة الوجود كله ولا حكمة الله فإننا أصغر وأتفه من ذلك . . ولكى يكون هذا واضحا عليك أن تسأل أقرب نحلة أو نملة – إن استطعت – عن سر اختراع الانسان للصواريخ عابرة القارات .

احتفظ بهذه المعانى فى رأسك بعض الوقت وأنت تقرأ قصة هذا الشاب الصغير أريك نيوبى (١٨ سنة) عندما كان فى العشرين من عمره كتب فى مذكراته يقول : فى هذا اليوم غضبت مع واحد من إخوتى ، وقررت أن أترك ايرلندا وأذهب إلى فرنسا . . لا أعرف فى فرنسا ولا منها ولا عنها أى شيء غير أن نابليون أعظم قائد فى التاريخ . . من أجل ذلك قررت أن أهرب . .

ويقول أيضا : وفى هذا اليوم رأيت مرجريت . . صدفة . . تمنيت أن أكلمها فى أى شيء .. أن أقول لها إننى أحبك .. واقتربت منها ... وتصادف أن جاء أخى . . ويبدو أنه كان يعرفها . . فسلمت عليه ، ورحبت به . . وكان فى عينيها نوع من الترحيب العام به . . وبى . . وبكل الدنيا . . وهنا قررت أن ألقى بنفسى فى الماء . . وصدفة . . وجدت أبى ومعه والدتى

فى الطريق إلى الكنيسة . . ومن عينى أمى الرقيقتين الجميلتين تدفق تيار من الرحمة والحنان . . ومدت يدها . . ومددت يدى ونفسى . . وأعطيتها كل شئ . . وأعطتنى ، واحتميت فيها . . وعدت . .

ويقول أيضا : وفى الصباح صارحت أمى بأننى لابد أن أكون بحارا ، وقال أبى : إذن تريد أن تكون رجلا ، لقد أسعدتنى ياولدى ، أنا أحب الرجولة المبكرة! وقالت أمى: ولكنك لم تكمل تعليمك بعد .. بل لم تتعلم أى شئ . وقال أبى : الحياة أكبرمدرسة .. وأين تعلمت أنا .. وأين تعلمت أنت . . إننى أفضله على أخيه الذى يريد أن يكون زوجا وأبا . . إنه إنسان بلا طموح والفتاة التى اختارها لاتختلف كثيراً عن أمها . سوف يكون لها عشرة من الأولاد ! .

وبعد عشرين سنة أخرى كتب أريك نيوبى يقــول فى مذكراته التى عنوانها « آخر سباق للقمح فى العالم وفى التاريخ » : لو كنت ذهبت إلى الميناء وأنا فى الثامنة عشرة من عمرى ولم أجد هذه الفتاة مرجريت لتغير شىء كثير فى حياتى وحياة غيرى . . ولكن عندما ذهبت إلى الميناء وجدتها هناك . . كانت قلقة . . أو كان قلقها نوعا من السخرية . . كأنها تريد أن ترانى . . أو لاتريد أن أراها فى هذه اللحظة بالذات . . وصدفة . . جاء قبطان طويل عريض أعرفه . . وأعرف أن له سفينة ضخمة ، قلت له : سيدى . . أريد أن أعمل معك . . وفى هذه اللحظة نظر القبطان ناحيتى وكأننى فأر قفز فى جيبه فقال : مات من رجالى كلب صغير . . يمكنك أن تحل محله . . هل لك أب ، فقلت : طبعا . فكان رده وكأنه ينفض هذا الفأر بحذائه الغليظ : ولماذا طبعا . . أنا شخصيا لا أعرف لى أبا . . وسوف تعرف أن المحيط ليس له أب ولا أم . . ولا العواصف ولا الشمس ولاالقمر.

إنها صدفة أخرى.. فقد كانت مرجريت واقفة. وتأكدت تماما أن قلقها لم يكن إلا نوعا من الرغبة الشديدة فى أن أذهب من طريقها . . أو أن أختفى

فى ستين داهية . . لأن الذى يقـارن دائما بينى وبين أخى . . يرانى أفضل ويراها مصدر تعاسة له . . وكان هناك اتفاق بين كل الظروف . . فقد ظهر أبى فجأة . . لا أعرف كيف . . ويبدو أنه كان يعرف القبطان . . نحن الآن ثلاثة : القبطان وأبى وقد بدا قصيرا أكثر مما كنت أتصور . . ومرجريت وفجأة طالت قامتها أكثر مما اعتدت أن أراها . . أما أنا فأقصر وأصغر الجميع . . أى أننا أكثر من ثلاثة . . ومن الغريب أننى أقول دائما . . كنا ثلاثة مع أننا كنا أربعة . . ووافق أبى على سفرى معه . . وبسرعة انتقلت عيناى إلى مرجريت والآن عرفت كل شئ . . إنها استراحت إلى هذا القرار وفى نفس الوقت لاتصدقه . . فأنا أصغر من ذلك بكثير . . وهكذا تصورت أن هذا ما يدور فى رأسها . .

وبسرعة حدث كل شئ . .

فى ذلك الوقت من التاريخ كانت السفن الشراعية فى العالم كله قليلة . . ربما كانت عشر سفن قادرة على عبور المحيطات . . وكان يملك هذه السفن رجل من فنلندا ومهمة هذه السفن هى نقل القمح من استراليا إلى أوروبا . ولا يمكن أن يكون صاحب هذه السفن من الهواة ، إنه تاجر يكسب ، وواضح أنه يكسب كثيراً ، والغلال لاتفسد ولا تتكسر بالسفر الطويل بين القارات . . ثم إن الغلال ليست كالفاكهة موسمية ، يجب أن تصل فى موعد محدد حتى تكون « فاكهة الموسم » وفى نفس الوقت دون أن يصيبها العطب . . وكانت هذه السفن تدور حول رأس الرجاء الصالح — أى حول أفريقيا — أو حول رأس هورن — أى حول أمريكا الجنوبية . .

وفى القرن الماضى كانت رحلة السفينة الشراعية من استراليا إلى إنجلترا تستغرق مائة يوم . . وبعد ذلك استطاعت سفن شراعية أكبر أن تقطع هذه المسافة فى أيام أقل ففى سنة ١٨٦٨ استغرقت رحلة السفينة الشراعية (ثروميليه) ٦٣ يوما . . أما المسافة فهى ١٥ ألف ميل . .

وبعدها جاءت سفن أخرى تنقل الشاى من الصين إلى إنجلترا عبر قناة السويس التى انفتحت سنة ١٨٦٩ ، ثم جاءت سفن أخرى وقامت بنقل الصوف من استراليا . وفيما بين سنتى ١٨٨٥ و ١٨٩٥ كانت الرحلة تستغرق ثمانين يوما ونصف اليوم من استراليا إلى بريطانيا حول أفريقيا وتستغرق أيضا اثنين وثمانين يوما ونصف اليوم إذا مرت حول أمريكا الجنوبية .

أما رحلة هذا الشاب أريك نيوبى فقد كانت فى سنة ١٩٣٨ ، فنى ذلك الوقت كانت هناك سفينة ضخمة رشيقة ممدودة تشبه كلاب الصيد . واسمها موشولو . . وكان قبطان هذه السفينة اسمه جوستاف الرهيب . . وعندما توقفت السفينة تفرغ ما بها من شحنات القمح تقدم شاب صغير إلى القبطان وألقى أمامه ورقة وهرب . . ويقول الذين رأوا القبطان أنه مد يده وفتح الورقة وتركها تسقط على الأرض ثم داسها وأفرغ كوب البيرة فى فمه واستدار يطلب المزيد ، وفى اليوم التالى جاء هذا الشاب وقال للقبطان إنه يريد أن يكون ضمن رجاله وسمع الناس القبطان يقول : تريد أن تكون كلبا بين الخنازير التى معى . لا مانع . .

وهذا يختلف تماماً عما رواه الشاب أريك فى مذكراته.ولكنه على كل حال وافق على أن ينضم هذا الكلب الصغير إلى حظيرته المسماة موشولو . . ووافق الأب أيضا وأعلن القبطان للأب أمام الابن أنه غير مسئول عما يحدث للابن كأن يهرب فى أحد الموانئ.. أما إذا أخطأ فسوف يطبق عليه القانون الفنلندى ، فصاحب السفينة فنلندى والقبطان أيضا ، وإذا مات أثناء العمل فسوف يدفعون له تعويضا .

وبعد أن أفرغت السفينة حمولتها من القمح ، وبعد أن وضعوا فيها أثقالا من الحديد وبراميل بها ستون طنا من الماء العذب ، نشرت السفينة أشرعتها الأربعة يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٩٣٨ فى طريقها من ميناء بلفاست بايرلندا إلى ميناء لينكولن باستراليا . . أما الرحلة بالنسبة لهذا الشاب فقد

بدأت قبل ذلك بيوم واحد . . أو على الأصح بساعات ، فلم يكد الشاب الصغير ينتقل إلى ظهر السفينة حتى سمع القبطان الرهيب يقول صارخا : اصعد السارية بسرعة . . إلى آخرها ! وكانت صرخة القبطان . . مثل طلقة نارية موجهة إلى الشاب أريك . . إليه هو وحده . عينا القبطان ويده كلها تؤكد هذا المعنى ، وقال الشاب : يجب أن أخلع حذائى.. وقال القبطان اخلع حذاءك واصعد . .

أما ارتفاع الشراع فهو ١٩٨ قدما . . وهو أعلى سارية فى العالم . . وكان مغطى بالزيت ومبللا بالماء . . وبدأ البحار الصغير يتسلق السارية . . وجاء صراخ من القبطان يقول له : إذا أصدرت إليك أمرا فيجب أن تردده ورائى . . اخلع الحذاء واصعد إلى آخره . وردد البحار الصغير : اخلع الحذاء واصعد إلى الآخر وصرخ القبطان : لم أقل ذلك . وتنبه الشاب وقال : اخلع الحذاء واصعد إلى آخره . .

وتسلق حتى آخر الشراع . .

ثم نزل ، لم يكن الغرض من هذا الصعود سوى أن يدخل فى طاقم السفينة بسرعة وأن يطيع الأوامر ، وأن يتحول إلى قطعة من قطع السفينة لا رأى له ولا إرادة . إنه فقط ينفذ أوامر العقل الكبير : القبطان الرهيب .

وأكد له القبطان : أن الذى تفعله هنا بالقرب من الميناء سوف تفعله مرات أثناء العواصف التى تزيد سرعتها عن السبعين ميلا فى الساعة .

وكانت الرحلة بعد ذلك شاقة ، ولكن أحدا من طاقم السفينة لايندهش لما يفعله المحيط بالسفينة ولا لما تفعله الرياح بالشراع . وأعمال النظافة تتم فى الساعة السادسة من كل يوم ، وكل واحد يؤدى عمله ساعات محددة بشرط أن تكون الأحوال الجوية حسنة أما إذا ساءت ، فالكل يجب أن يعملوا . . وبسرعة يستمد البحارة من البحر غضبهم ومن العواصف قسوتهم ، ومن الزمهرير جمودهم ومن الموت تحديهم له . .

ووصلت السفينة إلى استراليا . أما المغامرة الحقيقية التاريخية فهى فى طريق عودتها إلى ايرلندا . . فالسفينة قد حملوها بستين ألف جوال من القمح ولا بد أن تعود إلى إيرلندا عن طريق رأس هورن – أى مارة بالطرف الأقصى لأمريكا الجنوبية رحلة عادية وقد استغرق شحن السفينة حوالى الشهرين . وفى الميناء صعد الشاب سارية السفينة ، وعندما نزل فوجئ بأن القبطان يسأله : من الذى أمرك ؟ وردد الشاب وراءه : من الذى أمرك ، وقال القبطان : ليس هذا أمراً إنه سؤال ! وقال الشاب ليس هذا أمرا إنه سؤال . .

وضحك القبطان . . وهنأ طاقم السفينة هذا الشاب لأنه استطاع أن يجعل القبطان يضحك فى هذا اليوم ، واحتفلوا بهذا اليوم السعيد فذبحوا واحدا من الخنازير الثلاثة الموجودة فى السفينة ، وكان عليهم أن يأكلوا الخنزير كله ، فليس فى السفينة ثلاجة يضعون فيها ما يتبقى من اللحم ، وشربوا حتى سكروا تماماً ، وأقلعت السفينة واتجهت إلى الشرق . . الجو بارد جداً ، الموج مرتفع الهواء يستجمع قوته ليكون عاصفة ، كل شئ يدل على ذلك ، أشرعة السفينة تهتز ولكن واحدا منها لايمتلئ . . القبطان دائم النظر إلى السحب ، ولكنه رجل مدرب فقد هز رأسه دليلا على أن شيئا خطرا لن يقع ، وهبط لينام ، ونام ، وكل شئ حول السفينة قد نام وعندما صحا ، كان كل شئ ينتظره ، السحب ازدادت سوادا والموج ازداد ارتفاعا والعاصفة تعتصر السفينة والخنازير والبحارة فى حالة هياج فوق السفينة .

وفى الليل ، أى بعد يوم ١٥ مارس سنة ١٩٣٩ بعد إبحارها من ميناء لنكولن باستراليا بأسبوعين قرر البحار الصغير أن يصعد السارية ويلقى بنفسه فى البحر لماذا ؟ لم يعرف سببا لذلك ، ويقول إنه رأى والدته فى النوم. ويقول إنه رأى مرجريت . . وعندما فكر فى تنفيذ هذا القرار كان البحر هائجا والسفينة تتساقط فى كل الاتجاهات ولا يوجد أحد على ظهر السفينة . .

لا أحد ، والليل مخيف وهو ما يزال شابا صغيراً وما يزال الطريق طويلا رهيبا إلى ميناء كوينزتون بايرلندا .

وفى نفس الوقت كان يسمع من القبطان أن سفينة شراعية أخرى سبقتها منذ شهرين..قد أقلعت قبلها يوم ١٦ فبراير ، السفينة اسمها فايكنج .. وهى المنافسة الوحيدة لها .

وأبحرت سفينة أخرى اسمها بامير يوم ٨ مارس أى بعدها بأسبوع .

وسفينة ثالثة اسمها باسيت أبحرت يوم ٩ مارس .

وبعد أيام هدأت الريح ، ولكن الجو بارد ، والموج جبال ، والقبطان عيناه فى بريق النجوم ، ووجهه مكفهر كالسحب ، وصوته كالرعد ، وليس من المتوقع ، لأى سبب أن يضحك ، الكل يؤكدون ذلك . . ثم إن واحدا من البحارة قد أخبر أريك الصغير أن هذا القبطان كانت له زوجة هربت مع بحار صغير وتركته ، وهذا هو سر قسوته عليك . ثم إنك تشبه هذا البحار الذى هرب مع زوجة القبطان .

* * *

ومنذ ذلك اليوم راح أريك الصغير يغطى وجهه ، حتى لايراه القبطان أو حتى إذا رآه لايستعيد ذكرياته الأليمة ، إنه شاب صغير وأفكاره صغيرة أيضا ، ولم يناقش ما قاله هذا البحار المخمور ، فلا وقت للتفكير فى أى شىء ، فالموت على رقاب وتحت أقدام وفى جوانب وعلى شفاه الجميع !

لاشىء يراه أى إنسان غير الماء والسحاب .. والاثنان من لون واحد . وكل شىء على مدى ألوف الأميال . . إنهم على مسافة خمسة آلاف ميل من رأس هورن ، أقصى أمريكا الجنوبية . .

وفى أحد الأيام قرروا أنهم سعداء جداً . . لماذا . . إنهم مروا بخط

الطول ۱۸۰ وعليهم بعد ذلك أن يعيشوا يوما آخر . . فعند هذا الخط يعيش الإنسان اليوم الواحد يومين . . (أنا شخصيا مررت بهذه التجربة . . فعندما سافرت من طوكيو يوم ۷ نوفمبر وصلت إلى جزر هاواى يوم ٦ نوفمبر . . فكأننى عشت يوم ٦ مرتين ، ويوم ۷ مرتين أيضا !) ولكنهم تشاءموا ، فقد كان يوم عبور هذا الخط يوم جمعة . . ولو كان يوم الأحد لعاشوه مرتين !

وقال أحد البحارة المخمورين : ان هذا اليوم لن يمر فى سلام ، ولما سألوه قال انه يعرف ذلك ، ولما استوضحوه قال . إذا رفع الخنزير رجله اليمنى عند الذبح فهذا نذير شؤم علينا جميعا !

وقد صدقت هذه النبوءة ، فلم يكن أسوأ من ذلك اليوم فى الرحلة كلها ، وكان على البحار الصغير أن يظل يجرى من أول السفينة لآخرها يربط الحبال ويعقدها ويأتى بالخرائط للقبطان من تحت ومن فوق وطلب إليه القبطان أن يضاعف كمية الشاى الساخن الذى يشربه حتى لا ينام .. وأن يظل طوال الوقت عند قدميه .. نعم عند قدميه ، ألم يقل إنه كلب من الكلاب ؟ فعلا إنه واحد منهم ، بل إنه أقرب الكلاب إلى القبطان .. أو أبغضهم إليه .. أو الذى لا ينساه أبدا .. بل إنه يناديه باسمه عشرات المرات فى اليوم الواحد .. ونام أريك الصغير من شدة التعب وتراجع برأسه إلى الوراء ، فاصطدم بالقبطان .. ونهض خائفا وهو يقول : نعم يا سيدى . سوف أصعد فورا !

وانطلق أريك يصعد السارية من جديد .. وتشاء الصدفة العجيبة أن يكون صعوده فى الوقت المناسب ، فقد كان الشراع قدبدأ يتمزق، ولكن أريك الذى لا يدرى مصدرها استطاع أن يعيد رباط الشراع وكانت العواصف شديدة .. وظل يواجه الشراع والموت والعواصف وحده ساعتين. وهبط إلى ظهر السفينة ليجد القبطان فى انتظاره ، وقد أخذه إلى غرفته وملأ جوفه بالكونياك ووضع عليه أغطية كثيفة ، والشاب الصغير فى ذهول

ولكن عيون البحارة تؤكد له أنه حقق معجزة ، فلولا أنه صعد فى الوقت المناسب ودون أن يطلب إليه أحد ذلك ، لتحطمت السفينة تماما . واندهش أريك كيف أن القبطان لم يقل له : اصعد إلى السارية فورا . . انه يقسم بالله أنه سمع ذلك، ولكن القبطان ضحك .. وقال له: لقد أنقذت السفينة ، ولكن لا تفعل شيئا دون أمر .. ولا تردد هذه العبارة ورائى !

وذبحوا واحدا من الخنزيرين الباقيين وكانت ليلة سعيدة ..

وطلعت الشمس .. وغابت .. وظهر القمر .. والجو يزداد دفئا.انهم الآن متجهون إلى الشمال .. إلى قرب خط الاستواء . . ولون البحر يتغير من الرمادى إلى الأخضر ثم إلى الأزرق والدفء المنعش .. ثم الحرارة الشديدة .. ولكن الجو محتمل الآن .. وفى الصباح الباكر صعد واحد من البحارة إلى قمة السفينة ورأى سفينة شراعية من بعيد وسأله القبطان أن يصف أعلامها .. ولكنه لم يستطع أن يرى الأعلام ، وصعد بحار آخر وفى يده التلسكوب ووصف أعلامها .. من الغريب أنها سفينة فايكنج التى أبحرت قبلهم من استراليا .. وكان ذلك يوم ٩ أبريل عيد الفصح .. وأحسوا جميعا أنه يوم عيد حقا .. لقد خرجت هذه السفينة قبلهم بشهر .. إذن لقد أدركوها ، وسوف يسبقونها ، انهم يمشون أسرع .

وأعلن القبطان الرهيب أن أيام العيد قد انتهت ، وأنه يعدهم بإجازة طويلة على الشاطئ . ومن الضرورى أن يصلوا إلى ايرلندا قبلها ، لا نوم بعد اليوم ، الكل على ظهر السفينة ، ولابد أن يسبقوا هذه السفينة ولو بشبر واحد وليبتلعهم المحيط بعد ذلك ! ..

الأمطار غزيرة ، المياه قد ملأت جوف السفينة ، ولكن جوالات القمح قد تغطت بالشمع السميك .. والمهم عندهم ألا يروا هذه السفينة .. إنهم جميعا يتجهون إلى المناطق الدافئة ، فالأحوال أحسن ، والقبطان كأنه مضبوط على أشعة الشمس ، كلما تسللت من وراء السحب ، تسلل الابتسام إلى وجهه ..

وفى أول مايو بلغت حالة اليأس أقصى مداها على ظهر السفينة حتى لقد ألقى البحارة بأنفسهم إلى المـاء يسبحون بالقرب من السفينة وقد ربطوا أنفسهم بالحبال .. ان الموج أرحم من السفينة . أما أريك الصغير فقد ربط نفسه فى أحد الأعمدة ، وقد جمعوا الأشرعة تماما ، حتى تظل السفينة أقل اندفاعا .. وتوالت الساعات كأنها السنوات .. واقتربت السماء من المحيط ، وكأن السحب والموج تريد أن تسحق السفينة تماما وهذا واضح ، ولا أمل فى النجاة ، ولكن القبطان كان كأنه يتفرج على تمثيلية قد رآها قبل ذلك عشرات المرات. فظهر على وجهه الكثير من الملل .. وكأنه يعلم أن الموج لا يعنى ما يفعل والرعد لا يعنى ما يقول ..

وبعد ذلك بأيام تحسنت حالة البحر ، وقرر أريك أن يبعث برسالة .. ولكن إلى من؟ إلى أى أحد، وأن يضع الرسالة فى زجاجة وأن يلقى بالزجاجة فى المحيط ، ولكن ما الذى يقوله ؟ كتب أريك فى الرسالة يقول : لا أريد أن أعيش بعد اليوم ، تعبت ، مع أننى ما أزال صغيرا ، ولكن الطريق الذى اخترته صعب ، ولا أعرف ما الذى دفعنى إليه ،. هل حقد أخى على .. هل هى غيرتى منه .. هل هى نظرة الاستخفاف فى عينى مرجريت .. هل هو الهرب من المدرسة .. هل أمى أسرفت فى حسن ظنها .. فهى تتصور أننى سوف أعوضها عن أخى .. وعن أخى الذى مات قبله .. إننى أشعر بأننى سفينة بلا شراع ولا دفة ولا بحارة ولا قبطان .. لذلك يجب أن أنهى حياتى بيدى .. ولكن لن يعرف ذلك أحد ..

ثم وضع الرسالة فى زجاجة وأقفل الزجاجة بإحكام وبدلا من أن يلقى بها فى المحيط ذهب إلى القبطان وطلب إليه أن يعطى هذه الزجاجة لوالده .. وأمره القبطان أن يفتحها وأن يقرأ ما كتب .. وضحك القبطان وصفعه بشدة على وجهه ، وهو يقول . إننى أرى شبابى فيك .. أعجبتنى رجولتك .. انى طردت زوجتى من البيت لأنها قررت أن يكون ابنها إلى جوارها وليس

إلى جوارى .. أردته رجلا وأرادته امرأة .. ثم ظل يضربه بيديه ورجليه .. وأغلق الباب عليه ..

وبعد ساعة عاد إليه ، وطلب إليه أن يستحم فى المحيط وأن يغير ملابسه وأن يتناول عشاءه معه ..

وعلى مائدة العشاء جلس القبطان والبحار الصغير ، والبحارة من حولهما يشربون ويغنون .. لقد سبقوا السفينة « فايكنج » لأنهم قطعوا ١٥ ألف ميل فى ٩١ يوما . أما السفينة التى رأوها فقد تخلفت عنهم عشرين يوما ، ولم يدركوا جميعا أنهم كسبوا سباق القمح الدولى .. إنه أول وآخر سباق بين السفن الشراعية عابرة المحيطات .. أما البحارة فيقولون الفضل للقبطان الرهيب .. أما القبطان الرهيب فيقول — الفضل للبحار الصغير .. أما البحار الصغير فيقول — بل بسبب نظرة استخفاف من فتاة كنت أتمنى أن تحبنى !..

١٥ ألف ميل قطعها
على ظهر حصان !

شاهدت القاهرة منذ سنوات « الأوبرا الزنجية » المشهورة باسم « بورجى وبس » .. وفى هذه الأوبرا نجد رجلا مكسحا يتحرك على قاعدة خشبية لها عجلات وتجره ماعز سوداء وهو يحب بطلة الأوبرا .. وهو صادق فى حبه . وهذا الصدق هو الذى يجعل لأحداث الأوبرا طعم العسل والمر معا .. فهو حب مضحك ولكن يبعث على الحزن أيضا .. وعندما عرف هذا المسكين أن حبيبته قد سافرت سأل الناس — وأين مدينة نيويورك ؟ فأشار الناس إلى الناحية اليمنى من المسرح .. أو بعضهم أشاروا على الناحية اليمنى ، التى هى ناحية المقابر أيضا ، وسألهم : فى هذا الاتجاه توجد مدينة نيويورك ؟ قالوا : نعم ..

واتجه المحب الولهان العاجز إلى ناحية نيويورك على هذه القاعدة الخشبية ذات العجلات الأربع ليلحق بمحبوبته التى هربت مع شاب عملاق .. ولكن أحد من الناس لم يقل له إن نيويورك تبعد عن هذا المكان خمسة آلاف ميل !

وعندما اتجهت به الماعز إلى نيويورك اتجه الناس إلى الباب الخارجى من المسرح فقد نزل الستار !

شاب آخر سويسرى نهض من النوم ليقول إنه لابد أن يسافر إلى نيويورك ولم يخجل الناس أن يضحكوا منه . أو يضحكوا عليه . هذا الشاب ولد فى سويسرا سنة ١٨٩٥ واسمه ايمى تشيفلى . كانت طفولته عادية . بلا أحداث ، ككل طفولة السويسريين .. وسافر إلى انجلترا .. وتعلم هناك . وبعد ذلك سافر إلى الأرجنتين وأقام فى مدينة بونس ايرس وكان رياضيا

فى غاية القوة . ولم تكن عنده أية رغبة فى المغامرة . إنه جاد فى حياته ومنظم وهادئ ونظيف – سويسرى مائة فى المائة !

وفى أحد الأيام كان يقلب فى أحد الكتب بعد أن تناول طعام الإفطار . وقف مرة واحدة وقال لخمسة كانوا يجلسون معه : اليوم ياسادة اتخذت قرارى الكبير سوف أذهب إلى نيويورك على ظهر حصان .. وليست هذه قضية أعرضها عليكم !

وصدق الناس هذا القرار لأنه رجل جاد .

وانتقل إلى تنفيذ القرار بسرعة . ذهب إلى السوق واشترى حصانين وساعدته صحيفة« لاسيون » فى تكاليف هذه الرحلة،فى نشر أخباره وتشجيعه ولكن هذا القرار لم يكن عملا جنونيا أو نزعة طائشة . فهناك تصرفات واهتمامات كثيرة تدل عليه . فهو مهتم جدا بالخيول .. وخصوصا بالخيول الكريول وهى أجود أنواع الخيول فى الأرجنتين أو فى العالم . وهى قادرة على تحمل السفر والمشى مسافات طويلة . وهذه الخيول قد أتى بها الأسبان إلى أمريكا فى القرن السادس عشر . وأهم من ذلك أن هذه الخيول لا تتأثر بالتغيرات الجوية .

أما المسافة التى يجب أن يقطعها فى الجبال والمستنقعات والغابات والوديان والوحوش والمتوحشين فهى عشرة آلاف ميل ..

اشترى حصانين . . كلاهما قصير العنق . ولكن له كتفان قويتان . وله أرجل رشيقة . وهو يقاوم أية محاولة لربطه أو تقييده . ولكن إذا وضع السرج عليه والجام فى فمه فإنه يصبح تمثالا لحصان . وفى غاية الاتزان . وكانت خطة « ايمى » أن يركب حصانا ويترك الثانى يمشى وراءه .. ثم يركب الثانى . . وبعد ذلك يستريح الثانى ويمشى هو بعض الوقت ، إنه يريد أن يستريحوا هم الثلاثة قدر الإمكان ..

وبدأت الرحلة . وكانت البداية أول الأمر قاسية عليه هو . فمع موسم الأمطار فى الأرجنتين توحلت الطرقات وقد سار فى طريق ضيقة أول الأمر . ومضوا يخوضون بحرا من الطين . وبعد ساعة من الرحلة سقط واحد منهم ميتا . لقد رافقهم كلب صغير . واقترب من أحد الحصانين فرفسه فقضى عليه فى الحال . وانزعج « ايمى » ولكن لا وقت للأحزان ولا داعى للتشاؤم ومضى فى طريقه الطويل ..

وانقطع نهار طويل ثقيل أسود .. وفى الليل ذهب إلى مراكز الشرطة وربط الحصانين هناك . وأوى إلى أحد الفنادق الصغيرة . فندق ريفى طبعا . الغرفة بها أربعة أشخاص يأكلون ويشربون ويدخنون . وإذا تعب النزيل وأغفى قليلا أيقظته الحشرات . وخيرا فعلت هذه الحشرات فقد سمع حركة غير عادية . ونهض ليجد أحد اللصوص يريد أن يسرق الحصانين . وكان الفندق ملاصقا لمركز الشرطة .

ومضى يوم آخر وتوقف عند أحد الفنادق . وكان عليه أن يلقى بالمراتب على أرضه وينام على الحديد . فالحديد أرحم بكثير من الحشرات .. واستأنف الرحلة متجها إلى شمال الأرجنتين . الأرض واسعة . الوديان سحيقة . الطريق ملئ بالمطبات . والأشجار الشائكة . والأمطار لا نهاية لها . والطريق خانق . ولم يكن يضايقه إلا السيارات التى تتلوى كالثعابين ولو انحرفت قليلا لأطاحت به هو والحصانين إلى الموت ..

وكان عليه بعد ذلك أن يختار طرقا أخرى فى بطن الوادى .. وألجأته العواصف الشديدة إلى أن يأوى إلى أحد الحقول . وفى أحد الحقول وجد جماعة من الفلاحين يجلسون حول النار . واقترب منهم ودعوه على الفور أن يجلس . وجلس . وقدموا له الطعام . فأكل وملأوا أكواب « البربا » — نوع من الشاى — وشرب . ثم أقسموا عليه أن يأكل « الأسادو » — نوع من اللحم الساخن الجاف — فأكل وأكل . وأدركه النوم فدفعوه إلى إحدى

الغرف ليستريح ، والغرفة مليئة بالدخان . والرؤوس والسيقان متقاربة . ونام . واستراح واستأنف رحلته من جديد ..

الطرق واسعة .. كل شئ واسع طويل عميق كثير .. شئ ممل . ولكن بين الحين والحين يجد قرية صغيرة ، ويخرج من القرية بعض الأطفال ووراءهم بعض الكلاب .. ينبحون جميعا ثم يجئ الهدوء والاتساع يأكل الصوت والصدى معا . ويخيم على كل شئ مالل رطب ، أو رطوبة مملة !

أمامه الآن هدف واحد هو أن يصل إلى حدود بوليفيا . وبعد ذلك يدخل فى أرض بوليفيا ثم يعود مرة أخرى إلى حدود الأرجنتين .

وكلما تقدم إلى الشمال كان الناس يدعونه إلى الطعام والشراب . وكل واحد يفتح له بيته ليقضى الليل فيه . وفى كل مكان يجد أناسا فيه .. وفى كل مكان يجد أناسا يرقصون ويأكلون ويشربون ويشدونه إلى الحظ والطرب قال له واحد منهم – يبدو أنه شيخ قبيلة – إلى أين ياصاحبى ؟ فقال : إلى نيويورك وعاد الرجل يقول : وهل إذا أكلت ورقصت ونمت تختفى نيويورك ؟ فأجاب : طبعا لا .. وعاد الرجل يقول : وإذا وجدت فتاة جميلة مثل هذه أكثر نعومة من الحرير ، وأدفأ من الشمس ، وتفعل بالرأس ما يفعله بحر من النبيذ ، وهى التى تتقدم إليك فهل ترفض ؟ .

وتقدمت الفتاة وتعلقت بعنق ايمى ، ونزل من فوق الحصان .. وظل ينزل حتى طلع النهار وقد وجد رأسه عند قدميه .. وكانت ليلة لم يرمثلها فى هذه الرحلة . ونهض بسرعة ولم يجد الناس .. لقد تركوه نائما .. وذهب كل منهم إلى عمله فى الغابات أو فى الحقول . وجمع حصانيه واستأنف الرحلة ..

وفى الطريق وجد أناسا طيبين . إنهم يشربون لبن الماعز من الماعز مباشرة ، ويأكلون اللحم الجاف .. ويقدمونه له طول الطريق .. وأمامه

بعد ذلك غابات وقنوات وأرض مزروعة وكان لا بد أن يحمل معه المزيد من المـاء له وللحصانين . فهو يعلم أن الطريق بعد ذلك قاس ، فى غاية القسوة . ولن تكون هناك أمطار .. وإذا أسقطت السماء مطرا فعليه أن يصنع قرطاسا كبيرا وينام على ظهره لينزل المطر فى القرطاس ويشرب .. وبعد ذلك عليه أن يملأ فمه بالمـاء ويفرغه فى فم كل من الحصانين .. ونام كثيرا على الأرض وملأ فمه وارتوى وكذلك الحصانان وما يزال الطريق طويلا .

وعليه بعد ذلك أن يعبر جبال الأنديز .. وقد أشار عليه بعض الناس الطيبين بأن يختار طريقا ملتويا وقد نصحه بعض الخبراء بأنه من الأفضل أن يصعد هذه الطرق على قدميه لكى يريح حصانيه . واقترح عليه بعض الخبراء البدائيين أن يمضى ليلة معهم يتفرج على ما يشبه السيرك . وفى السيرك تدور معارك . وتنتهى المعركة بأن يمثل واحد منهم دور القاتل والآخر دور القتيل . ولكن المنظر الذى أمامه كان لقاتل حقيقى وقتيل حقيقى . وتساقط القتلى وغرق الناس فى الدماء .. وتعلقت المشانق وطاشت السكاكين .. وانزعج ايمى . ولم يستطع أن يمشى على رجليه .. فركب أحد الحصانين .. واتجه إلى جبال الأنديز .. وبين الحين والحين ينحنى على الحصان ويقبله قائلا : ان سيدك مجنون . فلتكن أكثر عقلا . والأرض التى أمامه عند سفوح الأنديز مليئة بحقول قصب السكر وعلى الحدود لا يوجد سوى حراسة عسكرية . ورجال فيهم غلظة وقسوة .. معذورون .. إنهم لا يرون الناس سوى اللصوص والهاربين .. ولكن بالقرب من نقط الحدود توجد حفلات رقص..ثم توجد حلقات عديدة لأناس يتفرجون على مصارعة الديوك..وتوقف ليرى .. ولكن كان عليه ألا يستسلم للتعب .. فأقسى جزء فى رحلته هو منطقة جبال الأنديز . فالطرق جافة . وكل طريق يشرف على هاوية . والمجارى المـائية جافة أيضا والأحجار يتوالى سقوطها باستمرار من أعالى الجبال . ويجب أن يتخفف من كثير من الأشياء التى لا ضرورة لهـا ..

هذه هى قاعدة كل من يريد أن يصعد ، أن يكون خفيفا .. إن الطرق قاسية حتى على حوافر الخيل . لابد أن يمشى على رجليه ..

ومضى يوم ويوم . وجاء ليل . ونام فى حضن أحد الخيول .. والجو بارد إلى درجة الصفر . وامتدت يده إلى إحدى الزهور البرية . ونفذت أشواكها إلى يده فنزف الدم وتورمت بسرعة . وشعر بآلام عنيفة فى ذراعه. ولكنه مضى فى طريقه طالعا نازلا ملتويا معتدلا متهالكا . وعند أحدالمنحنيات وجد قبيلة من الهنود الحمر . ونظروا إليه بعيون نافذة ، واقترب واحد منهم ودعاه لأن يعالجه وعندما نظر إلى يده التى تورمت قال : أنصحك أن تعود إلى بونس ايرس – أى إلى بداية الرحلة .

ولكن رجلا حكيما . قال : أنا أعالجك .

وجاء الرجل بإناء يغلى . ووضع فيه بعض الأعشاب . ثم بعض المساحيق الملونة وظل الإناء يغلى حتى تحول ما فيه إلى عجينة ذهبية اللون ووضعها على اليد المتورمة وبعد ساعات ذهب الورم . ولكن درجة حرارة اليد ما تزال مرتفعة . وعاد حكيم القبيلة يقدم له أعشابا أخرى .. وبات ليلته ثم مضى فى رحلته من جديد ..

واقترح عليه الهنود الحمر أن يسلك طريقا آخر . أما هذا الطريق فقد وفر عليه مئات الأميال . وهذا الطريق يمر بجبل ارتفاعه ١١ ألف قدم . وقطعه فى عدة أيام ولكن الدم كان ينزف من أنفه معظم الوقت . ولكن الحصانين كانا فى صحة جيدة وفى غاية اللياقة البدنية والمعنوية أيضا . وكان هو أكثر حرصا على صحة الحصانين . وانتقل إلى بوليفيا .. ودیانها جميلة .. وتوقف عند أول كوخ من الطين . كان بلا تهوية . ونام بعمق . ولكنه فى الصباح صحا على دق الطبول العنيف . وعلى أصوات غريبة . إنه يوم القديس سان روكه راعى الكلاب . وفى هذا اليوم يمسك كل واحد بما

عنده من الكلاب ثم يطلقها . وفى هذا اليوم تتحرر الكلاب وتلهو وتلعب كما يحلو لها . وفى هذا اليوم أيضا تدور المعارك الدموية بين الكلاب . والناس يتفرجون وقد أنشب واحد من هذه الكلاب أسنانه بسرج حصانه . فقد ظن أن الجلد الذى يغطى الحصان هو جلد كلب آخر . ولكن « ايمى » أنقذ الحصان فى آخر لحظة . ومن الغريب انهم فى هذه المنطقة يأخذون الكلاب إلى الكنيسة ويدخلون بها . ويجئ القسيس ويباركها ويدعو الله أن يعيد هذا اليوم على الكلاب وأصحابها بالسلام والصحة .. وبعد ذلك تخرج الكلاب إلى الشوارع فلا يكون سلام ولا صحة . وإنما موت وضوضاء ومشاكل عائلية ولا يحسمها إلا كلاب العام القادم !

والتوى الطريق ودخل الغابات وهبط إلى الوديان وتسلق الجبال .. ثم تسلل إلى الحقول .. ولا تزال القرى صغيرة قديمة كما تركها الأسبان من مئات السنين . لم يتغير شئ . الأرض صغيرة والناس ظرفاء ورغم المرح على الأجساد ، فإن الوجوه حزينة .. لعلها متعبة من كثرة المرح . تماما كما يضحك الإنسان ولا يزال يضحك حتى يسقط ميتا ، فكثيرون يموتون من الضحك !

وجاءت مناطق المناجم .. مناجم الذهب .. فى هذه المناطق أقام الأسبان طويلا . والطريق ملئ بالهنود الحمر . وهى قبائل متوحشة . وقد حذره الكثيرون . ولكن لابد أن يصل إلى نيويورك ومن ورائه حصانان .. انها قبائل ايمارا — من هذه القبائل جاء رجال ثلاثة وبنوا السفينة رع الثانية فى ميناء صافى بمراكش .

وفى الليل طارده رجل مخمور . ولا يعرف ماذا يريد . واختبأ منه فى أحد الأفران الخامدة . وأمضى الليل كله عاجزا عن أن يفتح فمه ويسعل .. أما الحصانان فقد أخفاهما فى الحقول المجاورة . ولما طلع النهار وجد الرجل المخمور نائما بالقرب من الحصانين وقد ربطهما فى وسطه . وعندما اقترب

« ايمى » من الحصانين ووجد الرجل انزعج . ولكن الرجل المخمور قال له : إنما أردت أن أحرسك .. فالناس هنا قد اتفقوا فيما بينهم على ألا يتعرضوا لرجل مخمور معه سلاح .

ثم كشف عن صدره فوجد على صدر المخمور عشرات من الخناجر ولم يفهم ايمى ما يقوله هذا الرجل .. وعاد المخمور يقول له : إننى معجب بهذ النوع من الخيول ولم أرها منذ عشرين عاما .. وقررت أن أهجر عروسى هذه الليلة وأخونها مع أجمل مخلوقات الله !

وكانت هذه هى النكتة الوحيدة التى أسعدت « ايمى » وجعلته يزداد تعلقا بحصانيه ..

وكان عليه أن يدخل مدينة لاباز .. وفى هذه المدينة المتعددة الألوان ، القديم والجديد ، اتجه إلى سفارة الأرجنتين وقدموا له طعاما وطنيا اسمه (البيكانتة) و (السطيطة) .. وهى من لحم الديك الرومى أو الدجاج الذى غرق فى الشطة .. ولم يكد يضع قطعة فى فمه حتى شعر أنها قطعة من النار !

ومر بمدينة ميواناكا .. ورأى شواطئ بحيرة تيتكاكا .. وأمضى ليلة فى الرقص والشرب وهو طبعا لم يعرف الأهمية التاريخية لهذا المكان . وإنما بعد ذلك بعشرات السنين اكتشف العلماء أن سكان الكواكب الأخرى قد هبطوا إلى هذه المنطقة وإلى هذه البحيرة بالذات هبطت أول امرأة من الفضاء الخارجى . ولم يعرف طبعا أنه فى هذه المدينة بوابة توجد عليها نقوش لسفن فضاء هبطت من السماء من ثلاثين ألف سنة !

ومن جمهورية بوليفيا هذه اتجه إلى جمهورية بيرو . ولم يكن فى حاجة إلى وقت كبير ليعرف انه يجتاز منطقة من النار . فالعلاقات متوترة بين كل من بيرو وبوليفيا وشيلى .. وقد ظنوه أول الأمر من شيلى فكادوا يقتلونه ولكن عندما رأوا الكلمات المطبوعة على سرج الحصان

تركوه فى سلام .. فعلى سرج الحصان وجدوا هذه العبارة : تعيش الأرجنتين ..

وطلبوا إليه أن يبقى معهم هذا العام ! ولما عرفوا هدفه ، التفوا حوله وأعطوه طعاما وزجاجات من الشراب . وبعضهم قدم إليه تعويذة تمنع عنه الحسد وعين السوء وتحميه من المتوحشين فى الشمال ..

واستسلم وأكل وشرب ونام واستراح حصاناه ..

وانشقت الأرض ووجد رجلا إنجليزيا من المهتمين بالآثار . وتحمس ليكمل الرحلة معه . ولكن عندما هاجمها الذباب يوما بعد يوم ، قرر الإنجليزى أن يعود ، فحبه للآثار ليس أقوى من خوفه من الذباب والبعوض.

وجاء موسم الأمطار . وكان عليه أن يتسلق الجبال .. فالأمطار أقل . ولكن حذروه مرة أخرى من القبائل المتوحشة واستعان ببعض المرشدين لأن المناطق وعرة ومن الممكن أن يقتل فيها أكثر الناس خبرة بالجبال .. ففيها الكثير جدا من الطرق المتقاطعة ولا يعرف الإنسان أى هذه الطرق يختار .

ووجد من المناسب أن يحلق لحيته وشاربه . وضحك عندما تساءل — ولكن لماذا ؟ وأجاب : إنما أردت أن أتخفف من هذه الأعباء الثقيلة فأنا عاجز عن حمل لحيتى والحصان عاجز عن حمل شاربى !

وفى هذه المناطق يتعاطى الناس الأفيون بجنون . ويظل الليل فى عيونهم لا ينامون ولا يسهرون .. ولكنهم مفتوحو العيون ، ولا فرق ان كانوا قد ناموا ونهضوا من فراشهم ، أو أنهم فى طريقهم إلى الفراش !

وأحسن الطرق أمامه هو أن يتجه إلى الساحل قريبا من جمهورية اكوادور . الطريق رملى صحراوى . والأنهار متدفقة سريعة مخيفة . وهو

يحمل معه زجاجتين من الكونياك وعصير الليمون . وقد أضاف إلى عصير الليمون بعض الملح .

وقد أضيف إلى الطريق الممل عمل شئ آخر وهو الطعام – كله أرز مسلوق وفول مسلوق وموز مشوى وبيض وقهوة .

وبعد ذلك يجب أن يعبر صحراء اسمها ماتاكابلو – ومعناها مقبرة الخيول . الصحراء طولها مائة ميل . واختار أن يعبرها ليلا . أى يبدأ رحلته مع الغروب . وفى النهار يجب أن يأوى إلى الأشجار يغطيها بما معه من قماش هو والحصانان فى الظل الملتهب .

وبعد أن عبر الصحراء وجد طفلا صغيرا ، وسأله الطفل إن كان فى استطاعته أن يسافر معه . فوافق واشترى له بغلا صغيرا . ومضى ايمى والطفل وحصانان وبغل . قافلة . وعندما بلغوا خط الاستواء قرر أن يحتفل بهذا اليوم السعيد . فقد اتجه إلى النصف الشمالى من الكرة الأرضية ، واتجه بعد ذلك إلى كولومبيا .. انها أرض البراكين والزلازل التى تركت آثارها فى قشرة الأرض المحترقة المحطمة . الجو نار . والروائح غريبة وكريهة. وكل شئ قذر . والأكواخ من طين والناس كأنهم طين محروق . والطعام قذر .. وكل شئ يغريه بأن يهرب وهو يريد ذلك ولكنه لا يستطيع بهذه السرعة .

وركب هو والحصانان والبغل والطفل بعض السفن ليعبروا هذه المستنقعات المخيفة . وظلوا كذلك ثلاثة أيام . وعندما رست السفن عند مدينة كولون كان الطفل قد أصابته الملاريا . وتركه وراءه فى أحد المستنقعات . واتجه بعد ذلك إلى بناما . وبقى فيها يومين وفى هذه المدينة أصيب أحد الحصانين بجرح فى ساقه . فتركه إلى أن يتم شفاؤه على أن ينقل بعد ذلك بحرا إلى كوستاريكا .

أما بقية الرحلة فهى أشق من الأيام الأولى . فكلما تقدم فى سيره اصطدم بالحدود والمشاكل الوطنية والمعارك بين الإنسان والإنسان وبين الإنسان والأمراض .. ونقل حصانه فى سفينة .. ثم عاد والتقى الحصانان . واتجهوا جميعا إلى مدينة نيو مكسيكو .. وكان قد شعر بالخوف لأول مرة .. سمع عن الدماء والخطف والسطو .. وعن رجل مغامر مثله قد ربطوه فى حصانه وأطلقوا الكلاب على الحصان .. وبعد مائة متر أطلقوا النار على الحصان .. ولم يكن هناك سبب واضح .. ففى هذه المناطق لا يجد الغريب سببا واضحا لأى شئ .. انهم لا يدعونه يكمل رحلته .. حتى يكون الحكم قد صدر عليه أو صدر له .. فإذا هو ضيف عليهم ، أو ضيف على الشهداء ..

ونقل حصانيه فى القطار ..

وركب هو أحد الزوارق ، ثم التقوا جميعا وعبروا نهر ريو جرانده ، بولاية تكساس .. والطرق كلها مرصوفة . والفنادق متوافرة والماء العذب والعشب والطعام والعلاج ..

وكان لابد أن يصل ايمى تشيفلى إلى مدينة نيويورك بحصانيه ..

ووصل إلى نيويورك وانتهت رحلة العشرة آلاف ميل .. وتمدد ايمى تشيفلى فى فراشه ونظر إلى السقف وهو يقول : مجنون هذا الرجل ثم أشار بيده إلى صدره وراح يضحك .

ودق الباب . وانفتح . وإذا به يجد طفلا راكبا بغلا . انه نفس الطفل الذى تركه مريضا بالملاريا . لقد شفى تماما . والتقى بالطفل رجل من أبناء نيويورك قرر أن يعلم شيئا عن رحلة ايمى تشيفلى فعرف مكانه . وجاء بالطفل والبغل . واحتفلت نيويورك برجل قرر أن من الممكن أن يكون الإنسان قادرا على أن يتخذ قرارا خاصا وينفذه وحده .. وأثبتت

هذه الرحلة أن الأطفال الذين لا يعرفون الحوادث المثيرة فى حياتهم هم أشد الأطفال ميلا إلى الأطفال المثيرة . . وأن الخيول أكثر احتمالا من الإنسان وأن نجاح حصانين يؤدى إلى ارتفاع سعر الخيول .. لذلك استحق (ايمى) عشرة دولارات عن كل كيلو متر قطعها إلى نيويورك . . أما هـــذه الدولارات فقد جاءته من صاحب أكبر حظيرة للخيول فى الأرجنتين .. مكافأة على شجاعة الجميع !

لا تفتحي قلبك
أيتها الشقراء..
لأنني سأحطمه!

الناس يفضلون الأكذوبة الجميلة على الحقيقة الكئيبة .. يستريحون إلى النكتة أكثر من سعادتهم بجدول الضرب .. مثلا هو أول من وصل إلى قمة جبل « مون بلان » بسويسرا .. التاريخ الطريف يقول : انه رجل اسمه بالما . وكان ذلك يوم ٨ أغسطس سنة ١٧٨٦ . فهذا الرجل بالما . ابن نكتة. وقادر على أن يروى الحكاية الواحدة عشرين مرة بأشكال مختلفة . ويجب على الناس أن يستمعوا إليه . ولما سئل عن سر هذه الندرة العجيبة . قال : السبب بسيط . . فأنا أرويها لنفسى أربعين مرة قبل ذلك ! .

أما كيف تسلق بالما هذا،جبال الألب ليصل إلى قمة « مون بلان » ، فيرجع ذلك إلى أنه عرف طبيبا اسمه الدكتور باكار ، وقد اختاره الدكتور باكار مساعدا له .. أو بعبارة أدق « شيالا » لأمتعته وهو فى طريقه الصعب إلى جبال الألب .. لأول مرة فى التاريخ ..

وكان يمول هذا المشروع أستاذ جامعى من الأغنياء ومن الضرورى أن تعرف اسم الأستاذ الجامعى أنه : هوارسى دوسوسبر ، وهو من علماء الجغرافيا ومن أشد الناس اهتماما بالجبال والصخور وتاريخها ، وهو نفسه قد حاول تسلق جبال الألب تسع مرات ، وفى جميع المرات يعود ومعه عينات من الصخور ، وقد وعد هذا الأستاذ الجامعى بجائزة مالية لمن يصعد جبال الألب .

وكان الفتى بالما — ٢٥ سنة فى ذلك الوقت — يعرف أن هناك جائزة مالية .

وفى إحدى الليالى كان بالما ينام فى فراشه ، وفى الليل صرخ صرخة أزعجت زوجته فصاحت تقول له : كدت تقطع أذنى !

وجلس فى فراشه ليقول لها أنه كان يحلم بأنه اقترب من قمة جبال الألب وعندما أمسك بإحدى الصخور هوت إلى إحدى الثلاجات الشاسعة . . ولكن زوجته لم تسترح إلى هذا العذر السخيف . وإنما قالت له : اعرف أنك كذاب .. وأنها محاولة من رجل مخمور ليقضى على زوجته عضوا عضوا ! ..

ونهض بالما من فراشه ، وجمع ملابسه وأخرج عصاه من تحت السرير ثم ملأ جيوبه بالخبز وحمل معه زجاجة من البراندى . ووقف على عتبة الغرفة وقال لزوجته : إذا لم أعد غدا أو بعد غد فأنا هناك فى قمة جبال الألب !

وأقفل الباب ، وقامت الزوجة .. وقد اعتاد بالما على سخرية الناس منه .. فكانوا إذا قابلوه فى الطريق راحوا يرمونه بما فى أيديهم ، وكان يقول بصوت مرتفع : تشجع يا ولد : اعقل يا ولد . كن رزينا أيها الولد !

وعندما يسأله الناس : ومن هو الولد ؟ ..

يجيب بسرعة : لا تنخدعوا فى مظهرى .. ففى داخلى ولد .. طفل .. لو تركته على راحته لانحنى على الأرض وقبل أقدامكم جميعا ! ..

ولابد أن هذا الشاب المضحك المسلى الغريب الأطوار قد لفت عين الدكتور باكار ، ومن أجل ذلك اختاره رفيقا للطريق ، وأى طريق ! .

وكان على الدكتور باكار أن يختار بالضبط الطريق الذى سوف يسلكه إلى قمة مون بلان ، أما الطريق فقد درسه سنوات طويلة .. وقام بعدة محاولات تجريبية ورسم كل الصخور البارزة ، وحدد أماكن الأشجار ، والمنحدرات

والثلاجات والأنهار الجليدية ، ان منظر الجبل لا يغيب عن عينيه ليلا ونهارا ، وقد حسب كل شئ بدقة شديدة ، ولم يبق أمامه إلا أن يصعد وأن يستعين بأحد ووجد هذا البهلوان بالما مساعدا له .

وعندما بلغ بالما السبعين من عمره روى قصة صعوده جبال الألب للأديب الكبير الكسندر ديماس ، ورواها ديماس بعبارته الجميلة للعالم ، وكان ديماس هو السبب الحقيقى فى انتشار هذه القصة وفى دخول بالما التاريخ راكبا قلما جميلا رشيقا ، ومما قال بالما للأديب ديماس أنه بلغ قمة مون بلان عندما كان فى الخامسة والعشرين من عمره ، ولم يشأ أن يذكر أن زميله فى الرحلة هو الطبيب باكار الذى كان فى الثلاثين ، ووصف نفسه لديماس فقال : كانت حيويتى خارقة وشجاعتى نادرة .. واحتمالى للجوع مضرب الأمثال لقد أمضيت أياما كاملة أتنفس فقط . فإذا أحسست بالعطش الشديد مددت يدى إلى الجليد آكله .. أى ارتوى به وأتغذى عليه .

وقال له : وعندما صعدت وصعدت .. ونظرت إلى قمة مون بلان .. صرخت بأعلى صوتى .. أيتها الشقراء إننى فداؤك .. شهيدك .. أيتها الشقراء لا تبتعدى عنى .. ومهما ابتعدت فأنا وراءك مهما طال الزمن .. لاتفتحى قلبك .. أرجوك .. دعينى أحطمه .. أنا رجلك الأول وعاشقك الآخر ! ..

هكذا جاء على قلم الكسندر ديماس ثم أنه عرض الأمر على الطبيب باكار وتردد بأكثر أول الأمر ولكنه هو وحده الذى شجعه .. وقال له لا تخف .. وقال باكار : وكيف أخاف وأنت معى ، ان انسانا يمشى إلى جوارك لا يقع ، انه يمشى إلى جوار جبل .. وان يدا تعتمد على كتفك ، ليد تعتمد على أكبر أشجار الصنوبر .. أنا معك حتى الموت .. ولن تموت إلا عند القمة ! ..

وقال باكار أيضا : معك يتحول الجليد إلى ماء ، والماء إلى بخار ، والبخار إلى سحاب .. وأنت قبر النسور نطير معا إلى القمة ! .

وهنا قال بالما : إذن .. لقد حانت لحظة المجد لنا ! ..

وفى الساعة الثانية من مساء يوم ٧ أغسطس اتجه الاثنان إلى الجبل ، الطريق معروف فى أوله ولكنه مجهول بعد ذلك ، الخريطة أمامهما ، والشجاعة سلاحهما ، وفى اليوم الأول ناما فى ساعة مبكرة فى حضن أحدى الصخور .. وفى ساعة مبكرة من الصباح عادا إلى التسلق من جديد .. ولا شئ جديدا قد رأياه فى ذلك اليوم .. فالوديان مدروسة .. والمنحدرات مرسومة .. والغابات معروفة ولكن الطرق ملتوية حادة إلى القمة ، ما تزال مخيفة ، وكان على بالما أن يلتفت إلى باكار كلما خاف ، وأن يعطيه نصيبه من البراندى ومن الطعام ومن النصائح ومن النكت ، وفى إحدى المرات كاد يسقط باكار من الضحك .. فأدركه بالما بعبارة مؤلمةأوقفت باكار علىقدمين من الندم ! .

وكلما ارتفع الإثنان أحسا بضيق فى التنفس .. فالهواء خفيف ، والبرد لا يمكن أن يوصف يمكن أن يقال أنه يقرص .. أو يلدغ .. أو ينهش .. انه ملايين الأبر فى كل خلايا الجسم .. وقال للأديب الكسندر ديماس : انه خطر له أن ينظر إلى الوراء .. ليرى أين هو من الوادى .. وكاد لشدة ارتفاعه أن يسقط ، ولكنه عاد وجمع قواه واتجه إلى الأمام فما تزال الحبيبة الشقراء بعيدة عن يديه .. انها تملأ عينيه ولكن ما أبعد المسافة بين يديه وعينيه ..

وجاء الليل وتعب الدكتور باكار .. وسقط إلى جوار إحدى الصخور ، وراح زميله البهلوان يدلك يديه .. ورجليه ، وإن كان هو أيضا يشعر بأن يديه قد انقطعت صلتهما به .. واضطر إلى ترك زميله الطبيب بعض الوقت ومضى يسعى إلى القمة .. ثم عاد ونام إلى جواره حتى الصباح .. وفى شعاعات الفجر ، ترك صديقه المرهق المكدود .. ومضى إلى حبيبته الشقراء .. ولم تطاوعه أن يقترب من القمة وحده .. فعاد إلى زميله الطبيب ودفعه بقوة ،

وسحبه سحبا إلى المعشوقة الشقراء .. ووقف الاثنان أمام قمة مون بلان التى تبعد مسافة ٣٨ كيلو مترا مربعا وعلى ارتفاع ١٥,٧٧١ قدما ، هذه إذن هى قمة أوروبا .. ووقف الإثنان ساعة .. ثم ساعة ، وقررا العودة بسرعة . فلم يبق أمامهما سوى ساعتين وبعدهما تغيب الشمس ويبدأ القبر الأبيض الجليد الذى هو كفن لكل حياة إنسانية وغير إنسانية ..

ولكن شيئا واحدا أفزع الإثنين ، لقد أصيب الدكتور باكار بما يشبه العمى ، فقد قال لزميله : غريب إننى أسمع زقزقة العصافير ولكن لا أرى النهار ! ..

ووقف بالما .. وزال ذرات الجليد من فوق جفن الطبيب وراح يدلك عينيه حتى تمكن من الرؤية .. ثم سحبه إلى السطح .. إلى بطن الوادى .. وذهب كل منهما إلى بيته دون أن يصافح أحدهما الآخر ، واكتفيا بهذه الرحلة الصاعدة الهابطة الآلية .. بعد أن شهدا جبال الألب على هذه الشجاعة النادرة ، أما بالما فدق الباب .. وفتحت الزوجة ، واتجه إلى المرآة .. وجد العينين حمراوين والوجه أسود ، والشفتين زرقاوين ، وعندما حاول أن يضحك على نفسه تمزقت الشفتان الجامدتان ونزف منهما الدم ، ولما التفت إلى زوجته وجدها قد عادت إلى الفراش .. ولما أطال النظر إليها وجدها قد غطت أذنيها ووجهها كاملا فعرف أنها تخشى أن يتمدد إلى جوارها وأن يعاود الإمساك بأذنيها أو أنفها ولم تعرف ما الذى فعله الزوج عندما غاب عنها ليلة .. كل ما تعرفه دون أن تنظر إلى وجهه انه كان مخمورا طول الليل .. ولابد أنه سقط فى الطريق وظل نائما حتى الصباح وغطاه الجليد ولم ينقذه أحد عقوبة له وانتقاما لزوجته ! ..

وأطلق على نفسه ملك الجبل ، وبطل القمة الشقراء ، وفاز بالجائزة ، وبعث إليه ملك جزيرة سردينيا بجائزة أخرى ، وأعطاه أحد النبلاء الألمان معاشا سنويا ! ..

انتهت قصة هذا الشاب بالمـا والتي رواها في أجمل وأرق عبارة أديب فرنسا الـكسندر ديماس ! . .

ولـكن « صحيفة لوزان » السويسرية أعادت نشر القصة الحقيقية ، وقالت أن هذا الرجل بالمـا عندما روى قصته هذه كان في السبعين من عمره أي بعد حدوثها بخمس وأربعين سنة . . ولابد أنه أضاف من عنده الـكثير ، ولابد أن الأديب قد صاغ كل هذه التفاصيل في صورة روائية جميلة ، والأديب هو المسئول وحده عن بقاء هذه القصة المسلية المثيرة . .

ولـكن الحقيقة غير ذلك ، فقد عثرت « صحيفة لوزان » على وثيقة تركها الدكتور باكار وعليها امضاء بالما هذا يعترف فيها بالما بأن الدكتور كان مساعدا له . . وأن الدكتور باكار هو الذي رسم الخرائط ، وأنه هو الذي عالجه عندما سقط جثة هامدة قبل قمة مون بلان ، وأن الدكتور باكار وجد أنه ليس من الشهامة ولا من الرجولة أن يصل إلى قمة مون بلان وحده . . وتبدأ هذه الوثيقة بعبارة تقول : اقر أنا « بالمـا » واعترف بمنتهى الأمانة والصدق وبكامل قواى العقلية أن . . . الخ . .

أما تاريخ هذه الوثيقة فيرجع إلى يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٧٨٧ أي بعد صعود الجبل بثمانية وعشرين يوما ، ولسبب غير معروف ، توارى الدكتور باكار . . ربما كان مريضا ، ربما ذهب لزيارة بعض أقاربه في ألمـانيا . . ولـكنه وعد بأن يؤلف كتابا عن هذه المغامرة وقال بعض أصدقائه أنه قرأ لهم صفحات من هذا الـكتاب الذي عنوانه « التفاصيل الكاملة لتسلق أعلى جبال أوروبا » ، ولـكن أحدا لا يعرف أين هذا الـكتاب ، وقد أعلنت الصحيفة السويسرية عن جائزة مالية لمن يعثر عليه . .

ومات باكار هذا قبل أن ينشر الـكسندر ديماس قصته عن قمة مون بلان والتفت الناس إلى اللوحة الفنية التي رسمها الأديب الفرنسي — وهذا طبيعي — ولم يلتفتوا إلى هذه الوثيقة القانونية الجافة ! . .

ولـكن من المؤكد أن الاثنين قد صعدا الجبل . وبلغا قمة مون بلان ، وانهما سبقا عصرهما بسبعين عاما ، وبعد ذلك أصبح تسلق الجبال رياضة ممتعة ، وأصبح الناس يعدون لهـا جميع وسائل الأمن والعلاج والطعام والشراب والملابس .

أما الرجل نفسه دسوسبر الذى رصد لهما الجائزة فقد تسلق جبال الألب وبلغ قمة مون بلان فى نفس السنة . .

والذين يزورون الآن مدينة شامونيكس يجدون تمثالين لرجلين هما بالمـا وهذا الرجل دسوسبر . .

أما الطبيب باكار فقد توارى عن الأضواء ،واختار أن يكون هو الشاهد الوحيد على صعوده جبال الألب ، وأن يكتفى براحته النفسية ، فقد بلغ القمة وهو على يقين من ذلك . . ولا يهم إذا كان العالم لا يصدقَ ، أو إذا صدق ولم يقم له تمثالا . . فهو عندما بلغ قمة الجبل ، وقف جامدا ساعتين بلا حركة . . كأنه اراد أن يجعل من نفسه تمثالا فى أعلى مكان ، لأن أحدا لن يفعل له ذلك عندما يهبط إلى السفح ، وقد صدقت هذه النبوءة وظلمه الأدب ، وانصفه التاريخ وانكرته حجارة التماثيـل ! . .

ظهرهم

إلى حائط الصين

يتفلسف

أما الذى أسند ظهره فهو أديب إيطاليـــا الـكبير البرتو مورافيـــا . وحائط الصين ليس سورا من الحجارة القديمة . ولـكنه حالة عقلية قديمة . فهو شعور بالعزلة أو بضرورتها . هذا الشعور تحجر على مدى العصور ولكن الصين استطاعت أن تحبس نفسها وأنفاسها وراء هذا السور لتكون ماردا مخيفا لـكل من حولهـــا ، عددها هائل ٨٠٠ مليون نسمة . وأسلوبها فى الحياة والفكر متين . والكل يلتزمون به ويحرصون عليه . وهى « الإضافة » المؤكدة لـكل ما طرأ على الفكر الأشتراكى فى الخمسين عاما المـاضية .

والبرتو مورافيا قد زار الصين مرتين فى ثلاثين عاما . وآخر رحلاته كانت سنة ١٩٦٧ . وقد سجل رحلته فى كتاب له عنوان « الثورة الثقافية فى الصين » . والـكتاب رحلة عقلية ونفسية وأدبية وفلسفية . والـكتاب متعة مؤكدة . وكثيرا ما أقلب فى الـكتاب لإعادة قراءة صفحاته وكثيرا ما تمنيت أن أقفل الـكتاب ولا أعيد قراءة صفحاته فقد جاء الظلم فى عبارة فنية جميلة . . ولـكنه على كل حال ظلم لأكبر تجربة عرفها التاريخ . .

والفصل الأول من الـكتاب على شكل حوار . . بين مورافيا وأديب آخر صينى . . أو بينه وبين نفسه . . وهو يحاول أن يفهم وأن يوضح نفسه للقارئ . . مستخدما مشرط الطبيب أو سكين القرصان . . ولـكنه فى جميع الأحوال فنان مجتهد . .

سؤال : كنت فى الصين ؟

جواب : نعم .

سؤال : ما الذى أثر فيك أكثر من أى شئ آخر ؟

جواب : الفقــر !

سؤال : تقول الفقر . . فقط الفقر ؟ !

جواب : نعم . الفقــر .

سؤال : وهل فى الصين فقــراء ؟

جواب : بمقاييسنا فى الغرب . . نعم كل أهلها من الفقراء .

سؤال : وما أثر هذا الفقر فيك ؟

جواب : شعرت بالارتياح !

سؤال : غريب أن تشعر بالارتياح إذا رأيت هذا العدد الهائل من الفقراء . فالفقر معناه الهوان والفشل . . ومع ذلك تقول أنك شعرت بالارتيــاح ؟

جواب : هذا ما أحسست به . وأنا على يقين مما أقول . والإنسان لايمكن أن يخطئ فى مشاعره . وهذا بالضبط ما أحسست به طول الوقت فى الصين . وتسألنى كيف أحسست بذلك فأقول لك لا أعرف . ولكن سأحاول أن أجيب على هذا السؤال .

سؤال : فى الغرب لا يمكن أن يكون فقط الفقر يوحى بالارتياح . . أنه يوحى بالقهر وإرادة التمرد . أنظر إلى الزنوج فى أمريكا مثلا ، أنهم يشعلون النار فى الأزقة التى يعيشون فيها .

جواب : فى أمريكا هناك فقراء وهناك أغنياء . والفقراء فقراء ، لأن هناك أغنياء . والأغنياء لأن هناك فقراء . ولكن فى الصين لا يوجــد الا فقراء فقط . هل فهمت ؟

سؤال : فهمت ، وكان من الواجب أن أدرك ذلك . . ولـكن الا توجد لهم فى الصين صفات أخـــرى ؟

جواب : فعلا وصفهم بالفقر هذا وصف غير دقيق .

سؤال : بماذا تصفهم إذن ؟

جواب : لا توجد عندى الآن كلمة مناسبة . . فليس من السهل أن أصف الفقر وحده دون أن أصف الغنى ..أو دون أن أقارن بين الاثنين معا ..

سؤال : ولـكن أريد أن أعرف منك حقيقة ما هى هذه الصفحات التى ينفرد بها الفقر الصينى دون بقية الفقراء فى العالم ؟

جواب : يمكن أن تصفهم بأنهم فقراء بلا ثراء . أى أن الفقر هو الحالة العادية للإنسان .

سؤال : ليس هذا المعنى واضحا لأننى أرى فيه شيئا من التجنى . . فأرجو أن توضح لى أكثر ؟

جواب : أن المسألة سهلة جدا . كل إنسان يولد فقيرا معدما من كل شئ . أو بعبارة أخرى : أن الإنسان عندما يولد فإنه لا يختلف كثيرا عن الحيوان . لأن الإنسان غالبا يشبه كل الحيوانات الأخرى . . وكثيرا ما أندهش الإنسان عندما ينظر إلى حياته فيقول : هل هذه الحياة تساوى كل هذا العناء والعذاب هل تساوى هذا الجهد الهـائل الذى نبذله ؟ ولـكى يكون الإنسان انسانا فهو فقير . فالإنسان فقير . لا أكثر ولا أقل . ومن ذلك لا يوجد الا الثراء . فالفقر هو الحالة العادية لأى إنسان . أما الثراء فهو الترف . . فهو كل شئ « زيادة عن اللزوم » . . « زيادة عن الضرورى » !

سؤال : هل أفهم من ذلك أن الثراء يجعل من الإنسان كائنا غير عادى .. إنسانا غير طبيعى ؟

جواب : غير عادى أن يكون الإنسان غنيا .

سؤال : ما الذى تقصده بقولك : غير عادى ؟ أو بعبارة أخرى متى يذهب الإنسان إلى ما هو غير عادى . . متى يتجاوز الإنسان ما هو ضرورى وما هو لازم . . أى كيف ينتقل الإنسان إلى ما ليس إنسانيا ؟

جواب : نعود مرة أخرى إلى الصين فالرجل الصينى كما تراه فى الشوارع يملك كل ما ليس ضروريا . على الأقل الآن . أنهم فقراء . كما قلت لا أحد يشك فى أن انسانيتهم كاملة . ولكن هذه الإنسانية ينقصها شئ يجئ عن طريق الثراء . أى أن هذه الإنسانية فى حجة إلى ما ليست فى حاجة إليه . . أى من الضرورى لها أن يضاف إليها شئ غير ضرورى . . غير لازم . غير حيوى . فهم فقراء يعيشون على ضرورات الحياة . وقد زرت الصين منذ ثلاثين عاما . كان فيها فقراء يعيشون على الكفاف أو لا يكادون وكان فيها أغنياء . وكان الفقراء فى هوان . وكان الأغنياء بلا إنسانية ! وعندما اختفى الأغنياء ، أحس الفقراء بأنهم بشر . ذهب الأغنياء ، فعادت كرامة الفقراء .. اختفى الناس غير الطبيعيين ، وبقى الطبيعيون .

سؤال : هل أفهم من كلامك أن الرخاء أو الوفرة هى مصدر السعادة فى هذه الدنيا . . هذا إذا كنت قد فهمت تماما كلامك ؟

جواب : لا توجد وفرة فى هذا العالم يوجد إنتاج فقط . والإنتاج لا يوصف بأنه يبعث على المرح أو على السعادة . ولا يوصف حتى بأنه حيـــوى .

سؤال : هل أعرف منك ما هو الفرق بين الوفرة وبين الإنتاج ؟

جواب : الوفرة صفة من صفات الطبيعة والوفرة لا تكلف الإنسان عملا أو مالا أو وقتا . وليس المقصود منها هو الاستهلاك . وإنها الحياة فقط . أما الإنتاج فيحتاج إلى عقل ووقت ومال ولذلك فلا يمكن أن يكون الإنتاج

وافرا أو وفيرا . فالإنتاج متكرر . لأنه إنتاج شئ واحد لملايين المستهلكين ؟

سؤال : اذن أنت ترى أن انتاج ما لا يحتاجه الإنسان هو شئ غير اساسي . ولـكن من الذى يقرر ذلك . . من الذى يقرر ما يحتاجه الإنسان وما لا يحتاجه ؟

جواب : الإنسان نفسه أو فطنة الإنسان !

سؤال : لقد كانت فى التاريخ فترات طويلة اضطر فيها الإنسان ، لـكى يؤكد انسانيته أن يملك وأن يعمل ما ليس ضروريا ، ما رأيك فى عصر النهضة فى أوروبا ؟

جواب : هذه الفترات من التاريخ لا تهمنى . لا تهمنى مطلقا ، وإنما يهمنى العصر الحاضر .

سؤال : إذن لنتكلم عن العصر الحاضر . . من الذى يقرر ما هو ضرورى للإنسان ، وما هو إنسانى ، وما هو عادى طبيعى ، وما ليس عاديا ولاطبيعيا واين يبدأ واين ينتهى ؟

جواب : قلت لك انه الإنسان وحده الذى يقرر ذلك . بحسن إدراكه للأمور .

سؤال : الا ترى أن ايمانك بحسن الإدراك فيه اسراف . . أو الا ترى أن ايمانك بحسن إدراك الإنسان للأمور فيه حسن ظن هائل بالإنسان نفسه ؟

جواب : نعم . أننى أؤمن بحسن ادراك الناس العاديين لكل ما هو عادى إنهم ليسوا فى حاجة إلى ذكاء خارق لـكى يناقش الإنسان مسائل الجــوع أو الشبع أو الضياع النفسى أو المرح أو الملل . . الخ . . وسوف يجئ يوم يشعر فيه الإنسان العادى بالملل من أنه ليس إنسانا . وسوف يجئ وقت يشعر فيه الإنسان الغنى بأن ثروته هذه قد جعلته مجردا من الإنسانية . . وسوف

يتخلص الأغنياء من ثرواتهم . حتى لو كان هناك فلاسفة وحكماء يؤكدون لهم أنهم على خطأ .

سؤال : ولكن قل لى ما الذى يفعله حسن الإدراك فى مواجهة الثراء ؟

جواب : فى مواجهة الثراء سوف يتصرف العقل لا اراديا . فإذا وصل الإنسان إلى قمة الثراء أصبح لا إنسانيا ، بل أنه يحتاج بل ويريد أن يكون فقيرا — أن قمة الثراء مثل قاع الفقر !

سؤال : تقول أن الغنى سوف يتصرف من تلقاء نفسه ؟ الا ترى أن هذا أمر صعب ؟ وأنه إذا حدث فسوف يستغرق وقتا طويلاً مضنيا ؟

جواب : نعم . لأن الإنسان بطئ بطبعه .

سؤال : وما الذى يفعله الإنسان الغنى لكى يكون إنسانا فقيرا ؟

جواب : لا يفعل أى شئ !

سؤال : كيف ؟

جواب : لن يستهلك وعلى ذلك فلن ينتج ما هو زائد عن حاجته !

سؤال : ولكن الإنسان يجب أن ينتج وأن يستهلك ما أنتجه ! ألا ترى ذلك ؟

جواب : أى إنسان هذا الذى تتحدث عنه ؟

سؤال : أى إنسان . ألا ترى أن الإنسان عموما لا يفعل أكثر من ذلك؟

جواب : أنا لا أعرف شيئا عن الإنسان عموما . ولكن الإنسان اليوم — نعم اليوم — هو الذى يجب أن ينتج ويجب أن يستهلك . ولكن الإنسان غدا — نعم غداً — ربما كان مختلفا تماما عن إنسان اليوم وإنسان الأمس .

سؤال : لنكن واقعيين . لنتحدث عن الثراء الحقيقى وعن الفقر . هل فى استطاعتك أن تدلنى بوضوح أين يوجد الفقر فى هذه الدنيا ؟

جواب : فى الصين . ولـكن لا يوجد أى شئ يدل على أن الصين - جنة الفقراء - سوف تبقى على ما هى عليه إلى الأبد . لابد أن تتغير . لن يكون الغد كاليوم . ولـكن جنة الفقراء هذه لـكى تظل كما هى ، يجب أن يكون لهـا وجود مستمر . . وجود لا يتغير . .

سؤال : وأين يوجد هذا الثراء اللا إنسانى ؟

جواب : فى الغـــرب طبعا .

سؤال : اذن نتحدث عن الصين . لنفرض أن هذه الجنة أصبحت دائمة ، أى تحولت إلى حقيقة مستمرة . كيف يحقق أهل الصين هذه النتيجة . . أى هذا الاستمرار ؟

جواب : بأن يفعلوا بالضبط ما يفعلونه الآن .

سؤال : ولـكنك تعرف جيدا أن الصين تريد أن تتحول من دولة زراعية إلى دولة صناعية ومعنى ذلك أن فقرهم ليس إلا نتيجة لاستغلال رأس المـــال من أجل تحقيق الثورة الصناعية .

جواب : أعرف ذلك . وأعرف أنهم يفعلون الآن ما فعله الروس من أربعين سنة ، وما فعله الغرب من مائة سنة .

سؤال : ولنفرض أن الثورة الصناعية تحققت وتراكمت الأرباح وأصبحت حاجتهم إلى الاستثمار أقل فما الذى تفعله الصين برأس المـــال الذى سوف يتراكم باستمرار ؟ يجب أن يرفعوا الأجور ، وأن ينشئوا صناعات خفيفة ، لـكى تستوعب هذه الأجور - وعلى ذلك سوف تصبح الصين دولة كأية دولة أخرى ، دولة غنية . الا ترى ذلك ؟

جواب : هذا صحيح ولـكنك نسيت أننا نتحدث عن الجنة . فى الصين جنة . . دولة مثالية . . أنهم يحاولون أن يجعلوا من الجنة تاريخا . . والدولة المثالية تؤدى إلى حلول مثالية . .

سؤال : هل تدلنى على هذه الحلول المثالية . . ما هى هذه الحلول المثالية ، لـكى أظل فقيرا ، حتى لو كنت غنيا ؟

جواب : الجنة أو الدولة المثالية يجب أن تكون فى ضمير كل إنسان . أو يجب أن تكون ضميره . فإذا وجد هذا الضمير ، فإن الحل سوف يكون معناه : إذا أصبح الإنسان غنيا فهذه خطيئة . وجريمة . وسوف يشعر بأنه مخطئ إذا أصبح غنيا .

سؤال : أعرف أن الديانة المسيحية قد فعلت ذلك فى العالم ، دون أن تصل إلى نتائج مشجعة ! فما رأيك ؟

جواب : على الرغم من أن المسيحية لبضعة قرون ، حاولت نشر الفقر على أنه حالة مثالية للإنسان . ولـكن لو حدث ذلك لـكان معجزة . ولـكن المهم هو أن نصور الفقر على أنه الحالة الوحيدة للإنسان . .

سؤال : لا أفهم بالضبط ما تقول ؟

جواب : فى هذا العصر شعوب غنية جدا ، وسوف تشعر بالملل من هذا الثراء وتتمنى أن تكون فقيرة لأنها تعبت من الثراء .

سؤال : أن ثلثى العالم لا يجدون الكفاف ! فماذا يحدث لو كره الأغنياء فلوسهم وتمنوا لو أصبحوا فقراء ؟

جواب : فكرت فى ذلك . هل سمعت عن الفراعنة .

سؤال : وما دخل الفراعنة فى هذا كله ؟

جواب : ألم تسأل نفسك لماذا أقاموا هذه الأهرامات الهائلة والتى كلفتهم الـكثير من العمل والمال .

سؤال : لا أعرف . قل لى أنت ؟

جواب : لأنه ، فى رأيى ، من الضرورى أن يكون لدى الإنسان ماهو ضرورى . ومما زاد عن ذلك يجب أن يحطمه . فالأهرامات فى زمن السلم مثل الجيوش فى زمن الحرب . . أنه شئ يفعله الإنسان لـكى يقضى على الثراء ويجعل الإنسان فقيرا .

سؤال : ولـكن أين هى أهرامات العصر الحديث ؟

جواب : انها تلك المشاريع العلمية لغزو المريخ والزهرة والقمر . . أنها كل الرحلات الفضائية . فهذه المشروعات العالمية ، تستهلك الـكثير من المـال والرجال والتعب . أنها بالضبط أهرامات الفراعنة . ثم أن الأهرامات لم تكن نزوة من نزوات الملوك الآلهة ، أنها رمز الحضارة الفرعونية . وكذلك الرحلات بين الـكواكب ليست نزوة أنها من أهم معالم الحضارة وجوهر التنافس بين الدول الغنية الـكبيرة .

سؤال : معنى ذلك أن الولايات المتحدة تبنى أهرامات كثيرة . . فهى تشن الحروب وتطلق سفن الفضاء وما تزال غنية !

جواب : أمريكا غنية موقتا . كما أن الصين فقيرة موقتا . ان الصين الآن جنة الفقراء ، وهذا غير طبيعى وغير إنسانى .

سؤال : تقصد أمريكا أو الغرب كله ؟

جواب : أمريكا كنموذج للغرب كله !

سؤال : الا ترى أن الغرب سوف يكون غنيا دائما ؟

جواب : لا أرى ذلك طبعا . أن الغرب يفعل بالضبط ما سوف يجعله فقيرا . لـكن دعنا من المستقبل ولننظر إلى الحاضر . ولنتساءل لمـاذا الثراء لا إنسانى وغير طبيعى .

سؤال : صحيح لمـاذا ؟

جواب : لننظر إلى أى إنسان يريد أن يكون غنيا . أنه عادة يبتكر شيئا جديدا لا ضرورة له . ولـكن هذا الشئ حذاء موسيقيا . أى تصدر عنه موسيقى عند كل خطوة . فما الذى يفعله هذا المخترع لـكى يجعل إنتاجه شعبيا ويبيعه للناس ؟

سؤال : لا أعرف . . ولـكن لابد من الدعاية له ! أليس كذلك ؟

جواب : لابد من الدعاية . أى أنه سوف يخلق رغبة عند الناس لشراء أحذية موسيقية . رغبات وطلبات لا وجود لها . ولا يمكن أن يقول صانع الحذاء للزبون : أننى أبيعك شيئا لا تحتاج إليه . وإنما سيقول له دائما : اننـا نبيع لك شيئا ضروريا . وذلك عن تحويل مـا ليس ضروريا إلى شئ ضرورى .. هذه الدعاية هى التى تخلق الزبون الذى يستهلك . . أو الزبون المستهلك . . أو جمهور المستهلـكين !

سؤال : ولـكن الا ترى أنه يوجد مستهلـكون فى كل مكان ؟ حتى فى الصين فالذى يشترى الحذاء هو مستهلك .

جواب : هو مستهلك . ولـكنه ليس زبونا . وإنما هو إنسان يشترى ما هو ضرورى . ملابس يتغطى بها وحذاء يضعه فى قدميه . . ولـكن المستهلك حيوان . .

سؤال : ما الذى تقصده عندما تصف المستهلك بأنه حيوان . .

جواب : المستهلك هو مجرد احشاء . . مجرد بطن . . مجرد معدة . . ومصارين . . أنه مثل أى كائن له فتحات للقضم والهضم والإفراز بعد ذلك . هذة الكائنات لا تفعل أكثر من أن تدخل طعاما من الفم وتمضغه ، وفى المعده تهضمه ، وبعد ذلك تتخلص منه ! . .

سؤال : ولـكن ما الفرق بين الصينى وغيره من الناس ؟

جواب : عدة فروق . . فالرجل الأمريكى أو الغربى هو مجرد بطن . . لا هو أديب ولا هو فنان ولا فلاح ولا عامل . وإنما هو منتج ومستهلك .

سؤال : ولكن الإنتاج والاستهلاك يغطيان كل النشاط الإنسانى .

جواب : وهذا ما يفكر فيه الرجل الغربى .

سؤال : فقط ؟

جواب : فقط .

سؤال : ولا يفكر فى نفسه ؟

جواب : هذه النفس التى يتحدث عنها الرجل الغربى لا وجود لها . فالاستهلاك هو الذى يحدد المستهلك ولا يوجد منتج لا يستهلك . والا مات جوعا ولكن يوجد مستهلكون لا ينتجون فى كل بلاد العالم ، ويمكن أن يقال أن غاية الحضارة الإنسانية هى الاستهلاك — أى الإفراز !

سؤال : ما هذه الكلمة ؟

جواب : معناها إخراج ما لا تحتاج إليه فى جسمك . فالإنسان يستهلك ما يريد وبكميات كبيرة . فالمثل الأعلى للمستهلك هو الاستهلاك . ولكن النهاية : فى الزبالة !

سؤال : أظنك ترى معى أن هذه كلمات غير دقيقة وغير موفقة . . لأنه يوجد فى الدنيا أشياء كثيرة غير الطعام .

جواب : هذا التعبير الذى لم يعجبك يصلح لكل ما يستهلكه الإنسان . فى الصناعة مثلا ؟

سؤال : كيف ؟

جواب : فى المدن الكبرى يوجد الاستهلاك والإنتاج معا ، تماما كما

يتجاور المطبخ ودورة المياه فى أى بيت أذهب إلى خارج أيه مدينة سوف تجد المصانع . . سوف تجد الأفران الضخمة التى تنتج السلع وقريبا منها سوف تجد الأرض التى يلقون فيها مخلفات المصانع والزبالة والخردة . لقد استهلكت المدينة ما انتجته وهضمته . . ونبذت الذى هضمته !

سؤال : صورة قاتمة . . ولكن ما الحل ؟

جواب : الحل هو العفة ! الفقر والعفة . . لا أولاد . . لا جماهير . . لا احتياج إلى شئ الرجل وزوجته ماذا يصنعان ؟ انهما فى حالة نصف وعى ينجبان طفلا . . وكذلك المصانع فى شبه ظلام تنتج . . والآلات تنتج فائض الإنتاج لتقلل إنتاج الإنسان . . لا حل إذن غير العفة والفقر . .

سؤال : كأنه لا يوجد حب ؟

جواب : ولماذا الحب ؟ أنه عمل ميكانيكى . . أن الحب لا يؤدى إلى الجنس . . أن الحب يؤدى إلى العفة .

سؤال : لا أفهم . . لقد دوختنى !

جواب : الحب والجنس غريبان فى هذا العالم . . انهما مختلفان . . الجنس . . إنتاج . . والحب : عفة . . والفقر هو الحالة الطبيعية للإنسان . . ولذلك فالصين هى المجتمع الطبيعى الوحيد فى هذا العالم . .

* * *

أرجو أن تقرأ هذه السطور السابقة من جديد — ليست هذه رغبتى ، ولكنها رغبة الكاتب الإيطالى الكبير البرتومورافيا . أما أنا فقد فعلت ذلك عده مرات !

ولم تجد أحدا
يصفق لها
في النهاية!

عندما ولدت هذه الفتاة ونظرت إليها أمها قالت :

ياساتر . . الخالق الناطق عمتها . . أعوذ بالله ! . .

مثل هذه العبارة قالتها أيضا أم الفيلسوف الانجليزى برتراند رسل . . ولابد أن أم سقراط قالت عبارة شبيهة بذلك عندما ولدته . . فقد كان سقراط دميما ! . .

ولـكن هذه الفتاة لم تكن كذلك فعندما كبرت كان الوجه لمثل وجه شاب . . والرأس صغيرا والشفتان رفيعتين ، والأذنان صغيرتين . . ولكنها أنثى بعد ذلك وبصورة صارخة .

هذه الفتاة اسمها إيمى جونسون . . وهذا الاسم ليست له دلالة الآن . . ولـكنه فى ٥ مايو سنة ١٩٢٠ كان مثارا للكلام . . وأكثر الكلام سخرية . . وبعد ذلك تحول الكلام عنها إلى أن ترتفع العيون إلى السماء . . وتنشرح النفوس ويشعر الـكثير من الرجال بالخجل . .

هذه الفتاة أيمى ولدت سنة ١٩٠٢ وأبوها صاحب زوارق للصيد . . وهى كبرى اخواتها من البنات . . وكانت تلميذة مجتهدة . . وبرعت فى اللغة الانجليزية . . ولكن براعتها فى اللغة اللاتينية كانت حديث المدرسين . وكل شئ فى حياتها قد بدأ فى يوم واحد . فقد قررت وهى صغيرة أن تركب مع اختها ، على سبيل النزهة ، أحدى الطائرات التى حلقت بهما فى سماء لندن . . فى ذلك اليوم قررت أن تكون لهـا طائرة خاصة . . . وأمتنعت

عن الطعام لتوفر ثمن هذه الطائرة . . ومرضت من الجوع . . .ووعدها أبوها بأن يشترى لها طائرة عندما تكبر . . ولم يكن جادا . . ولكن الفتاة لم تعد تفكر فى شراء الطائرة ولا فى الطيران واتجهت إلى الدراسة . . وكأنها ادخرت هذا الوعد ، ووضعته فى مكان أمين . . كأنه كنز لعين . . . وأخفته عن العيون . . وانتقلت من المدارس الابتدائية إلى الثانوية وتخرجت فى جامعة شيفيلد . . وحصلت على ليسانس فى الأدب الانجليزى سنة ١٩٢٢ .

هنا فقط اتجهت أيمى إلى الطيران . . والكلام عن الطيران . . ودراسة تركيب الطائرات . . . وقبلها نادى الطيران عضوا . . ولم تكتف بهذه العضوية ، قررت أن تدرس هندسة الطيران . . وكانت أول مهندس ميكانيكى طيران فى العالم ، ثم طارت حوالى ١٥ ساعة و ٤٥ دقيقة من لندن إلى المدن المجاورة لقد طارت ولابد أن تتفرغ نهائيا للطيران وتقدم شاب لخطبتها . . وكرهت أن تراه . . لأنه ظهر فى الوقت الذى قررت فيه أن تعطى حياتها لشئ آخر لابد أن تطير من لندن إلى استراليا ! وعرضت فكرتها على كثير من المسئولين فى لندن . . وكانوا جميعا ينظرون إليها ويعتذرون عن مساعدتها . . وقد تعلقت العيون من أذنيها . . . أو فى اذنيها . . فقد كان من عادتها أن تضع اقراطا طويلة تتدلى من أذنيها . . ولكن الذى ينظر إلى عينيها يجد هذا البريق الذى لا يمكن أن يوصف بأنه دليل على الشجاعة والاصرار والأنوثة . . ولكن لها نظرات الأنبياء أو الصوفية الذين ينظرون إلى بعيد . . . ويرون ما لا يراه أحد . . وعندهم نوع من اليقين الغريب . .

سألها وزير الطيران : ولكن لماذا فكرت فى هذه المغامرة الخطيرة ؟

وكان ردها : ولماذا فكر أى إنسان قبل ذلك فى أن يغامر ؟ !

ولم يعجبه هذا الرد . . وأعتذر عن المساعدة . .

وسألها رئيس مجلس العموم : ولكن يا أبنتى أنت صغيرة ولم تتدربى بما فيه الكفاية . .

وكان ردها : أنا أعرف ذلك ولكننى قررت أن أطير يوم ٥ مايو سنة ١٩٣٠ أى بعد ثلاثة شهور بالضبط .

ولم يعجبه هذا الرد واعتذر عن المساعدة رغم أنه ضغط على يدها بحرارة وتمنى لها التوفيق . . وقالت له : أشكرك على حرارتك التى لا تفيد ! وخرجت . .

واشترت طائرة ماركة « دى هافيلان موت » بمبلغ ٦٠٠ جنيه . . . والطائرة لها محركان وقد قطع بها صاحبها أكثر من ٣٥ ألف ميل . ..والطائرة طول جناحيها ثلاثون قدما ويمكن طى الجناحين وبذلك تدخل غرفة عرضها عشرة أقدام . . وهذه الطائرة سرعتها مائة ميل فى الساعة . . . وطول الطائرة ٢٣ قدما و ١١ بوصة وأرتفاعها ٧ أقدام و٩ بوصات . . وتحمل ٧٩ جالونا من البنزين وتستهلك خمسة جالونات فى الساعة . . أى أن مداها لا يزيد عن الف ميل . .

ولم يفت أيمى أن تمر على شارع الصحافة . . . ولكن أحدا لم يلتفت إلى الفتاة الشجاعة وإنما إلى الفتاة فقط .. ولم تنشر عنها الصحف كلمة واحدة . لا يهم . . وكانت تقول لنفسها : سوف تنشر الصحف عندما انجح !

ولكن تقدم لها رجل كبير فى السن وقال لها : اسمعى يا آنسة . . أنا مؤمن بأنك سوف تنجحين لقد راقبتك فى الشهور الماضية . . وأنا أؤمن بك . . وسوف أعطيك ٣٠٠ جنيه . . . لأن ما تحتاجين إليه من وقود فى حدود هذا المبلغ . .

ولما سألته : من أنت ؟

أجاب : رجل غنى . . ليس له معنى ويحاول بهذه الفلوس أن يدخل التاريخ على طرف جناح طائرتك . .

وعادت تسأله : ولكن من أنت ؟

فأجاب : اسمى يا أبنتى . . لا يهم من أنا . . ولـكن أنت فى حاجة إلى مساعدة . . والشعب فى حاجة إلى مثل عليا . . والمثل العليا يضربها الشباب ويشكك فيها الشيوخ . . . طيرى . . طيرى . .

ولمـــا سألته : وكيف عرف أنها سوف تنجح ؟

قال : عندك جنون العباقرة . . ودقة رؤساء العصابات . . . وزهــد المتصوفين . . واحتقار الرجل . . أى احتقارك للجنس . . وليس عن الصدفة أن يخلق الله « النحل الشغال » بلا جنس . . فلا هو ذكر ولا هو أنثى . . ولذلك أخرج لنا هذا النحل أجمل ما صنع الله . . فأنت جميلة وكان فى امكانك أن تتزوجى أى شاب . . وتستقرى فى الأرض ومن حولك عدد من الأطفال . . لهذا كله سوف تنجحين . .

وأعطاها الرجل المبلغ . . . ولكنها أصرت أن تعرف من هو قبل أن تمد يدها إليه . . وكان الرجل مديرا لأحد المصانع ولم يرزق ولدا . . وماتت زوجته وأمه وأخوته . . وبقى هو الشاهد الوحيد على أسرة أكلها البحر والحرائق والمرض !

وجاء يوم ٤ مايو قبل الموعد الذى حددته بيوم واحد . . وطلت طائرتها باللون الأخضر . . وجعلت خوذتها خضراء اللون أيضا . . واطلقت على طائرتها اسم « باسون » وهو اسم اجدادها من الدنمركيين وقال لهـا اصدقاؤها أن اللون الأخضر شئوم على كل من يختاره . . ولكنها أصرت على اللون وعلى الطائرة وعلى الرحلة . . فإذا كان الناس لا يأخذون برأيها ، فلماذا نأخذ بأوهامهم !

وقامت برحلة صغيرة فى سماء لندن تجرب الطائرة ..

ويوم ٥ مايو ودعت قليلا من الأصدقاء .. ودرجت الطائرة على أرض المطار .. ثم ارتفعت واتجهت إلى أول نقطة فى طريقها إلى استراليا . فبعد

٨٠٠ ميل هبطت فى مدينة فيينا . قطعت هذه الرحلة فى عشر ساعات .. ثم قطعت المسافة من فيينا إلى القسطنطينية فى ١٢ ساعة . وفى هذا المطار أحس الناس بشئ غريب .. ووجدت عددا كبيرا من المستقبلين والمضيفين وتردد أسمها فى كل العواصم وأحست لندن بأنها قد ودعت ابنتها ببرود . وشعر الصحفيون بأنهم قد أساءوا التقدير . ولكن لا وقت للندم .

وفى هذا المطار التركى تقدمت فتاة صغيرة بباقة من الورد .. ثم قدمت لها رسالة صغيرة . تلقت ايمى الورود والرسالة . وعادت إلى طائرتها وفى طريقها إلى مطار حلب على مدى ٥٥٠ ميلا ، فكرت فى أن تفتح الرسالة لتعرف ما فيها .. وعندما فتحت الرسالة وجدت هذه العبارة بالإنجليزية : أرجو أن تلقى بهذه الورقة فى البحر .. فإن عندنا اسطورة تقول الذى يلقى ورقة زرقاء فى الماء لا يسقط فى الماء .. اتمنى لك السلامة .

وضحكت إيمى ووضعت الرسالة فى جيبها ولم تلقها فى الماء . فهى لا تؤمن بالأساطير ولا بالخرافات ولا بالحسد .

وفى مطار حلب استقبلها عدد من الناس . الذهول أهم معالمهم . وتزودت بالوقود ثم كان عليها أن تقطع هذا الطريق الشاق بين حلب وبغداد فوق الصحراء العربية . ولأول مرة تشعر بالخوف .. فالجو حار جدا . والأرض صفراء مخيفة .. وبسرعة انقلب لون السماء وهبطت عواصف رملية مفاجئة . وتحملت العاصفة ساعة بعد ساعة .. ثم اضطرت إلى الهبوط . وبسرعة وخفة هبطت من طائرتها ووضعت الحقائب وراء العجلات حتى لا تطيح بها العواصف . وأخرجت مسدسها من جيبها استعدادا لأى طارئ .. فقد قيل لها أن هذه المناطق يسكنها جماعة من البدو المتوحشين . وهؤلاء البدو يكنون كراهية للأجانب لا حدود لها .. ولو عرفوا انها امرأة لحطموا طائرتها وأخذوها رهينة أو أى شئ آخر ..

وظلت العاصفة الرهيبة تكنس الصحراء وتلقى الرمال على رأس الفتاة

وعلى هذه « الجرادة » الصغيرة التى جاءت بها من لندن .. ثم هدأت العاصفة . وعادت ايمى إلى طائرتها وارتفعت فى الجو متجه إلى بغداد . وبشئ من العناد أخرجت الخطاب الذى كان فى جيبها وألقت به فوق الصحراء ..

ومن بغداد اتجهت إلى البصرة ، وكان الجو حارا . وكانت العواصف الرملية تهب من كل الاتجاهات وعليها بعد ذلك أن تطير فوق الخليج العربى . وقد ملأوا رأسها بالمخاوف وقالوا لها أن فوق الخليج جيوبا هوائية وهذه الجيوب إذا سقطت فيها الطائرة لم يعد أحد يرى لها أثرا .. وقالت ايمى أنها أحست بأنها فى أحد هذه الجيوب .. ولكن الجيب كان صغيرا ولم تطل مخاوفها .. وكانت الرؤية متعذرة فوق الخليج .. وعليها أن تصل إلى بندر عباس على مدى ٦٠٠ ميل .. ونظرت تحتها فلم تجد أى مكان للهبوط فعلى مدى البصر مستنقعات وأوحال . ثم هبطت فى مكان أمين .. وتزودت باحتياطى الوقود .

ويوم ١٠ مايو كانت فوق كراتشى . وهى بوابة الهند وأصبحت ايمى جونسون حديث الدنيا كلها ..

ومن كراتشى اتجهت إلى كلكتا عبر الوديان الهندية الشاسعة . . ولكنها دارت فاتجهت إلى مدينة الله أباد . . وفوق مدينة الله أباد ، رافقتها طائرات السلاح الملكى البريطانى ثم تزودت بالوقود . وبعد ٧٠٠ ميل نفد منها الوقود . واضطرت إلى الهبوط . وواصلت الطيران إلى مدينة كلكتا . انها الآن قد قطعت نصف الرحلة إلى الهند دون أية حوادث .

وفى مطار كلكتا قابلها أحد السحرة الهنود . وأعطاها تعويذة . وضحكت أكد لها أن الموقف لا يبعث على الضحك . ثم قال : انى أعلم أن فتاة تركية قد أعطتك ورقة وانك ألقيت هذه الورقة فوق الصحراء ..

وانزعجت ايمى . وقالت له : كيف عرفت ؟

وكان رده : إن هذه الورقة ما تزال فى جيبك . ومدت يدها إلى جيبها فوجدت الخطاب وبداخله الورقة الزرقاء ..

واختفى الساحر الهندى ..

وكان لابد أن تحتفظ بهذه الورقة . ولكن هذه الورقة لم تمنحها الأمان لقد دخل الخوف قلبها . وأحست بقية الرحلة أن قلبها أعلى صوتا من الطائرة . وأنها ليست هى التى تقود الطائرة وإنما قوة غريبة .. وأن هذه القوة الغريبة قد جردتها من شرف الشعور بالبطولة .. انها سوف تكون فى نهاية هذه الرحلة صورة مضحكة للشجاعة . لأن الشجاع حقيقة شخص آخر .. أو قوة أخرى . وحزنت إيمى وقبل أن تصعد إلى طائرتها ظهر لها الساحر الهندى . وهويقول : اركبى يا إبنتى .. لا تخافى .. ان الورقة لم تعد فى جيبك . أنت سيدة الطائرة الآن !

ومدت يدها إلى جيبها فلم تجد الورقة . وشعرت بالخوف والفزع . واختفى الساحر الهندى .

أمامها الآن ٦٥٠ ميلا لكى تصل إلى مطار رانجون عبر جبال عالية خطيرة . وكانت الرؤية فوق الجبال صعبة . وارتفعت إلى ١٣ ألف قدم .. ثم عادت فهبطت إلى ١٥٠ قدما .. وظلت سبع ساعات تحاول أن تجد لها منفذا وأخيرا وجدته فوق غابات لا نهاية لها .. ثم عثرت على أشرطة السكك الحديدية وطارت فوقها حتى وجدت نفسها فوق رانجون ..

وعندما قررت الهبوط حدث شئ عجيب .. فقد نزلت إلى أرض لعله أحد ملاعب كرة القدم .. ودرجت الطائرة على أرض الملعب .. ثم دخلت بين خشبات المرمى دون أن يصاب جناحاها بشئ .. ثم قفزت من الطائرة ونظرت لهذه الطائرة الصغيرة التى دخلت المرمى بمنتهى الدقة .. وهبطت من عينها دمعة وهى تقول : إن هذا المشهد يحتاج إلى تصفيق الملايين . ولو كانت كرة لفعل الناس . ولكنها طائرة قادمة من لندن تقودها فتاة !

وهب هواء خفيف دفع الطائرة إلى الأمام فتدحرجت إلى فجوة فى الأرض فانكسر الجناح – ولحسن حظها كانت هناك ورشة قريبة وأصلحت الجناح فى يوم . وتزودت بالوقود . وعادت إلى الهواء .. فى اتجاه شبه جزيرة الملايو . فى طريقها إلى سنغافورة .. وقبل أن تصل إلى سنغافورة صعدت إلى الجو طائرات من سنغافورة للترحيب بها . وهبطت فى هدوء .. وكان حماس الناس جارفا ..

والعالم كله يعرف من هى . ومن أبوها . وأمها وأساتذتها فى المدرسة والجامعة وقصص أخرى عن غرامها الأول وخطيبها الأول . وكيف أنها قالت لخطيبها الأول : ان قلبى لا يتسع لإثنين .. إما أنت أو الطيران ..

وطار الخطيب الأول وإختفى عن العيون – لقد انتحر !

ولما سألوها إن كانت قد حزنت على خطيبها الأول قالت : من كان قلبها من الحديد لا تحزن على أحد !

وقصص أخرى روتها الصحف أو زورتها الصحف .. وشغلت الناس فى كل مكان !

ولكن أصدق ما نشرته الصحف عن هذه الفتاة لم تعبر فى حياتها بحر المانش ، ومع ذلك استطاعت أن تعبر المحيط وحدها ودون مساعدة أحد ، بل رغم أن الجميع رفضوا مساعدتها. وأمامها الآن أقسى جانب من الرحلة كلها . لأنها يجب أن تطير فوق مئات الجزر فى أندونيسيا وأن تتجه إلى مدينة دارون فى استراليا أى حوالى ٢٥٠٠ ميل . وعليها أن تطير معظم الوقت فوق غابات كثيفة ومستنقعات أو فوق براكين أو ماء المحيط . وفوق جزيرة سومطرة تعذرت الرؤية وحاولت الهبوط . واضطرت إلى أن تزحف فوق حقل من قصب السكر ونفذت عيدان القصب فى جناحى الطائرة وباتت تلك الليلة ضيفة على مدير المصنع . وحاول الجميع أن يسدو الفتحات فى

جناحى الطائرة . وتزودت بالوقود . وعادت إلى الهواء . وعندما ركبت الهواء ارتفعت روحها المعنوية .. ثم هبطت بعد ذلك فى مدينة سورابابا .. ورافقتها طائرات البريد الهولندية ..

وقررت ايمى ألا تتوقف عن الطيران مادام الجو لطيفا والسماء صحوا .. وعند الغروب انطلقت إلى السماء .. ولم يسمع أحد عنها شيئا . ولا رآها . وحاولت الشركة الهولندية أن تعرف أين هى .. وكلفت سفنها من ناقلات البترول أن تبحث عنها فى البحر .. وتناقل البرق أنباءها : انها اختفت .. فى الليل أو فى المحيط ..

ولكن إحدى ناقلات بترول شركة شل رأتها متجهة عند الفجر إلى ميناء دارون . فأبلغت هذا النبأ إلى مركز الشركة.وتناقلته الصحف العالمية .. أن ايمى جونسون فى الطريق إلى استراليا .. انها لم تغرق . وكان ذلك هو اليوم التاسع عشر منذ غادرت الجزر البريطانية .. لقد وصلت إلى مطار دارون .. قطعت١٢ ألف ميل وليس معها جهاز لاسلكى . وكان من الممكن أن تخطئ الطريق . وهذا طبيعى . وإنما انطلقت كأنها سهم . أو كأنها نوع من حمام الزاجل . وقبل أن تصل إلى مطار دارون شمال استراليا ، استقبلتها الطائرات .. وعلى أرض المطار رأى الناس هذه الفتاة الضئيلة الحجم الرقيقة الناعمة ولم يتصور أحد أن هذه النعومة فائقة إلى هذه الدرجة . ولابد أن هذه الأنوثة العنيدة تعبر ١٢ ألف ميل وحدها عبر الليالى والمحيطات والغابات والجبال !

ولما عادت إلى بريطانيا صدر قرار بتعينها أول طيارة فى العالم . منحتها صحيفة « ديلى ميل » عشرة آلاف جنيه .. أما أطفال سيدنى فقد جمعوا لها تبرعات اشتروا بها كأسا ذهبية . هذه الكأس تمنح الآن كل عام لأكثر الشبان شجاعة !

وفى سنة ١٩٣٢ تزوجت طيارا ..

ثم ضربت أرقاما قياسية من لندن إلى رأس الرجاء الصالح ذهابا وإيابا وكسبت أموالا كثيرة . وكان عليها أن تختار بين الطيران وبين الحياة الزوجية. واختارت البطولة .. أو الطيران .. فليس فى الزواج بطولة !

وفى سنة ١٩٤٠ عندما كانت تقود إحدى الطائرات الحربية سقطت فى نهر التايمز .. ولم يهتد أحد إلى جثتها .. وظلت وزارة الحربية ممتنعة عن إعلان خبر وفاتها حتى تجد الجثة . ولم يعثر عليها .وأعلنت نهائيا سنة ١٩٤٥ أنها ماتت .. وإن الفتاة التى عبرت المحيطات غرقت فى أحد الأنهار .

ورواد الفضاء الذين داروا حول الأرض ماتوا فى حوادث طائرات وحوادث سيارات .

ويقول أبوها أن الشئ الذى أدهشه بعد وفاة إبنته أنها كانت حريصة كل الحرص على تلك الورقة الزرقاء .. وأنها كانت تنقلها من فستان إلى فستان .. ومن حقيبة إلى حقيبة . ولكن عندما راحو يقلبون فى أوراقها .. وجدوا هذه الورقة ملقاة على الأرض . وعندما فتحوا الورقة الزرقاء وجدوا هذه العبارة : كان لابد أن أفارقك فقد حان أجلك ..

لو كانت
في هذا العمر بقية

حادثة معروفة فى التاريخ أن الفيلسوف الألمانى شوبنهور أصدر كتابا . وبعد أيام ذهب إلى الناشر يسأل عن الكتاب فوجد الكتاب كما هو لم تنقص منه نسخة واحدة .. لم يشترها أحد .. ثم ذهب مرة ثانية وثالثة وعاشرة، فوجد أن نسخة واحدة قد إختفت. أى أن مشتريا قد ظهر. وراح يبحث عن هذا المشترى الغريب . . وأخيرا وجده . . وكان أستاذا فى الجامعة . دق الباب . . ودخل . وتوقع أن يقول الأستاذ كلمة واحدة عندما سأله : ما رأيك فى هذا الكتاب ؟ وكانت أذنا الفيلسوف قد أستعدتا تماما لإستقبال هذه الكلمة : رائع !

وبعدها يعود إلى البيت لينام . فقد ظل فى أرق كل هذه الأيام الأربعين التى أختفى فيها هذا الكتاب . ويكفيه جدا قارئ واحد يلهمه أو يمدحه . . وبعد ذلك لايهم أن ينتشر الكتاب .

فالفيلسوف غنى وليس فى حاجة إلى فلوس . الكلمة الطيبة لا يمكن تقديرها بمال . إنه ترك البيت لأن أمه ترفض أن تقول له : صباح الخير . . ردا على صباح الخير التى يقولها هو لأمه . . فهو فيلسوف متشائم . ولا بد أن تكون أمه أهم عناصر التشاؤم والشؤم فى حياته . . وقرر فيما بينه وبين نفسه ألا تكون له أم . فى أحدى الليالى جلس أمام المرآة وقال : أيها الرجل أنت نبات الأرض . . أنت نبات برى . . أنت حيوان وحشى . . أنت مثل آدم .. لا أم لك !

ولكن الأستاذ الجامعى لم يقل له : رائع .. وأنما قال له كلمة أخرى

لا يمكن كتابتها باية لغة . . والكلمة ليست أهانة مباشرة له . . ولكن لأمه التي جعلت بيتها ندوة أدبية ولم تعلم أبنها كيف يقول كلاما واضحا !

وعاد الفيلسوف ليقول عن هذا الأستاذ وعن أمه وعن كل أنسان لم يفهم هذا الكتاب : هل صحيح أنه فى كل مرة يفتح أنسان كتابا من كتبي لم يسمع صوت حمار ينهق ، لماذا يكون هذا النهيق صادرا عن المؤلف دائما ؟ !

أى لماذا لا يكون صادرا عن القارئ ؟ !

ولم يعد الفيلسوف يبحث عن كتابه الذى أختفى من الأسواق فى سنوات ليظهر بعد ذلك مصباحا . باهرا يضيء الطريق إلى اليأس من الحياه ومن القراءة والكتابة ومن التفكير ومن الإيمان بشيء إلا أن الشر امرأة . وأن الشيطان امرأة . والحياة والموت بمعنى واحد !

قرأ قصة الفيلسوف الألمانى أرتور شو بنهور اثنان من الشبان الإيطاليين فى وقت واحد . مجرد صدفة . وتقابل الاثنان فى أحد البارات فى مدينة تورينو بإيطاليا . الاثنان من أبناء الأمراء . . أو الأغنياء . الأول أسمه الفريد نيرو والثانى أسمة : أنطونيو بالبو . . وهما فى الثانية والعشرين من العمر سنة ١٩١١ ، وكلاهما يهتم بالأدب ويحفظ الشعر . ولهما محاولات فى الرسم . . ولذلك لم يكد يلتقى هذان الشابان حتى تصادقا . وحتى اتفقا على أعمال أدبية كبيرة ، لم تدخل الفلوس فى الحساب . فهما قادران على النشر وليسا فى حاجة إلى ثمن أى عمل أدبى . . وفى يوم قال أحدهما للآخر : مارأيك ؟ ورد عليه الآخر : موافق .

قال الأول : إذن نبدأ من الآن ؟

قال الثانى بل من الغد فأنا فى حاجة إلى بعض الوقت لكى أفكر .

قال الأول : ولكنى فكرت . .

قال الثانى : إذن نلتقى هنا بعد أربعين يوما .

قال الأول : موافق !

وافترق الاثنان على أن يكتب كل واحد منهما قصة . . وبعد هذه الفترة يجئ الاثنان . ويجلسان ويقرأ كل واحد منهما للآخر ما كتب . وبعد ذلك ينشران هذه الصفحات الفنية فى كتابين أو فى كتاب واحد . .

وبعد أربعين يوما جاء نيرو ومعه قصة عنوانها : « لو كانت فى العمر بقية » . أما قصة بالبو فعنوانها : « حبيبتى ليس لها قلب من حجر » . . أما القصة الأولى فموضوعها أن شابا أحب فتاة . ولكن هذه الفتاة عذبته . وحاول أن يقنعها بأنه يحبها . ولكنها تظاهرت بالإقتناع . وقد حاول هذا الشاب أن يرضيها بأى شكل .. طلب إليها أن تأمره أن يعمل أى شئ ..أن يحلق شعره .. أن يقطع أصبعه .. أن ينام تحت بابها فى الشتاء . . يغمض عينيه ليلا ونهارا ولا يفتحها إلا على قدميها . . لم تصدقة فتاة . وليس عندها سبب معقول لعدم تصديقه . . ولذلك قرر أن يترك لها المدينة كلها . . وأن يعيش بعيدا . . وأن يتزوج أول فتاة تصادفه فى الطريق . وصادف فتاة وكانت جميلة جدا . وتقدم لها . . وفوجئ بأنها أخت الفتاة التى أحبها . . وعرف أن هذه الفتاة قد رضيت بالزواج منه حقدا على أختها . . وانتحر هذا الشاب . . فلن يتسع وقته بعد ذلك لكى يقنع محبوبته بأنها الصدفه هى التى ساقت أختها . . وليس فى عمره بقية لإقناعها . . ولن يكون ولذلك قرر أن يموت !

أما القصة الثانية التى كتبها بالبو فموضوعها أن الفتاة التى أحبها مغرورة . هى تحبه ما فى ذلك شك . . ولكنها تريد منه أن يحبها أكثر . وهى تعلم أنه يحبها . ولكنه لا يدرى ما الذى تريده منه . . أنه يقول لها طول الليل

والنهار : أحبك . وأموت فيك . . وقلبك هو مقبرة لقلبي . . وحياتك موتى. وموتى حياة لك . . ولو طلبت الهواء الذى أتنفسه لسددت أنى من أجلك . . ولكنها لم تصدق ما يقول لها . . فهو رجل صناعته الكلام . وهو يعنى مايقول أو لا يعنى ما يقول . . أما هى فليست صناعتها الكلام . أن ما تشعر بهتقوله دون أن تهتم كثيرا بشكله أو مضمونه .. ولكنه يريد أن يسمعهاتقول له : أحبك .. ألف مرة .. فالحب ليس أعمى فقط .. ولكنهأطرش أيضا . . أو يتظاهر بذلك . . فالمحب — رغم أنه يرى محبوبته — يريد أن يلمسها أن يتأكد من وجودها . . ولذلك كانت عيناه فى أصابعه . . وفى شفتيه وفى ذراعيه . . كلة عيون عاجزة عن الرؤية ولذلك . . فهو يريد أن يرى أوضح وأن يلمس أعمق . . وهو أيضا أطرش . . يريد أن يسمع حروف الحب والغرام والهيام والعذاب والأرق حرفا حرفا .. والحرف الواحد ألف مرة وتعب من اقناعها . . وتعبت فى اقناعه . وقرر الاثنان أن يفترقا . . وقرر هو أن يترك لها الدنيا لعلها تقتنع بأنه صادق فى حبه . . وأن الحياة بعدها لامعنى لها . . وأن الطريقة الوحيدة لإقناعها بأنها هى معنى الحياة هو أن يموت . . وانتحر . . أما هى فقد قررت أن تؤكد له بصورة عملية أنها لم تكن تريد من وراء الحب شيئا : لا مالا ولا زواجا ، فقد انتحرت أيضا . ومات الاثنان دون أن يعرف أحدهما أن الآخر قد مات . . دون أن يقتنع أحدهما بأن الآخر يحبه !

وقرأ الصديقان كل واحد قصته للآخر . .

وجاءت لحظة صمت . . طويلة . . منتهى الحزن . وغاية التشاؤم ولكن لحظة التفاؤل الوحيدة قد برقت عندما قالا فى نفس واحد ننشرها فى كتاب مستقل . . إن هذه المعانى تدور فى رؤوس كثير من الشباب مادامت قد دارت برؤوسنا . ولسنا وحدنا من يعرف قصة الفيلسوف الألمانى والنسخة الواحدة من الكتاب . !

وبعد ستة شهور كان كل منهما قد طبع كتابه. وقرر الاثنان أن يكونا بعيدين فى أقصى الشمال الإيطالى عندما يصدر الكتابان . . وأن يظلا بعيدين عن عيون القراء وعن أيديهم وأرجلهم عاما كاملا حتى لا يمرا بنفس المحنة التى مر بها الفيلسوف الألمانى . .

قال أحدهما للآخر . أن الفيلسوف الألمانى هو الحمار لأن أحدا لم يفهم الكتاب فالعيب فيه !

وقال الثانى : بل القارئ هو الحمار لأنه لم يفهم كلام الرجل . .

ولم ينس الاثنان أن يدخلا فى مناقشة قديمة موضوعها : من هو الغلطان الكاتب أو القارئ .

ومن المؤكد أن أختفائهما دليل على أن الاثنين يخشيان أن يصفهما أحد بالغموض . . أو بأن كلا منهما حيوان لايحسن التعبير .

وبعد عام عادا إلى مدينة تورينو . .

وكانت المفاجأة . لقد أختفى الكتابان تماما . وقال الناشر إنه اختفاء غريب . . عجيب . . فقد جاء رجل واشترى جميع نسخ الكتابين . . وقرر أن يوزع أحدهما فى جنوب إيطاليا .. وأن يوزع الآخر فى شمال إيطاليا .. أن يفصل بين الكتابين والمؤلفين . . ولكن من هو هذا الرجل ! لاأحد يعرف . ولكن لماذا ؟ لاأحد يعرف وكيف عرف موعد صدور الكتابين ؟ لاأحد يعرف ! وأحس الاثنان أن هذه عملية خطف . . وأن كلا منهما مثل أم انجبت طفلا وعندما استدارت لتنام إمتدت يد أخرى إلى الطفل وأختفى الطفل .

وفى لحظة واحدة قرر الاثنان أن يمشيا وراء الكتاب إلى الشمال والجنوب وأن يعرف الاثنان من هو هذا الرجل الغامض . . فأوصافه لا تحمل له آية مزايا خاصة . . فهو متوسط القامة — ملايين متوسطو القامة .. وهو كبير الرأس أصلع . . وله كرش . . وأبيض اللون . . أزرق العينين . . صوته

غليظ — إنها صفات تنطبق على نصف الشعب الإيطالى من أيام يوليوس قيصر . . إذن اختفى الرجل ومعه الكتاب . . ولكن لماذا ؟ هل هو عفريت ربما كان ذلك . .

اتجه واحد منهما إلى الجنوب . . سافر إلى نابلى . . ومن نابلى إلى أقصى الجنوب عند تارانتو . . ثم إلى صقلية . . ولكنه لم يجد أثرا للكتاب . . لاأحد يسمع بالكتاب ولا بالمؤلف . . ذهب إلى كل مكتبة يسأل . . بل انه كان يلتقى بالناس فى الطريق . . يقف عند أبواب المدارس . . عند مدارس البنات . . وعينه لا تفارق أيديهن . . وكان يذهب إلى القسيس فى الكنيسة يسأله النصيحة.. ويستوضحه إن كانت واحدة قد قرأت مثل هذا الكتاب ، إن كانت واحدة قد انتحرت بسبب هذه القصة ولكن القساوسة يضحكون ويطلبون إليه أن يصبر على بلواه . .

أما رحلة الجنوب فهى من نصيب الشاب نيرو . . وتعب من هذه الرحلة . . وقرر وهو فى طريقه إلى جزيرة صقلية أن يرمى بنفسه فى البحر ولكنه يريد أن يعرف ماالذى فعله بالبو فى الشمال . . إنه يريد أن يعرف من هذا الكائن العجيب الذى قرر أن يمزق الصديقين . . وأن يقتلهما فى وقت واحد . . ولكن ماذا ؟

وعاد نيرو أكثر حزنا . وطال انتظاره لصديقه ولكن الصديق لم يعد وازداد قلقه عليه . . ثم علم بعد شهرين أن صديقه بابلو قد انتحر . مات . ولم يصدق نيرو ما سمعه . وراح يبحث عن صديقه قيل له أنه انتحر فى مدينة ميلانو . وقيل أنه استأجر غرفة وأقفل على نفسه الباب ومات . واشترط على صاحبة البيت ألا تفتح غرفته قبل شهرين . وقيل أنه تعاطى كمية كبيرة من السم بعد أن اختفى فى احدى المقابر فى مدينة جنوة .

الوف المقابر . . وقيل أنه كان حريصا على أن يسد باب المقبرة وراءه قبل أن يتعاطى السم ولـكن لماذا ؟

وذهب نيرو إلى كل هذه المدن . . وهام على وجهه فى المقابر . . وطال شعر لحيته . . وتمزقت ملابسه . . وأحس أنه بطل فى قصه لمؤلف مجنون . . وأن هذا المؤلف يمشى على الورق يريد أن يصل إلى نهاية الـكتاب . . بأى شكل . . وأن الهدف ليس واضحا تماما . . وأنه لايعرف كيف يضع النقطة الأخيرة فى القصة . .

وذهب نيرو إلى أحد قاوسة مدينة تورينو وقال له : صديقى مات . . وقبله ماتت قصته وقصتى . . لم يعد للحياة معنى . . سوف أموت بيدى . . وسوف أختار مقبرة من مقابر أسرتى . .

ولم يستطع القس أن يمنعه . . وانتحر ومات . . وفى ٢١ مايو سنة ١٩٣٦ أعلن أحد أديرة مدينة تورينو أنه بعد وفاة هذا القسيس عثروا تحت سريره على حقيبة من الجلد مقفلة ومعها خطاب يقول : آسف لما حدث . ولـكنى أقسمت على كتمان هذا السر . إنها غلطة والله قادر على أن يسامحنى . فليسامحنى الله !

أما هذه الغلطة فهى أنه أقسم للشاب بالبو أن يحفظ لنفسه واحدة من قصته . . ونسخة واحدة من قصة نيرو . .

ولـكن أحدا لم يفهم معنى هذا الخطاب .

وبعد وفاة قسيس آخر فى نفس الدير أصبحت القصة معروفة تماما . .

فالشاب بالبو هو الذى أوصى أحد أقاربه فاشترى كل نسخ كتاب نيرو. وأحرقها . ولـكنه فى آخر لحظة تنبه ضميره . فاحتفظ بنسخة واحدة . ثم أحرق كل نسخ قصته هو أيضا . واحتفظ بنسخة واحدة فقد أحس أن قصة نيرو أجمل وأروع . . فهو لايطيق أن يراها . . وأن يقرأها الناس وأن

يتحدثوا عنه . . وأن تلتف حوله الفتيات . . وأن يكون مشهورا غنيا . . ولذلك قرر أن يموت الـكتابان والمؤلفان فى وقت واحد .

وفى ٢٣ إبريل سنة ١٩٤٣ أعلن قسيس ثالث فى نفس الدير أنه يستطيع أن يضيف شيئا إلى مأساة هذين الشابين الصديقين الأديبين . . لقد قرر بالبو أن يدفن نفسه فى أحدى مقابر أسرة نيرو . . وأنه من العجيب حقا ، أن يختار نيرو نفس القبر . . فمات الاثنان فى مقبرة واحدة . . ولـكن لماذا كل هذا ؟

إنه الحقد حتى الموت . . مع أن القصتين على درجه واحدة من الابداع الفنى . . وأن كل واحدة منهما قادرة على أن تمد فى عمر صاحبها مئات السنين !